

الدرس الأول



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

اتِّبَاعُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِزُومُ سُنَّتِهِ -صلى الله عليه وسلم-.



- نذكر دائماً أنَّ المؤمنَ يجبُ عليه أن يلزم طريقةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطريقةَ الصَّحَابَةِ ويتبعها بإحسانٍ، وهذا ينجو، قال ربُّنا -سبحانه وتعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100].
- فبيِّن أنَّ اتِّباعَ هذا المنهج بإحسانٍ، واتِّباعَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؛ هو سببُ الفوزِ بجَنَّاتِ النَّعِيمِ -نسأل الله الكريم من فضله.
- وهذا ما بيَّنه الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما حدَّثَ مِنَ الْإِفْتِرَاقِ فِي الدِّينِ، ومفارقةِ السُّنَّةِ والوقوعِ في البدعة، وحدَّثَ مِنَ الْفِرْقِ الْمَخَالِفَةِ، وأخبر أنَّ مَنْ فَارَقَ وَخَرَجَ عَنْ سُنَّتِهِ أَنَّهُ مُتَوَعَّدٌ، فقال: «تَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، قَالُوا: وَمَا تِلْكَ الْفِرْقَةُ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»^١.
- فالمؤمنُ والمسلمُ في شرقِ الأرضِ وغربها يَعْقِدُ الْعِزْمَ الْجَادَّ عَلَى اتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِزُومِ سُنَّتِهِ -صلى الله عليه وسلم- وعلى اتِّباعِ طريقةِ الصَّحَابَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ، وَالْعَشْرَةُ، وَأَهْلُ بَدْرٍ، وَأَهْلُ

^١ معجم الطبراني (5028).

أحد، وأهل بيعة الرضوان، والمهاجرين والأنصار، فيعقد العزم على أن يسلك منهمجهم رضي الله عنهم وأرضاهم- نسأل الله -جلّ وعلا- أن يجعلنا وإياكم ممن سار على هذا المنهج وجميع إخواننا المسلمين.

{(قال أبو جعفر الورّاق الطّحاوي المتوفى سنة واحد وعشرين وثلاثمائة: (والميثاق الذي أخذَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ حَقًّا. وَقَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَى فِيْمَا لَمْ يَزَلْ عَدَدٌ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَعَدَدٌ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ جُمْلَةً وَاحِدَةً؛ فَلَا يُزَادُ فِي ذَلِكَ الْعَدَدِ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ)).}

- يقول -رحمه الله: (والميثاق الذي أخذَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ حَقًّا). الميثاق: من جملة الأمور التي أخبرنا الله -عزّ وجلّ- عنها في القرآن، وجاء في السُّنة الإخبار عنه. والميثاق المراد به: العهد، وقد أخذه الله على آدم وذريته، يعني: أخذ عليهم العهود والمواثيق على أنفسهم، وأقرّوا على أنفسهم وشهدوا بذلك، والتمزوا به، وهذا مذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا بلى.. شهدنا [البقرة: 189].
- ﴿قَالُوا﴾: هذا قول حقيقي.
- ثم قال الله -عزّ وجلّ: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]، يعني: لئلا تقولوا، يُحذّرهم الله -عزّ وجلّ- من ذلك.
- وجاء أيضًا في سُنّة النَّبي صلى الله عليه وسلم ما يشهد بوقوعه وثبوته، وهذا في صحيح البخاري ومسلم، أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ» يعني من الأموال والغنى والجاه، «فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صَلْبِ آدَمَ، أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»^٢.
- وفي اللفظ الآخر: «قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»^٣.
- وجاءت أحاديث أخرى تدلّ على هذا المعنى، وفيها ما يتضمن مسألة الإيمان بالقدر السابق، منها ما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيْصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قَضَى عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوْلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْلَمْ تُعْطِهَا ابْنُكَ دَاوُدَ، قَالَ: فَجَحَدَ آدَمَ، فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِيَ آدَمَ فَنُسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِيَ آدَمَ فَخَطِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ»^٤.
- وفيه أخبار أخرى مثل حديث رواه الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية، فقال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، وَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ،

^٢ صحيح البخاري (6557).

^٣ مسند أحمد (12061).

^٤ هذا الحديث صححه ابن حبان، والترمذي قال عنه: حديث حسن صحيح

فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَنَيْمَ الْعَمَلِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُدْخِلُهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلُهُ بِهِ النَّارَ». هذا الحديث رواه الإمام مالك في الموطأ أيضاً، والإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان وصححه.

- وفي هذا الحديث كلامٌ في السُّنَدِ، لكن ذكرتُ في أوَّلِ الأحاديثِ الحديثَ المخرَّجَ في الصَّحَّاحين من حديثِ أنس بن مالك رضي الله عنه فهو في صحيح البخاري وفي صحيح مسلم.
- وهذا يدلُّ على أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يُذَكِّرُ العبادَ يومَ القيامةِ بهذا الميثاقِ، فهم في الدُّنيا قد نسوه، فكلُّ النَّاسِ في هذه الدُّنيا إذا وُلِدوا وَخَرَجُوا وَبَلَّغُوا لَا يَذْكُرُونَ هَذَا الشَّيْءَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ -عزَّ وجلَّ- لَمْ يَجْعَلْ هَذَا الْمِيثَاقَ وَحْدَهُ هُوَ الْحُجَّةُ الَّتِي بِهَا تَنْقُطُ الْمَعَاذِيرُ، وَإِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ -عزَّ وجلَّ- الْحُجَّةَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].
- وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بَعَادِهِ أَنْ جَعَلَ لَهُمُ الدَّلَائِلَ وَنَصَبَهَا وَأَظْهَرَهَا، دَلَائِلٌ عَلَى رَبوبيَّتِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُهُ، وَالدَّلَائِلُ عَلَى صِحَّةِ نَبْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَدَقَهُ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- فَهَذِهِ دَلَائِلُهَا كَثِيرَةٌ جَدًّا لَا يُمْكِنُ أَنْ تُحْصَى، دَلَائِلُ شَرْعِيَّةٍ، وَدَلَائِلُ الْإِجْمَاعِ مِنَ الْأُمَّمِ، وَدَلَائِلُ شَهَادَاتِ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ، وَدَلَائِلُ عَقْلِيَّةٍ، وَدَلَالَةُ الْفِطْرَةِ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ الْأُمُورِ الَّتِي يُذَكِّرُ بِهَا الْعِبَادَ: الْمَوَاقِيقُ الَّتِي أُخِذَتْ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ حَقٌّ﴾، وَإِنْ كُنَّا لَا نَذْكُرُهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ -عزَّ وجلَّ- لَمَّا أَخْبَرَنَا بِهِ عَلِمْنَا أَنَّهُ حَقٌّ، فَهَذَا مِنَ الْغَيْبِ، كَمَا أَنَّ مَا سَيَقَعُ لِلْعِبَادِ فِي الْبَرْزَخِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ حَقٌّ وَإِنْ كُنَّا لَمْ نَشْهَدْهُ، فَهَذِهِ أُمُورٌ غَيْبِيَّةٌ، فَنَحْنُ نَوْمِنُ بِمَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ -عزَّ وجلَّ- بِهِ، وَبِمَا بَيَّنَّ فِي كِتَابِهِ، وَفِي سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

• هذا معنى "الميثاق": العهود والمواثيق.

ما مضمونها؟

- أَلَّا يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالُوا بَلَى. شَهِدْنَا ﴿[الأعراف: 172]، الاعتراف بأنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.
- فالمراد بهذا: الإقرارُ على أنَّ اللَّهَ -عزَّ وجلَّ- هو المعبود بحقِّ، الإقرارُ بالرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ، فَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ: «أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا» دَلِيلٌ عَلَى إِبْطَالِ جَمِيعِ أَوْجِهٍ وَصُورِ الشِّرْكِ، وَتَحْرِيمِهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ يَعْنِي مَعْبُودَكُمْ الَّذِي اسْتَحَقُّ الْعِبَادَةَ؛ لِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ دَلِيلٌ عَلَى الْأُلُوهِيَّةِ، وَالْعِبَادُ يَقْرَءُونَ بِهَذَا، وَلَا يُنَازَعُ فِي هَذَا إِلَّا الشُّدَّاذُ، وَمَنَازَعَتُهُمْ مَكَابِرَةٌ كَمَا فَعَلَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14]، فَالْأَنْفُسُ مُسْتَيْقِنَةٌ، وَمُدْرِكَةٌ أَنَّ هَذَا الْكَوْنُ لَهُ خَالِقٌ، هُوَ

الذي خلق كل شيء، وأنَّ فرعون لا يملك نفعًا ولا ضرًا، وأنه مخلوق، وأنه سوف يموت، يعلمون هذا، حتى فرعون يعلم هذا، وهو أكفر مُلحد، فمن دونه من الملاحدة مثله.

- فالله -سبحانه وتعالى- إذا حاسب الخلائق يوم القيامة يعذر من لم تبلغه الرسالة والدعوة، ويمتنع يوم القيامة، هذا أصحُّ الأقوال فيهم -أنهم يمتحنون يوم القيامة- ولا يؤاخذهم الله -عزَّ وجلَّ- بقيام الميثاق، لأنهم لا يذكرونه، لكن من كفر في الدنيا ومات على الكفر وقد بلغته الدعوة والرسالة، فإنه يُحاسب على هذا وعلى هذا، فالدلائل التي قامت ونصبتها الله على أنه يستحق العبادَة وأنه رب العالمين لا تُحصى كثرة، ولكن الله من رحمته بعبادته أن جعل العقوبة مرتبة على إرسال الرُّسل، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]، وليس معنى هذا أن الكافر إذا لم تبلغه الدعوة أنه ليس بكافر، إنما يُعامل بحسب ما أظهر، فإذا أظهر أنه كافر كان يكون من النَّصارى أو من المجوس أو من اليهود، أو من غيرهم من الأمم الكافرة؛ فإنه يُضاف إلى ما أظهره، لكن إذا مات وهو لم تبلغه الدعوة فهذا يمتحن يوم القيامة في أصحِّ الأقوال، ويلحق بأهل الفترة.

● فالميثاق المراد به: العهد -كما تقدم.

هل هو الفطرة فقط؟



- الذي يظهر -والله أعلم: أن الميثاق شيئًا آخرًا فوق الفطرة، وأنَّ العباد يُذكرون به، وفي المسألة خلاف بين أهل العلم، لكن المشهور عند جماهير أهل التفسير من أهل السنة والجماعة المتقدمين منهم والمتأخرين أن الميثاق شيء آخر غير الفطرة.
 - المقصود والمهم في هذا: ألا يجعل مجرد الميثاق هو الذي تقوم به الحجة فقط، ولا حتى الفطرة يؤاخذ بها العبد، بل جعل الله الحجة قائمة في إرسال الرُّسل، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». وهذا الحديث في صحيح مسلم.
 - فقولته صلى الله عليه وسلم: «لَا يَسْمَعُ بِي» علق الأمر على السَّماع بدعوته صلى الله عليه وسلم والسَّماع باسمه، وأنه رسول، فالواجب على كل نصراني، وعلى كل من هو من غير المسلمين إذا سمع بأن هناك رسولاً وأن اسمه محمد؛ يطلب الحق ويبحث عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن دينه، وعن سنته، وعما جاء به؛ حتى يعبد الله -عزَّ وجلَّ- على شرعه صلى الله عليه وسلم.
 - هذا ما يتعلق بالتعليق على هذه الجملة، قوله: (وَالْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ حَقًّا).
- #### متى أخذ الله هذا الميثاق؟
- أخذَه على آدم وذُرِّيَّتِهِ قبل أن يُوجدوا ويُخلقوا، استخرجهم من ظهر آدم، وأخذَ عليهم وهم في ظهر أبيهم آدم ألا يشركوا بالله شيئًا.
 - قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، هذا إقرار.



بمشيئة الله النافذة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وتؤمن بأن الله خالق كل شيء، لا خالق غيره، ولا رب سواه؛ إذا آمنت بهذا آمنت بالقضاء والقدر، وهناك تفاصيل ستأتي تباعاً.

- فهذه المسألة مسألة عظيمة جداً، وأبو جعفر الطحاوي -رحمة الله عليه- بسطها، وذكر في جمل كثيرة ستأتي هذا الموضوع، وكررها في عدة مواضع من العقيدة الطحاوية، فمن ذلك قال: **(وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا لَمْ يَزَلْ عَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ جُمْلَةً وَاحِدَةً؛ فَلَا يَزَادُ فِي ذَلِكَ الْعَدَدِ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ)**، هذا قبل أن يخلق الخلق، علم الله جميع ما يقع من العباد، علم السعداء منهم الذين يدخلون الجنة، وعلم الله الأشقياء منهم الذين يدخلون النار -نسأل الله جلّ وعلا أن يجعلنا وإياكم وسائل إخواننا المسلمين من السعداء، وأن يُعيننا من طريق الأشقياء.

- ولكن لا أحد من الخلق يعلم ماذا كتب الله، لا أحد يعلم الغيب إلا الله -سبحانه وتعالى- وهذا يدعو المؤمن إلى الثبات، وإلى الصبر على الحق وعلى طريقه، والحق هو الإسلام، وهو الإيمان، وهو الإحسان؛ فثبتت عليه، ويدعو العاصي والفاجر والمنافق، والكافر إلى الرجوع عما هم عليه قبل أن يفجأهم الموت، لا أحد يقول: أنا مكتوب عليّ كذا أو كذا...، ما أحد يعلم الغيب، ولكن الله -عز وجل- هو وحده الذي يعلم كل شيء -سبحانه وتعالى.

- فَعَلِمَ اللهُ شامِلٌ، وهو محيط بكل شيء، في عددهم، وفي أفعالهم وأعمالهم، وتفاصيل أمورهم، قال: **(وَكَذَلِكَ أَفْعَالُهُمْ فِيمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ)**، كل أفعال العباد مقدرة، الله -عز وجل- علم أن هذا يُطيع قبل أن يُطيع، والله -عز وجل- علم أن هذا يعصي قبل أن يعصي، والله -عز وجل- علم أن هذا يبني، وأن هذا يركض، وأن هذا يمرض؛ كل هذه الأمور والأفعال التي تقع لهم قد علمها الله قبل أن يخلق الخلق.
- وأهم ما نحن بصددده هو موضوع السعادة والشقاوة، موضوع الطاعة والمعصية، موضوع الإيمان والكفر، موضوع السنة والبدعة، فالمؤمن يلزم الطريق الذي به نجاته ويجتهد فيه ويتحرّاه ويعمل به حتى ينجو، ولا يقول: مكتوب كذا...، ما أحد يدري! من ادّعى شيئاً فهو كاذب، حتى العاصي أو الفاجر لو قال: أنا مكتوب عليّ أنني كذا أو كذا.. نقول: تدّعي شيئاً، وتعرف أنك تكذب! أنت لا تعلم ما كتب عليك، فتب إلى الله وغير عملك. ولا يُحتجّ بالكتابة السابقة على فعل المعاصي، ولا يُحتجّ بالقدر على فعل المعاصي، من فعل هذا فهو من الزائغين.

- قال: **(وَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ)**، هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم وقد ورد في الحديث: **«اعْمَلُوا فِكْلٌ مَيْسَرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»**^٦، فلا تدع العمل الصالح والإيمان، فهذا نجاتك، هذه سعادتك، هذا فلاحك في الدنيا وفي الآخرة، **«اعْمَلُوا»** هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم جواباً على كلام الصحابة رضي الله عنهم: "أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟!" إذا كنّا من السعداء فنحن في الجنة، وإذا كنّا من الأشقياء فما الفائدة من أعمالنا؟!

^٦ صحيح البخاري (4593).

- قال صلى الله عليه وسلم: «**لا**» فلا تعصِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يا مسلم، لا تقول: أنا أَتَكُلُّ على الكتاب، تُعاند النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم اتقي الله، النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**اعْمَلُوا**» حافظ على توحيدك، حافظ على إسلامك، حافظ على اتِّباعِكَ للنبي صلى الله عليه وسلم حافظ على الصَّلوات الخمس في أوقاتها، حافظ على أداءِ الزَّكَاة المفروضة عليك، وصيام رمضان، وحج بيت الله الحرام، حافظ على برِّك بوالديك، كلُّ هذه الأعمال الصَّالحة قم بها حتى تنجو.
- وأنا أقرأ الآن حديث علي رضي الله عنه المخرَّج في الصحيحين ، وهو الذي وردت فيه هذه الجملة، فعن علي رضي الله عنه قال: "كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فَأَتَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَعَدَ ، وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مَخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمَخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً» ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدْعُ الْعَمَلَ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ» ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل 5-10].
- فقولُه -جلَّ وعلا- الذي ذكره النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بعد قولُه «**اعْمَلُوا**»: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ عَمِلَ أم لم يعمل؟! أعطى الزَّكَاة، أعطى التَّفَقَّات الواجبة.
- ﴿وَاتَّقَى﴾ التَّقْوَى: هي تركُ كلِّ محرَّم، وتركُ كلِّ تقصيرٍ في الواجبات، اتقى عقابَ الله بفعلِ الأوامر واجتنابِ النَّواهي.
- ﴿وَصَدَّقَ﴾، تشمل العقائد.
- ﴿بِالْحُسْنَى﴾ هي الجنَّة.
- ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾، هذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «**فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ**» فقولُه موافق للفظ القرآن.
- ﴿لِلْيُسْرَى﴾ هي الجنَّة.
- ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾، أي منع التَّفَقَّات، ومنع الزَّكَاة، ومنع زكاة نفسه بالإسلام والتَّوْحِيد.
- ﴿وَاسْتَغْنَى﴾، استغنى عن الله -عزَّ وجلَّ- في ظنِّه، وأعرض عن ربِّه، وأعرض عن دينِ الله.
- ﴿وَكَذَّبَ﴾ هذا في باطنه، ولهذا فالظَّاهر والباطن متلازمان، فالتَّصديقُ الصَّادقُ يتبعه عملٌ صالحٌ، والتَّكذيبُ يتبعه عملٌ فاجرٌ.
- ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ وهي النَّار -نعوذ بالله.
- هذا قول النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «**فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»، فأهل السَّعَادَةِ يُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فإذا رأيتَ نفسك مُقْبِلَةً على الطَّاعَةِ، وثابتاً على الإسلام؛ هذا عملٌ أهلِ الشَّقَاوَةِ أو أهلِ السَّعَادَةِ؟

• هذا عملُ أهلِ السَّعادة، فاحمدِ الله على هذا ولا تغترّ بنفسك، واحذر من الزَّيغ، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8].

• وإذا رأى الإنسانُ نفسه على الفجورِ أو ما أشد من الفجورِ؛ فهذا عملُ أهلِ الشَّقَاوَةِ؛ فيحذرو ويتقي، ويتوب، ويسارع إلى الإقلاع عن الذَّنْبِ، وعن الضَّلَالِ، وعن الكفرِ حتى يعملَ بعملِ أهلِ السَّعادة وينجو، هذا هو الواجب على كلِّ مسلمٍ، وهو أن يعملَ ويجهتدَ، ويسعى لفكالكِ نفسه من عقوبةِ الله، ولا يكونُ هذا إلا بالطَّاعةِ والتَّقوى والعملِ الصَّالحِ، والإيمان.

هل الإنسان مُسَيَّرٌ أم مُخَيَّرٌ؟

• وهذه العبارة يكثر تداولها بين النَّاسِ ويقعون في بعضِ الإطلاقاتِ التي فيها أخطاءٌ وهم لا يشعرون.
✓ إن قال: إنَّ الإنسانَ مُخَيَّرٌ؛ فهو يريد معانٍ ربَّما صحيحة، لكن لا ينتبه إلى معانٍ أخرى غير صحيحة، وهو أن يظنَّ أنَّه مستقلٌّ عن مشيئةِ الله وعن قدره.

✓ وإذا قال: إنَّه مُسَيَّرٌ؛ فقد يريد معانٍ صحيحة وهو أنَّ كلَّ شيءٍ بقضاءِ الله وأنَّ ما يقع له من مصائبٍ فهذا بتسييرِ الله وبقدره، ويغفلُ عن معانٍ يريدُها الجبريَّةُ وأهلُ البدع.

• فلهذا نقول لإخواننا: لا تقل هذا ولا تقل هذا، كلا اللَّفْظَيْنِ فيه خطأ، وقل مثلما قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم تَسْلَمَ، ولهذا فالتَّعبيرُ بالألفاظِ الشَّرعيَّةِ خيرٌ للمؤمن، وخيرٌ لطالب العلم، ولأنَّ في إطلاقِ لفظ "مسير ومخير" بعضُ التَّجاوزاتِ، ولكن قل: «كُلُّ مُسَيَّرٌ مَّا خُلِقَ لَهُ».

• فإذا أنت عملت عملَ أهلِ السَّعادة يسَّرَكَ اللهُ لعملِ أهلِ السَّعادة وتدخل الجنَّةَ، وإذا قمتَ بعملِ أهلِ النَّارِ يُسِّرَتِ لعملِ أهلِ النَّارِ وتدخل النَّارَ -نعوذ بالله- نسأل الله أن يدخلنا الجنَّةَ ويجيرنا من النَّارِ.

• فالأفضل للمؤمن أن يُعبِّرَ بالتَّعبيراتِ الشَّرعيَّةِ، ويلتزم بالألفاظِ الواردة في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ فهذا أسلمٌ له، لأنَّ الإطلاق في قولك "مسيَّر" فيه بعضُ التَّجاوز، فهل الإنسان مجبِرٌ في كلِّ شيءٍ؟ لا، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7-10]، أنت الآن تقدرُ أن تقومَ، وتقدرُ أن تجلسَ، تقدرُ تأخذَ القلمَ، وتقدرُ أن تتركه، تقدرُ أن تكتبَ خيراً أو تكتبَ شراً. فلا تقل: أنا مسيَّر، وتحاول أن تتخلَّص من تبعاتك؛ فأنت محاسبٌ عليها، لأنَّك مسؤول عن تصرفاتك، فالله أعطاك عقلاً، وأعطاك قدرةً، وأعطاك إرادةً.

• كذلك إذا قلت: أنا مُخَيَّرٌ؛ قد يتبادرُ بذهنك أنَّك بالفعل عندك حُرِّيَّةٌ وقدرةٌ وإرادةٌ، لكن بعضُ النَّاسِ -خاصَّةً بعضُ المعتزلة والقدرية- يريدون بذلك أنَّك مستقلٌّ عن مشيئةِ الله، فهذا غلطٌ عظيمٌ، فلا تقل هذا ولا هذا؛ بل احفظ كلامَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وقوله، وعلم النَّاسَ هذا «كُلُّ مُسَيَّرٌ مَّا خُلِقَ لَهُ».

• نرجعُ للحديثِ الذي شرحناه وهو: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ»، جاء في بعضِ الرِّوَايَاتِ عن بعضِ الصَّحابة قال: "فلما سمعنا بهذا ما كنَّا بأشدَّ اجتهداً ممَّا بعدما سمعنا بهذا"^٧.

^٧ ورد في صحيح ابن حبان (337)، عن سراقه بن مالك لما سمع الحديث قال: " فلا أكون أبداً أشدَّ اجتهداً في العملِ ممَّا الآن "

وهذا دليلٌ على أنَّ هذا هو أوَّلُ طريقِ الجنَّةِ، أنَّكَ تُطيع اللهَ -عزَّ وجلَّ- وتطيعُ الرَّسولَ صلى الله عليه وسلم وهذا يُشجِّعُكَ على الثَّباتِ، حتى العاصي يُذْكَرُ وَيُخَوَّفُ باللهِ، فيقالُ له: أنتِ إذا استمررتِ على هذا المنوال السيِّئِ فأنتِ على خطَرٍ أنْ تقعَ في النَّارِ؛ فأقلِّعِ عن هذا الذَّنْبِ، وتُبِ إلى الله، وبادرِ بالتَّوبةِ قبلَ أنْ يفجأك الأجلُ، ولا تُسَوِّفْ فربَّما يهجمُ عليك الموتُ.

- ثم قال: **(وَالْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ)**، الحقيقة أنَّ هذه الجملة هي ثابتةٌ أيضًا عن النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال: **«الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»**^٨، وهذا وردَ في عدَّةِ أحاديثٍ من أحاديثِ الصَّادقِ المصدوقِ التي رواها عبد الله بن مسعود، قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم الصَّادقِ المصدوق: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيَكْتُبُ عَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَرِزْقَهُ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ»**^٩ نعوذ بالله.

- قال: **«فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ»**، وقال صلى الله عليه وسلم: **«الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»**.

❓ كيف هذا عمل بعمل أهل الجنة ثم حصل له هذا؟

- ورد في بعض الروايات الصحيحة أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ»**^{١٠}، يعني عنده نفاق يُخفيه، فظَهَرَ في آخر حياته، ولكن من فضلِ الله على عباده أنَّ الموقِّقَ للطَّاعات والموقِّقَ للعملِ الصَّالح أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يُنَبِّئُهُ، وهذه بشارَةٌ للمؤمن، ولكن هذا فيه تخويفٌ لكلِّ مسلمٍ ألا يتساهل في أمورِ الدِّين، لأنَّ بعضَ الكلمات تُخرج من الملة، مثل الاستهزاء بالدِّين الإسلامي، بعضُ النَّاسِ يدخلُ مجلسًا ويجدُ مَنْ يستهزؤون بالإسلام وبالنَّبي صلى الله عليه وسلم فيشاركونهم ويضحك معهم وينقل كلامهم راضيًا به؛ فيستحق سخطَ الله، فبعد أن كان يعمل بالطَّاعة حَصَلَ له هذا الشَّيء، ولهذا يعظمُ خوفُ المؤمن على إيمانه، لأنَّ أعظمَ كنزٍ عندك هو الإيمان والإسلام، فأعظمُ منَّةٍ منَّ الله بها عليك أنَّكَ مسلم، فهذا الإسلام هناك مَنْ يريد نقلك عنه وزعزعة قلبك عنه حتى تخرج منه؛ وهو عدو الله الشَّيطان، **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾** [فاطر: 6]، ولهذا اثبت على الإسلام، تأتي فتنٌ وعواصفٌ من الشُّبهات أو الشَّهوات؛ فاثبت على الإسلام، واسأل ربَّكَ الثَّباتَ، قل: يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلبي على دِينِكَ، نسأل الله أن يهدينا ويكفيننا شرَّ أنفسنا.

^٨ صحيح البخاري (6607).

^٩ صحيح البخاري (3105).

^{١٠} صحيح البخاري (2697).

- ولهذا ثبت في الصحيح عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^{١١}.
- فهذا قوله صلى الله عليه وسلم: «الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»، يجعل المؤمن حريصاً على الثبات، وأيضاً يخشى على نفسه، وأيضاً يسأل الله -عز وجل- ألا يكون مغترباً بعمله، وجاء في صحيح البخاري لما أورد حديث عثمان في صفة وضوء النبي صلى الله عليه وسلم وقال فيه: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^{١٢}، فهذه بشارَةٌ عظيمةٌ قالها النبي صلى الله عليه وسلم.
- قال البخاري بعد هذا الحديث: "وقال الزهري: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تغتروا»^{١٣}"، فالمؤمن يجمع بين الخوف والرجاء، يرجو فضل الله -عز وجل- ويسأل الله الثبات.
- فهذا يجعلنا نخاف على أنفسنا ونرجو فضل ربنا، نجتمع بين الخوف والرجاء، نخاف على أنفسنا فنحذر من أهل الباطل وأهل الشر وأهل البدع وأهل الأهواء، وأهل التفاق، ونلجأ إلى ربنا وندعوه ونضطر إليه، ونسأله أن يختم لنا بالخاتمة الحسنة، لأن قوله صلى الله عليه وسلم: «الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ» يعني إذا خُتِمَ للعبد بشرٍ صار إلى شرٍ وطُبع على عمله بالشر حتى لو تقدّم هذا الشر بعض الخير لم ينتفع به إذا كان هذا الشر مخرجاً له عن الملة، أمّا إن لم يكن مخرجاً له من الملة كالمعصية فهذا يُنقِصُ حاله وإن كان مسلماً، لكن إذا خرّجَ عن ملة الإسلام فهذا هو الخطر العظيم.
- كذلك إذا مات على المعاصي أو على الكبائر أيضاً فهذا خطرٌ عظيمٌ، فالمؤمن يحذر من هذا ويستغفر ربّه، لكن الكبائر لا يُخلد صاحبها في النار، فصاحبها تحت المشيئة، إن شاء الله عذّبه وإن شاء غفر له، وإن عذّبه الله فإنه غير مخلدٍ فيها كما دلّت على ذلك الأحاديث.
- قال: (وَالسَّعِيدُ: مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالشَّقِيُّ: مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى) ، هذه هي السعادة الحقيقية والباقيّة.

؟ كم مدة بقاء الإنسان في الدنيا؟

- إن طال عمره فمدة بقاءه سبعون سنة، أو ثمانون سنة، نادراً من يبلغ التسعين أو المائه، لكن كم تُمثّل السبعين سنة أو الخمسين سنة من الحياة السرمديّة التي لا انقطاع لها؟! «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ: خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»^{١٤} حياة كاملة إلى ما لا نهاية، فالسعيد حقيقة ليس الذي يركب الفاخر أو يأكل ما اشتى، أو يسكن أينما اشتى؛ إنّما السعيد من سَعِدَ بقضاء الله، وقدّر الله وكتب أنّه من أهل الجنة، وهو في عمله في الدنيا يعملُ بعمل أهل الجنة.

^{١١} مسند أحمد (24044)، سنن الترمذي (3522)، وصححه الألباني.

^{١٢} صحيح البخاري (161)

^{١٣} صحيح البخاري (6433).

^{١٤} صحيح البخاري (4386).

- فاجتهد أيها المؤمن، واجتهد يا طالب العلم في سعادتك ونجاتك وصلاحك، هذا هو السعيد حقيقةً، والحياة الطيبة ذكرها الله في سورة النحل ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]، الحياة الطيبة في الدنيا وفي الآخرة.
- قال: (وَالشَّقِيُّ: مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى) ، يعني قدر الله -عز وجل- أن يكون من أهل النار، وهو في الدنيا يعمل بعمل أهل النار، معاندًا، معرضًا؛ نسأل الله العافية والسلامة.
- ولهذا يروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بغيره"^{١٥}.

وصلّى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



^{١٥} رواه الإمام مسلم من كلام عبد الله بن مسعود (4789).

الدرس الثاني



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{قال المصنف -رحمه الله تعالى: (وَأَصْلُ الْقَدْرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ؛ لَمْ يَطْلُعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ، وَسَلَمُ الْجِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ؛ فَالْحَذَرُ كُلُّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسةً؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدْرِ عَنْ أَنْامِهِ، وَمَهَا مُعَمَّرٌ عَنْ مَرَامِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]، فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ؛ وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}.

• يقول الطحاوي -رحمه الله: (وَأَصْلُ الْقَدْرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ؛ لَمْ يَطْلُعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ).

قوله: (أَصْلُ الْقَدْرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ) هذا من كلام علي بن أبي طالب مروى عنه رضي الله عنه أنه قال: "الْقَدْرِ سِرُّ اللَّهِ فَلَا تَكْشِفُهُ"^{١٦}.

؟ ما معنى هذا؟

معناه: أَنَّ تقدير الله -عزَّ وجلَّ- لأمور خلقه وتدبيره لهم لحكم ومصالح وغايات يعلمها ربنا- سبحانه وتعالى- فأعطى هذا، ومنع هذا، وأغنى هذا، وأفقر هذا، وأحيا هذا وأمات هذا؛ هذا لأفعال ولحكم ولغايات يعلمها

^{١٦} ذكره الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية (ج: 1 ص 321)

الله - سبحانه وتعالى - فلا تكشفه، ولا تخض فيما لا يعينك، ولا تسأل عما ليس لك به طاقة ولا علم لك به، هذا معنى "الْقَدْرُ سِرُّ اللَّهِ فَلَا تَكْشِفُهُ".

فالحوض في القدر: أن تسأل أحد السؤالين الخبيثين، سؤالين يدسهما الشيطان في قلب الملاحدة وفي قلب المفتونين:

❖ **السؤال الأول:** يقول: لِمَ فعل ربنا هذا؟ لِمَ أعطى هذا ومنع هذا؟ على وجه الاعتراض.

❖ **السؤال الثاني:** أن يقول: كيف فعل هذا؟ على وجه الاعتراض.

• "لَمْ" و"كَيْفَ" على وجه الاعتراض على قدر الله تعالى يُعَدُّ مِنَ السَّعْيِ فِي الْكَشْفِ لِقَدْرِ اللَّهِ، وَأَنْتَ أُيُّهَا الْعَبْدُ مَرْبُوبٌ مَدْبَرٌ مَسْخَرٌ، لَا تَمْلِكُ لِنَفْسِكَ وَلَا لِغَيْرِكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَعَقْلُكَ مَحْدُودٌ، وَبَصِيرَتُكَ مَحْدُودَةٌ، مَهْمَا أُوتِيتَ مِنْ ذِكَاءٍ، وَمَهْمَا أُوتِيتَ مِنْ مَعْلُومَاتٍ، وَمَهْمَا حَفَظْتَ مِنْ أَشْيَاءٍ؛ فَإِنَّهُ قَدْ غَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءٌ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ، وَلِهَذَا فِي قِصَّةِ مُوسَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَعَ الْخَضِرَ أَنَّ الْخَضِرَ قَالَ لِمُوسَى: **"يَا مُوسَى، مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ فِي عِلْمِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَّا مِثْلُ هَذَا الْمَخِيطِ إِذَا أَدْخَلَ الْبَحْرَ"**^{١٧}

؟ كم يخرج من الماء وكم يبقى؟! كم تأخذ الإبرة -المخيط؟

• لَا يَأْخُذُ شَيْئًا. فَعِلْمُ الْبَشَرِ مَحْدُودٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، فَاللَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]، فَاللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يُسْأَلُ لِمَ فَعَلْتَ يَا رَبَّنَا هَذَا؟ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ لِأَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَفْعَالُهُ كُلُّهَا حِكْمَةٌ، وَغَايَتُهَا حَمِيدَةٌ، وَأَنْتَ أُيُّهَا الْعَبْدُ لَا تَسْتَطِيعُ وَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَعْرِفَ عَشْرَ مَعْشَارِ ذَلِكَ، فَلِكَمَالِ رَبَّنَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا يَجُوزُ أَنْ يَعْتَرِضَ الْعِبَادُ عَلَيْهِ، وَلَا أَنْ يُعْقَبُوا لِحُكْمِهِ، فَاللَّهُ لَا مُعْقَبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

• أَمَّا إِذَا سَأَلَ الْعَبْدُ سُؤَالَ اسْتِشْوَادٍ كَأَن يَقُولَ مِثْلًا:

مَا الْحُكْمُ فِي شَرْعِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِلزَّكَاةِ؟ أَوْ هَلْ هُنَاكَ حِكْمَةٌ فِي مَشْرُوعِيَّةِ الزَّكَاةِ؟ هَلْ هُنَاكَ حِكْمَةٌ فِي مَشْرُوعِيَّةِ الصَّلَاةِ؟ أَوْ فِي مَشْرُوعِيَّةِ الصِّيَامِ؟ إِلَى آخِرِهِ.

هَذَا سُؤَالٌ اسْتِشْوَادٍ وَتَعَلُّمٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَعْظَمَ الْحُكْمِ فِي الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ هِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُنَاكَ أَيْضًا مَصَالِحٌ كَثِيرَةٌ رَتَّبَهَا اللَّهُ عَلَى طَاعَتِهِ مِنَ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ.

• فَاللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - سَرَّ الْقَدَرَ عَنْ خَلْقِهِ، فَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ مَاذَا سَيَقَعُ، وَمَاذَا أُعْطِيَ هَذَا وَمُنَعَ هَذَا؛ لَا أَحَدٌ يَعْلَمُ، اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ - وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

ولهذا في غزوة أحد حصل للمسلمين ما حصل من ابتلاء، واستشهد من الصحابة من استشهد، حتى النبي صلى الله عليه وسلم كُسرت ربايعيته، وشُجَّ رأسه، ودخلت حلقة المغفر في خده صلى الله عليه وسلم، حتى قال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجَّوْا نَبِيَّهِمْ»^{١٨} فأنزل الله - عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: 128]،

^{١٧} ورد في صحيح البخاري بهذا اللفظ: "وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّيْفِيَّةِ، فَتَفَرَّ فِي الْبَحْرِ نَفْرَةً، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ" (4381).

^{١٨} البخاري ومسلم عن أنس بن مالك

هذا وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا في آخر سورة آل عمران قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 179]، فالله -عز وجل- ذكر حكماً وأسراراً ومصالحاً عظيمة، وهذا غيظٌ من فيضٍ، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، ولهذا لا يجوز للعبد أن يخوض في القدر على وجه الاعتراض على الله - سبحانه وتعالى - من أنت أمُّها العبد المسكين؟! فعقلك محدود، كيف تعترض على الله سبحانه؟! ألم تُخلَق أنت من عدم؟! ألم تُخلَق ولست بشيء ولا تعلم شيئاً؟! الله - عز وجل - ألهمك، ومدة حياتك في الدنيا محدودة؛ إذن كيف تعترض على الله - سبحانه وتعالى؟! كيف تتألى على الله - سبحانه وتعالى؟!!

• هذا معنى قول علي رضي الله عنه: "الْقَدَرُ سِرُّ اللَّهِ فَلَا تَكْشِفُهُ"، وهذا معنى قول الطحاوي: (وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ؛ لَمْ يَطْلَعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ)، فهو غيب.

متى كتبت المقادير؟

قبل أن يخلق السماوات بخمسمئة ألف سنة.

هل اطلع أحد على الغيب؟

لا أحد يعلم الغيب حتى الرسل، قال الله - عز وجل - لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو أشرف الأنبياء والرسل: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: 188]، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب، وقول الله - عز وجل -: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: 65].

هذا أمر عظيم إذا استقرَّ في قلبك أيُّها المؤمن ارتاح القلب، وابتعدت عنه وساوس الحسد، وساوس النظر إلى النَّاسِ، ووساوس الجزع والسَّخَطِ وغيرها، ولهذا عنوان السَّعادة: إذا أُعطي العبد شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر. هذا عنوان السَّعادة.

• فإذا أُعطي عطاءً دينياً كالقرآن والإيمان؛ شكر، أو عطاءً دنيوياً مثل المال والزوجة والولد؛ شكر، وإذا أُعطي الشَّقِيُّ - وهو عكس السَّعيد - بَطَرًا وأَشْرَ وَفَحَرَ، ورأى أن هذا من كِدِّه ومن جهده ونسي فضل الله، أمَّا السَّعيد فعنوان السَّعادة: إذا أُعطي شكر الله ونَسَبَ النِّعَمَةَ إلى الله - سبحانه وتعالى - وإذا ابتلي المؤمن السَّعيد صبر واحتسب، وقال: هذا بقضاء الله وقدره، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11]، قال علقمة - رحمه الله: "هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَسْلَمُ لَذَلِكَ وَيَرْضَى"^{١٩}، يصبر لأمر الله ويستسلم، ما يشغل باله لماذا كذا، ولا يجزع ولا يتسخط كالشقي.

• الثالثة: إذا أذنب يستغفر الله - عز وجل - ولم يستكبر على الله - سبحانه وتعالى - أو يقول: لم أذنب، أو يقول: هذه الذُّنوب لا شيء فيها لأنها قَدَر، فما ضلَّ مَنْ ضلَّ مِنَ الملاحدة - أو دخل في هذا الباب - إلا وخسر خسراناً مبيئاً، ولهذا يجب على المسلم في باب القضاء والقدر الحذر، وأن يستسلم لأمر الله - سبحانه وتعالى - الكوني،

^{١٩} ذكره الطبري في جامع البيان في تفسير قوله: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ) (31772)، ورواه البيهقي في شعب الإيمان كحديث مقطوع (9312).

وَأَمَّا الشَّرْعُ فَيَعْمَلُ بِهِ، فَيَعْمَلُ بِالْأَوَامِرِ، وَيَنْتَهِي عَنِ النَّوَاهِي، وَإِذَا حَصَلَ مِنْهُ تَقْصِيرٌ بَادِرٌ إِلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَلَا يَصِرُّ عَلَى الذَّنْبِ، هَذَا الْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، إِذَا أُعْطِيَ شُكْرًا، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبْرًا، وَإِذَا أَذْنِبَ اسْتَغْفَرَ.

• قال: (وَالْتَعَمَّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ، وَسَلَّمُ الْجِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ).

الذي يتعمَّق -يعني يبالغ في طلب الشَّيْء- ويخوض مع الخائضين، ويخوض مع المبتدعة، أو يقرأ في كتبهم، أو ينظر في كلام الملاحدة والزنادقة الذين يعترضون على الله -سبحانه وتعالى- ويشكِّكون في قدرته؛ كل هذا (ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ، وَسَلَّمُ الْجِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ).

• لماذا؟ لَأَنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ تَطغى، وتخرج عن حِدِّهَا المحدود لها، أنت عبد مَرْبُوبٌ لربِّ العالمين الذي خلقك وأوجدك، كيف تعترض على الله الذي خلق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وخلق العالمين؟! هذا طغيان فيك، فاحذر هذا الطُّغْيَانَ، ولا تستجب لهذه الوسواس، ولا تلتفت لكلام الملاحدة، ولا تخُض معهم، ولا تُلقِ بِسَمْعِكَ إِلَى أَهْلِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ وَأَهْلِ الْإِلْحَادِ، فالملاحدة أعداءُ الله ولرسوله، أعداءُ للإسلام، لا يريدون بك خيرًا، ولم يعرفوا حقًا، ولم يهتدوا إلى حقٍّ، فكيف تستسلم لهم؟! أو كيف تنظر في كلامهم؟! حيارى، متهوكون، ضالُّون، لا يدرون، يتخبَّطون في الظُّلَامِ، هذا يذهب يمينه، وهذا يذهب يسره، فكيف تجلس مجالسهم وتأتي إليهم أو تتابعهم وتنظر في كلامهم وكتباتهم، هذا إجرام! والعلماء يُحذرون من هذا اتِّبَاعًا لِسُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَذَّرَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا.

• ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ -يعني أمور منكرة، وكلام لا يليق في الدين الإسلامي- فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وَقَدْ وَجَدْتُموهُ؟» قالوا: نعم. قال: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ».^{٢٠}

الحمد لله! مادام أَنَّ قُلُوبَكُمْ أنكرته ولم تتكلَّموا به هذا صريح الإيمان، وهذا الحديث في صحيح مسلم. فأثنى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَتَمِّهِمْ لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ، وَأَثْنَى عَلَى قَوْلِهِمْ: "يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ" يعني يستبعد أحدنا ويراه ذنبًا عظيمًا أن يتكلم به. فهذا دليل على الإيمان، عندما تبغض هذا الكلام السيء الفاسد.

• وهكذا في صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال: «تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ» يعني: بغضها وكراهة الكلام فيها هذا دليل على الإيمان، فلا تستجب للوسواس.

• وفي الحديث الآخر قال: «فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهَ»^{٢١}، وليقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

^{٢٠} مسلم عن أبي هريرة
^{٢١} صحيح البخاري (3276).

عَلِيمٌ [الحديد: 3]»^{٢٢} ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثة أنواع من أنواع العلاج يحتاج إليه كل مسلم:

❖ النوع الأول: الاستعاذة بالله.

ومعنى الاستعاذة: اللجوء والاعتصام بالله - سبحانه وتعالى - فيقول: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، ولا يسترسل.

❖ النوع الثاني: قال «وَلْيَنْتَه» أي: يوقف التفكير في هذا، لا يستمر في التفكير وتسريح الأفكار في هذا المجال.

هذا إذا كان وسواس، فما بالك بمن يذهب إلى مجالس الملاحدة والزنادقة وأعداء الله الذين ينشرون المذاهب العلمانية الكافرة، أو المذاهب الليبرالية الخبيثة، أو الاشتراكية، أو الشيوعية، أو غيرها من المذاهب الأرضية الباطلة المضادة لدين الله وللكتاب والسنة؟! فالمؤمن يتبعد عنهم، إلا من وفقه الله لجهادهم والرد على أباطيلهم، والرد على ترهاتهم وخبائثهم وخداعهم للناس، هذا مشكور إذا كان عنده قدرة واستعداد علمي، وهو مؤهل لذلك.

- يقول ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية: "هذه طريقة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، ثم خلف من بعدهم خلف سؤدوا الأوراق بتلك الوسواس التي هي شكوك وشبه، بل وسؤدوا القلوب وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق".

- يعني بعض الناس -نسأل الله السلامة- من علماء الكلام ممن وقع في الاعتزال أو غيره من البدع صاروا يكتبون هذه الشكوك والوسواس التي ترد عليهم بدلاً من أن يستجيبوا لكلام الله -عز وجل- فصاروا يكتبونها ويتناقشون فيها، ويتجادلون فيها، والجدال في هذا منهي عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِمُ»^{٢٣} ، وفي الحديث الوارد عن عبد الله بن عمرو العاص -رضي الله عنهما- قال: "خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْقَدْرِ -وفي رواية: «هذا ينزع آية، وهذا

- ينزع آية»^{٢٤} قال عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما: وَكَأَنَّمَا تَفَقَّأَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ"، النبي صلى الله عليه وسلم إذا غضب ظهر على صفحات وجهه صلى الله عليه وسلم، وحبُّ الرُّمَّانِ أحمر، أي: احمرَّ وجه النبي صلى الله عليه وسلم من شدة الغضب، فغضب عليهم لما خاضوا فيما لا يعنهم. فقال: «مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللَّهِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ؟! هَذَا هَلَكٌ مَن كَانَ قَبْلَكُمْ» ، قال: فَمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ أَشْهَدْهُ، بِمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ، أَنِّي لَمْ أَشْهَدْهُ»^{٢٥} . المقصود: هو الحذر من الخوض في القدر، المؤمن يتعلم ما علمه الله، فالله علمنا مراتب القدر، فنؤمن بالمراتب الأربعة:

(١) نؤمن بعلم الله الشامل المحيط بكل شيء.

^{٢٢} جاء عند أبي داود فقي السنن (4448) وصححه الشيخ الألباني من حديث سماك بن الوليد: قال: قال لي ابن عباس: إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا، فَقُلْ: هُوَ الْأَوَّلُ، وَالْآخِرُ، وَالظَّاهِرُ، وَالْبَاطِنُ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

^{٢٣} صحيح البخاري (2457).

^{٢٤} مسند أحمد (6806).

^{٢٥} مسند الإمام أحمد (6491).

(٢) ونؤمن بأن الله كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ.

(٣) ونؤمن بأن مشيئة الله نافذة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

(٤) ونؤمن بأن الله خالق كل شيء، فما من شيء في السماء ولا في الأرض إلا الله خالقه، لا خالق غيره، ولا رب سواه.

• وأما ما عدا ذلك من التعمق وأن نخوض في الأسئلة والتشكيك والوساوس؛ فهذا كله من أسباب الخذلان، وهذا من طغيان النفس عندما ينشغل الإنسان بما لا يعنيه ويترك ما يعنيه ، «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^{٢٦} ، فمِمَّا يعينك أنك تُسلم وتؤمن، وتعمل بالإسلام، وتعمل بشرائعه، وتعمل بالواجبات، فهذا الذي يعينك.

ومِمَّا لا يعينك: لماذا هذا قدر الله عليه أنه كفر؟! ولماذا هذا قدر الله عليه أنه أسلم؟! ولماذا لم يهتد فلان؟! ولماذا كذا...؟! لا تخض في هذا.

• يقول: (فَالْحَذَرُ كُلُّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنْامِهِ، وَتَهَاوَمَ عَنْ مَرَامِهِ) يعني عن طلبه، فالله نهاك عن طلب ما لا علم لك به. قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36].

• وكذلك هذا من التكلف، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86]، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»^{٢٧} فلا تنطع، ولا تنشغل بما لا يعينك، وانشغل بما يعينك، فالذي لا يعينك اتركه، والذي يعينك اعمل به واحرص عليه.

• قال: (كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23])، فلا يقال: لم يا ربنا فعلت كذا؟ على وجه الاعتراض والاستنكار، لا؛ لأن أفعال الله كلها حكمة؛ ولأن العبد أحقر وأذل وأنقص من أن يعترض على الله -سبحانه وتعالى- أما المخلوق -مثلي ومثلك- يمكن أن تقول له: لماذا أنت صنعت كذا؟ ما فيه إشكال، فتتعبه وتصوبه إذا أخطأ، أما الله -عز وجل- ما أحد يتعبه، وليس في أفعاله خطأ -سبحانه وتعالى- فلا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا رادَّ لفضله.

• قال: (فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ)، ما هو حكم الكتاب؟ يعني حكم القرآن.

؟ بماذا حكم القرآن؟

• ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23]، لا أحد يتعقب الله عز وجل ويقول: لماذا يا رب صنعت كذا؟ لماذا أسعدت هذا وأشقيت هذا؟

لا، هذا ليس شأنك، هذا أمر الله -سبحانه وتعالى- (فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ) ، الله قال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، ما أحد يتجرأ عليه، الله حكيم عليم، والله -عز وجل- لا يظلم أحداً، ما ضلَّ ضالٌّ إلا

^{٢٦} سنن الترمذي (2317)، وصححه الألباني

^{٢٧} صحيح مسلم (4829).

وقد أعذره الله، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس 7-10].

• قال: (وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ).

؟ بالنسبة للسؤال على وجه الاعتراض باللسان، لو أن أحداً أنكر نعمة أنعمها الله على إنسان، أو حدوث شيء له: فهذا اعتراضٌ نفسيٍّ ولم يتكلم باللسان. هل يدخل في هذا الباب؟

• إذا وقعت في قلبه هذه الأسئلة، فهذا من وساوس الشيطان -كما تقدم- فمثلاً يأتيك الشيطان ويهجم عليك ويقول:

✓ لماذا أنت فقير وفلان غني؟!

✓ لماذا عند فلان أولاد وليس عندك أولاد؟!

✓ ولماذا هذا عنده بيت وليس عندي بيت؟!

✓ لماذا هذا عنده سيارة وأنت ليس عندك سيارة؟!

؟ هذا من الشيطان. فماذا يفعل المؤمن إذا جاء في قلبه هذه الوسوس؟

يقول:

❖ أولاً: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

❖ ثانياً: ينتهي. فلا يسترسل، ولا يسمح لنفسه بالتفكير في هذا، ويتوقف عن هذا.

❖ ثالثاً: يقول: رضيت بالله رباً، وهذه كلمة عظيمة جداً. مَنْ الذي يُدبر؟ مَنْ الذي يرزق؟ مَنْ الذي قسم الأرزاق؟ مَنْ الذي خلق الخلق؟ مَنْ الذي أحيا وأمات؟

الله -سبحانه وتعالى- رضيت بقاضئه وقدره.

ولهذا في حديث عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ»^{٢٨}.

؟ لو قال شخص: لو فعلت معصية. أرضى بها؟

نقول: "إذا أذنب استغفر"، تطلع عنها وتستغفر، ما ترضى بالذنوب، لأنَّ الذنوب رتب الله عليه عقوبة،

ويؤاخذك الله عليه، أمّا المصيبة التي وقعت لك بغير اختيارٍ منك -كحادث، مرض فقر، دين، فقد قريب-

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة 156 - 157]، اللهم اجعلنا منهم، ونسأل الله أن يرزقنا وإياكم وجميع المسلمين العفو والعافية.

{فَهَذَا جُمْلَةٌ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ مُتَوَرِّقٌ لِقَبْلِهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِي الْخَلْقِ مَوْجُودٌ وَعِلْمٌ فِي الْخَلْقِ مَفْقُودٌ؛ فَإِنْ كَارَ الْعِلْمَ الْمَوْجُودَ كُفِّرَ، وَإِدْعَاءُ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ كُفْرٌ؛ وَلَا يَثْبُتُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِقَبُولِ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ، وَتَرْكِ طَلَبِ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ}.

^{٢٨} صححه الألباني في تخريج كتاب السنة من حديث فضالة بن عبيد (427).

• يقول: (فَهَذَا جُمْلَةٌ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ مُنَوَّرٌ قَلْبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى)، كل مؤمن فيه من ولاية الله بقدر إيمانه ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62-63]، فمن كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً.

فكل مؤمن على وجه الأرض يحتاج إلى هذا، أن يؤمن بقضاء الله وقدره، ويُسلم، ويرضى بما قسمه الله له، ولا يسأل على وجه الاعتراض، ولا يعترض على الله في قضائه وقدره؛ بل يرضى ويسلم.

• وأما في الشريعة والأعمال الواجبة والأمور المحرمة فيقوم بالواجبات، ويترك المحرمات، وإذا وقع منه تقصير فيسارع إلى التوبة والندم، والرجوع، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]، هذا توفيق من الله للعبد.

ولهذا من استقام على هذا كان من الراسخين في العلم، فعرف الحق ولزمه، أما الموسوسون والذين دخلوا في التشكيكات وفي الاعتراض على الله - سبحانه وتعالى - فقد خرجوا عن العلم وخرجوا عن الرُسوخ، وخرجوا حتى عن الدين إذا بلغوا مبلغ الكفر وردوا حكم الكتاب.

• ثم قال: (لَأَنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِي الْخَلْقِ مَوْجُودٌ) ، يقصد به الشريعة التي بعث الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم. موجود أم مفقود؟

موجود، وقد حفظه الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم موجودة ومحفوظة في صحيح البخاري، ومسلم، والسُّنن الأربعة، والمسانيد، وكتب الحديث، فهي محفوظة والحمد لله، وكلام الصحابة والسلف الصالح والتابعين وأئمة الإسلام موجود.

؟ ماذا اشتمل القرآن والسنة؟

اشتمل على أركان الإسلام، وأركان الإيمان، والإحسان، وشرائع الدين كلها من الصلاة والزكاة، والصوم، والحج، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر أمور الدين. هذا العلم موجود أم مفقود؟ موجود، فاحرص عليه واعمل به.

• قال: (وَعِلْمٌ فِي الْخَلْقِ مَفْقُودٌ)، يعني مغيب عنك وعن الخلق كلهم. ما هو؟ القدر، هذا لم يطلع عليه لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب.

• قال: (فَانْكَارُ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ كُفْرٌ). إنكار الشريعة، والإعراض عن الإسلام ما حكمه؟ كفر.

• قال: (وَإِدْعَاءُ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ كُفْرٌ)، من ادّعى علم الغيب فهو كافر.

• قال: (وَلَا يَتَّبِعُ الْإِيمَانُ إِلَّا بَقْبُولِ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ، وَتَرْكِ طَلَبِ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ) ، يعني إيمانك وإسلامك ما يثبت لك إلا إذا تعلمت الإسلام، تعلمت الشريعة الإسلامية، وعملت بها، وقبلتها، وتمسكت بها، وتركت ما لا يعينك، وتركت طلب العلم المفقود.

- وأيضًا ممَّا يدخل في هذا الموضوع: قول النبي صلى الله عليه وسلم: « **الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرَصٌ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ** »^{٢٩}.
- فقوله صلى الله عليه وسلم: « **الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ** » هذا المؤمن القوي في إيمانه، والقوي في عمله، « **خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ** » إذن على المؤمن الضعيف أن يقوي إيمانه حتى يكون أحبَّ إلى الله-عزَّ وجلَّ-وعلى المؤمن الضَّعِيف أن يجتهد حتى يرتفع، لكن مع هذا حتى المؤمن الضَّعِيف فيه خير، ما دام أنَّه ثابت على الإسلام فهذا خير ولو كان ناقص الدِّين وناقص الإيمان، وناقص القوة.
- ثم قال صلى الله عليه وسلم: « **احْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ** » ، هذا أصل عظيم، ليس موضوع القدر موضع تواكل وإعراض، الإيمان بالقدر يدعو للحرص على ما ينفعك.
- قوله صلى الله عليه وسلم: « **احْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ** » يشمل أمرين عظيمين:
 - (١) ما ينفعك في دينك.
 - (٢) ما ينفعك في دنياك.
- وهذا يدعو للآخذ بأسباب القوة في حفظ القرآن، في تعلُّم العلم النَّافع، في المحافظة على الصَّلوات، في برِّك بوالديك، في صلَّتكَ لرحمك، في دراستك، في عملك، في الخير وأوجهه. هذا في أمور الدين.
- وكذلك في أمور الدنيا احرص على ما ينفعك، ابحث عن العمل المناسب لك، اجتهد في تحقيق الشهادات المناسبة حتى توفر لك العمل الطيب، اجتهد في زرعك، في حركك، في نجارتك -إن كنت نجارًا- أو حدَّادًا، أو خياطًا، أو أي عمل كنت عليه، احرص على ما ينفعك.
- نفهم من هذا بمفهوم المخالفة أن تحذر ممَّا يضرُّك، لأنه قال: « **احْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ** » إذن الذي يضرُّك ابتعد عنه، سواء من عمل سيء، أو أمور فيها مخاطر على جسمك، أو مخاطر على تجارتك، أو مخاطر على دينك، احذر من أصدقاء السوء، احذر من المثبطين، فهذه كلمة عظيمة « **احْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ** ».
- ثم قال: « **وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ** » فإنه كما قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، وفي القرآن: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة: 5].
- قال: « **وَلَا تَعْجَزْ** »، اترك التَّكاسل والتَّماوت، والتَّراخي، وعدم أخذ الأمور بجديٍّ، فالعجز لا خير فيه، والنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم كان يستعين من العجز^{٣٠}؛ لأن العجز يضر، فلا تعجزن ما دام أن الله أعطاك قوَّة فلتكن همتك عالية.
- ثم قال صلى الله عليه وسلم: « **وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ** » فقد يُقدر الله عليك شيء.
- « **فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا** »، احذر من هذه الكلمة؛ لأنها من كلمات الشيطان.

^{٢٩} صحيح مسلم (4822).

^{٣٠} صحيح البخاري (2823) الحديث: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجَبَنِ وَالْهَرَمِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ».

لا تقل: لو أتي ذلك اليوم جئت للسُّوق مبكرًا لحصلت على الصَّفقة الفلانية... لا، ما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

• هنا «لو» في هذا المقام تفتح عمل الشَّيطان والوساوس، بل عليك أن تقول: الحمد لله، هذا شيء مكتوب، هذا رزقي، وأنا في بطن أمي مكتوب لي هذا، لا يزيد ولا ينقص.

• «لَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ» يعني: هذا قدر الله. «قدر الله» خبر، والمبتدأ "هذا" حذف للعلم به.

• «قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»، الحمد لله، ما ربنا اليوم، خسرنا اليوم، هذا قدر الله، حصل كذا أو كذا؛ فهذا قدر الله.

هذا حديث عظيم في باب القضاء والقدر، فالحرص على ما ينفع، والأخذ بالأسباب أمرت به الشريعة، والشريعة لم تأمرك أن تقول: أنا متوكل على الله وراضٍ بالقدر ولكن أجلس في بيتي، لا أعمل، لا أدرس، لا أنظر، لا أبحث عن أسباب رزقي! لا.

• ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»^{٣١}، ما جلست في أعشاشها، ذهبت، تغدوا في أول الصباح وهي جائعة.

خماصًا: أي بطونها ضامرة من الجوع، وفي نهاية النهار تروح -أي ترجع- وقد امتلأت بطونها برزق الله -عز وجل- فلا بد أن نؤمن بالقدر مع الأخذ بأسباب الخير والفلاح والسعادة والسلامة، وإذا قوي إيمان العبد علم أن الله -عز وجل- هو الذي تفضل، ويُنعم على من يشاء، فلا يحسد أحدًا على شيء أعطاه الله -عز وجل- هذا من

قوة الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 32]، يكفيك أن تسأل الله من فضله، لا

تقل: لماذا أعطاه الله كذا؟ لا تتمنى، حتى التمني منهي عنه ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ﴾، فلا تنظر لأحد، إنما انظر إلى ما عند الله عز وجل، ولذلك قال في آخر الآية: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾، فإذا مثلاً أعجبك علم عالم، أو أعجبك حسن خلق أحد، أو أعجبك حرص أحد على الخير وقيام الليل والصيام، فلا تقل في قلبك: هذا كذا وأنا كذا! لكن قل: اللهم إني أسلك من فضلك، اللهم كما تفضلت على إخواننا فتفضل علي يا رب، اللهم اهدنا فيمن هديت.

• فلا نحسد أحدًا لأن هذا من أخلاق اليهود -قبحهم الله- قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 54]، فالمسلم يزي نفسه عن هذا الخلق الذميم، ولهذا فإن الإيمان بالقدر إذا قوي وصلح في قلبك ذهب عنك الحسد، وإذا ضعف جاءه الحسد.

• ومن علاج الحسد أن تتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^{٣٢}، فهذا علاج الحسد، افرح أن هذا رزق أولادًا حتى وإن لم تُرزق أنت أولاد، تقول: الحمد لله، الله يزيده من الخير، الله يبارك له، واسأل الله من فضله، ولا تحسد أحدًا على نعمة أعطاه الله إياه.

^{٣١} مسند أحمد (207)، وصححه أحمد شاكر.

- قول ابن تيمية: "مَا خَلَا جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ لَكِنَّ اللَّئِيمَ يُبْدِيهِ وَالْكَرِيمَ يُخْفِيهِ"^{٣٣}. وهذا من علامات الإيمان أن يدافع المؤمن هذا الحسد، لأن الإنسان في أصله ظلوم جهول ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]، وإذا قوي إيمانه ذهب عنه الظلم وذهب عنه الجهل، ولهذا المؤمن الكريم النَّفْس، ومن كرم النَّفْس وخيرها أن يفرح لإخوانه المسلمين، وألا يقع في قلبه شيء إذا رآهم على نعمة ورأهم على خير، فيفرح لهم ويُسرُّ بهذا، بخلاف اللئيم فإنه يبديه، ويقول: لماذا هذا كذا؟ نسأل الله العافية والسلامة.

{قال المصنف -رحمه الله تعالى: (وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رُفِعَ؛ فَلَوْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّهُ كَانُوا لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِنٍ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ لِيَجْعَلُوهُ كَائِنًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ؛ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ. وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَقَدَّرَ ذَلِكَ تَقْدِيرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا؛ لَيْسَ فِيهِ نَاقِضٌ، وَلَا مُعَقِّبٌ، وَلَا مُزِيلٌ، وَلَا مُغَيِّرٌ، وَلَا مُحَوِّلٌ، وَلَا نَاقِصٌ، وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ؛ وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ، وَأُصُولِ الْمَعْرِفَةِ، وَالاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]. فَوَيْلٌ لِمَنْ صَارَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الْقَدَرِ خَصِيمًا، وَأَحْضَرَ لِلنَّظَرِ فِيهِ قَلْبًا سَقِيمًا، لَقَدْ التَّمَسَّ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الْغَيْبِ سِرًّا كَتِيمًا، وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ أَقَاكَ أَثِيمًا).

- هذه المسألة من الإيمان بالقدر (وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رُفِعَ). اللوح المحفوظ: الذي كتب الله -عزَّ وجلَّ- فيه مقادير الخلائق، والذي كُتِبَ فيه كُتِبَ بالقلم، هذا القلم الذي جرى بما هو كائن أخبر عن ذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَكَتَبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^{٣٤}. وفي رواية: «اَكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^{٣٥}. وهذا حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
- «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ الْقَلَمَ» أو «الْقَلَمُ» على قولين لأهل العلم في رواية الحديث، والأمر سهل.
- «قَالَ لَهُ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَكَتَبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ، يعني أن هذا القلم الذي خلقه الله -عزَّ وجلَّ- كتب الله به مقادير الخلائق، فما من شيء إلا وقد كُتِبَ وعُلم، وهذه المرتبة الأولى والثانية.

❖ **المرتبة الأولى:** علم الله الشَّامل المحيط بكل شيء.

^{٣٢} صحيح البخاري (12).

^{٣٣} أمراض القلب وشفاؤها، لابن تيمية (21).

^{٣٤} كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (774)، صححه الألباني في التعليق على الطحاوية (33)، وصححه ابن عثيمين في تفسير القرآن الكريم.

^{٣٥} سنن أبي داود (4080).

❖ **المرتبة الثانية:** كتابة الله مقادير الخلائق، قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. [الحديد: 22-23]. وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: 70]، فهذا القلم أول الأقلام وأشرفها وأفضلها، وهو القلم الذي كتبت به مقادير الخلائق كلها.

❖ **المرتبة الثالثة:** الكتابة التي تكون كل سنة في ليلة القدر، فليلة القدر قال الله عز وجل عنها: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: 4]، وهذه الكتابة سنوية، يُكتب فيها مقادير السنة.

❖ **المرتبة الرابعة:** كتابة عمرية: يُكتب بها ما يقع لكل إنسان وهو في بطن أمه، كما في حديث عبد الله بن مسعود، قال: « ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ »^{٣٦}، فهذه كتابة للعمر كله.

❖ **المرتبة الخامسة:** لكتابة يومية: وهي التي بأيدي الملائكة، وقيل هي المراد في قول الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39].

فهذه من أنواع الكتابة التي تقدر بها المقادير: كتابة عامة وهي التي في اللوح المحفوظ، وكتابة سنوية، وكتابة عمرية، وكتابة يومية، وكل هذا يفيد المؤمن في الإيمان بالقدر، والإيمان بأن الله قدّر المقادير ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11]، قال علقمة رحمه الله: "هو الرجل تصيبه مصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم".

وهذه الكتابة -كتابة اللوح المحفوظ، والكتابة السنوية والكتابة العمرية- تدلُّ على أمر عظيم، وهو الإيمان بالركن السادس وهو: الإيمان بالقضاء والقدر.

● وفي حديث عبد الله بن عباس: « يَا غُلَامُ إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ »^{٣٧}.

● الأقلام التي يُكتب بها المقادير جفَّت وانتهت، وطُويت الصِّحَاف التي كُتبت فيها مقاديرك، فالحمد لله هذا يجعل المؤمن يرضى ويسلم، وكما قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 23]، وهذا معنى قوله: (فَلَوْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّهُ كَائِنٌ لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِنٍ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَكْتُبَهُ اللَّهُ تَعَالَى

^{٣٦} صحيح البخاري (2987).
^{٣٧} مسند أحمد (2569). وصححه أحمد شاكر.

فِيهِ لِيَجْعَلُوهُ كَائِنًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ: جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ).

فالشئ الذي لم يدركه العبد وأخطأه مثل: أن تأتي سفينة وفيها بضائع وأراد رجل أن يشتري، فجاءهم في يوم محدد، فقالوا: البضائع وصلت أمس واشتراها الناس، ولم يبقَ شيء. أخطأ العبد أم لم يخطئه؟ العبد هنا أخطأ الشيء، فلم يكن ليصيبه.

وما أصابه لم يكن ليخطئه: لو قَدِّرَ أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ مَرَضٌ أَوْ غَيْرُهُ، لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ. فالله -سبحانه وتعالى- هو الذي يعلم كلَّ شيء، أمَّا أنت لا تعلم، فعليك أن ترضى وتُسَلِّمَ لما قضى الله -عزَّ وجلَّ- وقَدَّرَ، والله -عزَّ وجلَّ- يعلم ما كان وما سيكون، وما كان لو كان كيف كان يكون، وعلم الله شامل محيط بكل شيء.

هاتان مرتبتا العلم والكتابة، وبقي معنا مرتبتان: الخلق والمشيئة، فالله خالق كل شيء، ومشئته الله نافذة، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. هذا معنى هذه الجملة.

• قال: (وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَقَدَّرَ ذَلِكَ تَقْدِيرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا؛ لَيْسَ فِيهِ نَاقِضٌ، وَلَا مُعَقِّبٌ، وَلَا مُزِيلٌ، وَلَا مُغَيِّرٌ، وَلَا مُحَوِّلٌ، وَلَا نَاقِصٌ، وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ؛ وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ، وَأُصُولِ الْمَعْرِفَةِ) يعني المعرفة الشرعية الدينية الإسلامية.

• قال: (والاعتراف)، يعني هذا من الاعتراف بتوحيد الله تعالى ربوبيته، لأنَّ القدر من توحيد الله كما جاء عن ابن عباس، فالقدر نظام التوحيد، فتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ فالذي لم يؤمن بالقدر لم يؤمن بالله -عزَّ وجلَّ- ولم يُوحِّدِ الله، لأنَّ الإيمان بالقدر من تمام الإيمان بتوحيد الربوبية، فالذي قدَّرَ المقادير وخلق ورزق وقسَّم الأرزاق؛ هذه أفعال الربِّ -سبحانه وتعالى- فإذا أنكر ذلك العبد لم يؤمن بالربوبية، وإذا علم أنَّ الله هو الذي قدَّرَ وقسم ورزق ورضي بذلك؛ فهذا من توحيد الربوبية. كذلك إذا أنكر القدر فهذا إخلالٌ بتوحيد الأسماء والصفات، فإذا قال: إن الله لم يعلم الأشياء قبل حدوثها؛ فهذا أنكر صفة العلم، ومن أنكر صفة العلم فهو كافر.

وإذا قال: إن الله -عزَّ وجلَّ- لم يشأ لهذا أن يهتدي أولئك أن يضل؛ فهذا أنكر عموم مشيئة الله، وهذا كفر. كذلك فإنَّ الذي ينكر أنَّ الله بيده المقادير إذا دعا الله -عزَّ وجلَّ- فدعاؤه ضعيف، ولهذا ممَّا يُنْكَرُ عَلَى الْمُعْتَزِّلَةِ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ أَنَّ الْأُمُورَ بِيَدِ اللَّهِ -عزَّ وجلَّ- نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، حَتَّى فِي الدُّعَاءِ يَضْعَفُ حَالُهُمْ جَدًّا.

• قال: (فَوَيْلٌ لِمَنْ صَارَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الْقَدَرِ خَصِيمًا، وَأَحْضَرَ لِلنَّظَرِ فِيهِ قَلْبًا سَقِيمًا، لَقَدْ التَّمَسَّ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الْغَيْبِ سِرًّا كَتِيمًا، وَعَادَ بِمَا قَالَتْ فِيهِ أَفَّاكَ أَثِيمًا) ، لا شكَّ أَنَّ مَنْ وَقَعَ فِي هَذَا -كَمَا تَقَدَّمَ مَعْنَى فِي النُّصُوصِ- وَقَعَ فِي ظُلَامٍ عَظِيمٍ، وَشَابَهُ الْمَجُوسُ الَّذِينَ هُمْ الْقَدَرِيَّةُ، فَهُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ -نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

- فالمقصود أئمة الإخوة الكرام: أنَّ الإيمان بالقدرِ نعمة، ولا يتمُّ إيمانُ العبدِ ولا إسلامُهُ إلا به، فعلى المسلم أن يرضى ويسلِّمَ لقضاءِ الله وقدره، وفي مقام الشرع يمثل للأوامر وينتهي عن النَّواهي، ويستغفر الله عما حصل من التَّقصير.
- وليحذر المسلم من مجالسة أهل البدع وأهل الإلحاد، وأهل الخوض في القدر، أو النَّظر في كلامهم أو كتبهم؛ فإن هذا من أسباب الانحراف.

وصلّى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.



الدرس الثالث



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{قال أبو جعفر الطحاوي -رحمه الله تعالى: (وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ حَقٌّ، وَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ، مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ، وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقُهُ).}

• قول الطحاوي -رحمه الله: (وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ حَقٌّ).

العرش ذكره الله -عز وجل- في مواضع كثيرة من كتابه -سبحانه وتعالى- وجاء في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ووصفه الله -عز وجل- بأوصافٍ عظيمة:

□ وَصَفَ اللَّهُ الْعَرْشَ بِأَنَّهُ الْعَرْشُ الْمَجِيدُ ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: 15].

□ وَوَصَفَهُ اللَّهُ -عز وجل- بِأَنَّهُ الْعَظِيمُ.

□ وَقَالَ اللَّهُ -عز وجل- فِي وَصْفِ نَفْسِهِ -سبحانه وتعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ

مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: 15].

□ وَذَكَرَ أَنَّ هَذَا الْعَرْشَ الْعَظِيمَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، أَرْبَعَةً فِي الدُّنْيَا -كما ثبت في السنة^{٣٨} - ويومُ

القيامة ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 17].

^{٣٨} جاء في لفظ الحديث: فينزل تبارك وتعالى يحمل عرشه يومئذ ثمانية، وهم اليوم أربعة، أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الأهوال)) (155)، ومحمد بن نصر المروزي في ((تعظيم قدر الصلاة)) (273)، والطبري في ((تفسيره)) (4939) واللفظ له، وضعفه ابن حجر والزيلعي. وعند أحمد في مسنده وصححه أحمد شاكر (88/4): "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَّقَ أُمِّيَّةً فِي شَيْءٍ مِنْ شَيْعَرِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ وَثُورٌ تَحْتَ رِجْلٍ يَمِينِهِ ** وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصَدٌ .

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "صَدَّقَ"، وَقَالَ:

□ ووصف بأنه العرش الكريم في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 116].

- وهكذا جاء في سُنَّة النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- من وصفه بأنه الكريم، وأنه العرش العظيم.
- وبَيَّنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنه استوى على العرش بعدما خلق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، في سبع مواضع من كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ۗ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: 54].
- وهذه آيات تدلُّ على إثبات صفة العلوِّ لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فالعرش هو سقفُ المخلوقات، وأعلى المخلوقات، كما قال النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَسَفْهُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ»^{٣٩}، فالعرش فوق المخلوقات.
- والله فوق العرش، وهو مُسْتَعْنٍ عَنِ الْعَرْشِ وما دونه، الله -عَزَّ وَجَلَّ- لما استوى العرش ليس لحاجته -سبحانه- فإنَّ الله غنيٌّ عن العرش، وغنيٌّ عن خلقه كلِّهم؛ بل العرش ومن دون العرش محتاجون إلى الله، مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: 41].
- وفي لغة العرب: العرش هو سرير الملك، وعرش الله لا يُوصَفُ، ولا يبلغ العباد حقيقته وكُنْهَهُ؛ لأنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- لم يذكر لنا صفة العرش وهيئته، وإنما وُصِفَ بِالصِّفَاتِ التي سَبَقَ ذِكْرُهَا، أنه عرشٌ عظيمٌ، وأنه كريمٌ، وأنه مجيدٌ، ونحو ذلك؛ لكن كيفية هذا العرش لا نعلمها، لكنَّه أعظم من المخلوقات كلِّها.
- وكان النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- يقول في دعاء الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^{٤٠}.
- فالعرش أعظم المخلوقات، وهو أعظم من الكرسيِّ، فالكرسيُّ أيضًا أعظم من السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وجاء في الأثر عن السَّلَف أنَّ الكرسي هو: "موضع القدمين"^{٤١}، والعرش لا يقدر قدره إلا الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.
- أمَّا تفسيرُ الكرسيِّ بالعلم؛ فهذا فيه نظرٌ، فإنَّ الكرسيَّ غير العلم، فالعلم صفة ربِّنا -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فالله بكلِّ شيءٍ عليمٌ، والكرسيُّ جاء في سُنَّة النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- أنه «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا

والشمس تطلع كلَّ آخر ليلةٍ ** حمراء يُصبح لوئها يَنَوَّرُ
تَأْبَى فَمَا تَطْلُعُ لَنَا فِي رَسْلِهَا ** إِلَّا مَعْدَبَةٌ وَلَا تُجَلُّدُ .

فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "صَدَقَ". [أخرجه أحمد في مسنده (256/1)، والدارمي في سننه كتاب الإِسْتِزْنَان (296/2)، والبيهقي في الأسماء والصفات (207-206/2)، رقم (771)، وأورده ابن كثير في النهاية (12/1)، وقال: [حديث صحيح الإسناد، ورجاله ثقات] وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة].

وهذا القول رجحه ابن كثير [تفسير ابن كثير (71/4)]، وابن الجوزي [زاد المسير (208/7)]، وقال هو قول الجمهور [زاد المسير (350/8)] ويستدل لهذا القول بعدة أدلة منها ما رواه الطبري بسنده عن ابن إسحاق قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «هم اليوم أربعة» يعني حملة العرش «وإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية» [انظر تفسير الطبري (59/29)].

^{٣٩} صححه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (ج 3 / ص 49).

^{٤٠} صحيح البخاري (5897).

^{٤١} رواه الطبراني في المعجم الكبير، قال: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ سورة البقرة آية 255، قَالَ: "مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ. قَالَ: وَلَا يُقَدَّرُ قَدْرُ عَرْشِهِ". قال ابن عثيمين: "صح ذلك عن ابن عباس موقوفاً ومثل هذا له حكم الرفع" (تفسير سورة الفاتحة والبقرة 254/3).

كَحَلَقَةٍ مُلَقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ»^{٤٢}، أَيَشِي تَمَثِّلُ الحَلَقَةُ المُلَقَاةُ فِي صَحْرَاءٍ عَظِيمَةٍ؟ لَا تَمَثِّلُ شَيْئًا، فَالْكُرْسِيُّ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَالْفَارِقِ بَيْنَ الصَّحْرَاءِ الْعَظِيمَةِ إِذَا أُلْقِيَ فِيهَا حَلَقَةٌ؛ شَيْءٌ يَسِيرُ جَدًّا لَا يَكَادُ يُذَكَّرُ، هَكَذَا السَّمَاوَاتُ مُقَارَنَةً بِالْكُرْسِيِّ، وَالْعَرْشُ أَعْظَمُ مِنَ الْكُرْسِيِّ، وَلَا يَقْدِرُ قَدْرُهُ إِلَّا اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-

● وَاللَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ، وَخَلَقَ الْأَرْضَيْنِ، وَخَلَقَ الْعَرْشَ، وَخَلَقَ الْكُرْسِيَّ، وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ؛ وَكُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَعَظِيمِ خَلْقِهِ، وَبَدِيعِ صَنْعِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَهَذِهِ الْأُمُورُ تَوْجِبُ لِلْمُؤْمِنِ تَعْظِيمَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فَالْمُؤْمِنُ يُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ فِي النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ، وَيُؤْمِنُ بِعَظَمَةِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي عَظَمَتِهَا تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا -جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-

؟ كَيْفَ هَيْئَةُ الْعَرْشِ وَكَيْفَ هَيْئَةُ الْكُرْسِيِّ؟

● نَقُولُ: لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَقَدْ أَخْفَى اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- هَذَا الْخَلْقَ، فَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَخُوضَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلَا أَنْ يَتَكَلَّمَ فِيهَا لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمًا ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]، فَمَنْ آمَنَ بِذَلِكَ وَأَقَرَّ بِذَلِكَ عِلْمَ غُلَطِ الْغَالِطِينَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْعَرْشَ كُنَايَةٌ عَنِ الْمَلِكِ؛ فَهَذَا غُلَطٌ وَتَحْرِيفٌ لِلنُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ مَسَالِكِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبَدْعِ، وَلَا يَجُوزُ لَطَالِبِ الْعِلْمِ وَلَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُتَابَعَ أَهْلَ الْبَدْعِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يُتَابَعَ الصَّحَابَةُ وَالسَّلَفُ الصَّالِحُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَحِمَهُمْ-

● كَذَلِكَ بَعْضُ النَّاسِ يُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْتَوِ عَلَى الْعَرْشِ، فَيَنْفِي مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ، أَوْ يَقُولُ: إِنَّ الْإِسْتَوَاءَ هُوَ الْإِسْتِيلَاءُ. وَهَذَا مِنْ تَحْرِيفَاتِ أَهْلِ الْبَدْعِ أَيْضًا، فَالْإِسْتَوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ عِنْدَ عُلَمَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ هُوَ: الْعُلُو، اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، أَي: عَلَا.

● وَجَاءَتْ تَفْسِيرُ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لِكَلِمَةِ ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ بِأَرْبَعَةِ مَعَانٍ:

❖ **الْمَعْنَى الْأَوَّلُ:** عَلَا عَلَى الْعَرْشِ.

❖ **الْمَعْنَى الثَّانِي:** ارْتَفَعَ عَلَى الْعَرْشِ.

❖ **الْمَعْنَى الثَّالِث:** صَعَدَ عَلَى الْعَرْشِ.

❖ **الْمَعْنَى الرَّابِع:** اسْتَقَرَّ عَلَى الْعَرْشِ.

هَذَا مَنْقُولٌ عَنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ- فَلَا نَتَعَدَّى طَرِيقَتَهُمْ، وَلَا نَبْتَدِعُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَلَا نَأْخُذُ بِطَرَائِقِ أَهْلِ الْبَدْعِ وَنَتْرِكُ أَئِمَّةَ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فليَكُنْ طَالِبُ الْعِلْمِ عَلَى حَذَرٍ مِنْ أَنْ تُزْلِقَ قَدَمُهُ مَعَ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبَدْعِ.

^{٤٢} أخرجه الطبري في ((تاريخه)) (120/9)، وابن حبان (361) مطولاً، والبيهقي في ((الأسماء والصفات)) (861)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (109).

• العرشُ جاءت فيه أخبارٌ عن النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- ومنها: قوله -صلى الله عليه وسلم-: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»^{٤٣}، وهذا في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

• وجاء في السُّنَّة أَنَّ العرشَ له قوائم، ففي الصحيح قال النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى أَخِذَ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَذْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ»^{٤٤}، وهذا الحديث في صحيح البخاري ومسلم.

الشَّاهد منه، قوله: «أَخِذَ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ»، وهذا يدلُّ على أَنَّ العرشَ له قوائم. هذا مِنَ النُّصوص الواردة.

أيضًا جاء في أوصافِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ مَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِمْ -وهم الملائكة.

• فالمقصود: أَنَّ هذا العرشَ عرشٌ عظيمٌ، استوى الله علي -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بعد أن خلق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ استوى على العرشِ، وهذا استواءٌ يليقُ بجلالِهِ، ليسَ كاستواءِ المخلوقِ، فَمَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ نَفَى مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ، فَقَدْ كَذَّبَ خَبَرَ اللَّهَ، وَمَنْ كَذَّبَ خَبَرَ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ، فالمؤمن يقول: سمعنا وأمنا وأطعنا؛ فيؤمن بما أخبر الله -عزَّ وجلَّ- ولا يتعدَّى القرآنَ والحديثَ وطريقةَ أصحابِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-.

❓ كيف هو؟

• الله أعلم، الكيفيَّةُ لا ندري ما هي، لم نطَّلِعْ على ذلك، ولم يُطْلِعْنَا الله على ذلك، ولم يخبرنا الله -عزَّ وجلَّ- بكيفيَّةِ هذا المخلوق العظيم.

• والكرسيُّ معناه: موضع القدمين، كما نُقِلَ عن السَّلف. وأمَّا مَنْ فسَّره بالعلم، فعلم الله حقُّ، لكن تفسير الكرسى بالعلم فيه نظرٌ؛ لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: 255]، فتفسيره بالعلم هنا فيه نظرٌ؛ لأنَّ الكرسيَّ مِنْ مخلوقاتِ الله العظيمة وهو دون العرشِ كما جاء في الأحاديثِ عن النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-.

{وَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ، مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ، وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقُهُ}.

• {وَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ}.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 97]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 6]، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج: 64]، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، فَمِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الحسنى: الغني.

وَمَنْ الَّذِي يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَأَنْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ؟ الله -عزَّ وجلَّ- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: 41]، "إِنْ" هنا

^{٤٣} صحيح البخاري (2790).

^{٤٤} أخرجه البخاري (6917) واللفظ له، ومسلم (2374).

للنفي، معناه: أَنْ -عزَّ وجلَّ- هو الذي خلقَ هذه المخلوقات، وهو الذي أقامها، وهو الذي بقدرته وقوَّته وبديع صنعته أمسَّكها أن تسقط، وكذلك العرش، وكذلك الكرسي، وكذلك سائر المخلوقات، فالله هو الحي القيوم، ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: 33].

أَمَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ احتاج إلى العرش؛ فهذا قول كُفر-نسأل الله العافية والسلامة.

● فالله -جلَّ وعلا- فوق العرش، وهو غنيٌّ عن العرش وما دونه، قال: (وَهُوَ مُسْتَغْنِي عَنِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ)، هذا ليُبطل الظَّنَّ الفاسدَ، ولهذا قال شيخُ الإسلام ابن تيمية في الواسطية: "فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ السَّمَاءَ تُقْلَهُ -أي تحمل الله- أَوْ تُظَلُّهُ، فهذا ضالٌّ" لم يقل بهذا مسلم، ولا يقول بهذا مسلم، ولم يدل القرآن والسنة على هذا، فالله غنيٌّ عن العرش، وغنيٌّ عن السماء، وغنيٌّ عن الخلق أجمعين.

فانتبهوا من هذه المقالات الفاسدة، وليعلم المؤمن أَنَّ الله -عزَّ وجلَّ- أكبر، وهذا معنى قولك "الله أكبر"، والله هو العظيم، والله هو الغني، والله له الأسماء الحسنى والصِّفات العُلا، فلا يُقاس على خلقه، ولا تُضرب له الأمثال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

● السَّمَاوَاتُ كُلُّهَا وَالْأَرْضُ كُلُّهَا فِي جَانِبِ الْكَرْسِيِّ شَيْءٌ يَسِيرٌ، والكرسيُّ في جانبِ العرشِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، كُلُّ هَذِهِ المخلوقات بما فيها -حتى العرش- هي شَيْءٌ يَسِيرٌ فِي عِظَمَةِ الرَّبِّ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فهذا يجعلُكَ تعظِّمُ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَتَقْدُرُهُ، ولا تكن من الكفَّار الذين قال الله عنهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبِضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67].

هذا -أيها الإخوة- معنى قوله -رحمه الله: (وَهُوَ مُسْتَغْنِي عَنِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ)، والله هو الغني الحميد.

؟ فإذا كان الأمر بهذه المثابة: فهل يليق بمؤمنٍ أن يعصي الله -عزَّ وجلَّ- وأن يجاهر بالمعاصي؟ وأن يستكبر عن أوامر الله؟

● الجواب: لا، المؤمنُ يعرفُ ضعفه، ويعرفُ فقره، ويعرفُ حاجته إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَأَنَّ اللَّهَ فوقه يراه، ولا تخفى عليه خافية، فيخافُ مِنَ اللَّهِ وَيُعْظِمُهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

● والملائكةُ يُعْظِمُونَ اللَّهَ -عزَّ وجلَّ- قال الله عنهم: ﴿إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [سبأ: 23]، فالملائكةُ تَفْزَعُ تعظيمًا لله، وخوفًا لله، فأنت أولى بهذا أيُّها المؤمن، أن تخافَ مِنَ اللَّهِ -عزَّ وجلَّ- وَأَنْ تَقْدِرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ، ولا تكن مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: 67].

● قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ -كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 104]، هذه السَّمَاوَاتُ على اتِّسَاعِهَا ليست بشيءٍ أمامَ عِظَمَةِ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَالْأَرْضُ أصغرُ بالنِّسبةِ لِلسَّمَاءِ، وَأَنْتَ كَمْ تُمَثِّلُ بالنِّسبةِ لِلْأَرْضِ؟ لا شيء! فكيف تستكبرُ على الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وتعصيه؟!

● فهذه الأمور توجب تعظيمَ الله والخوفَ منه، والثِّقَّةَ به، ورجاءَ فضله، والتَّوَكُّلَ عليه، وحسنَ الظَّنِّ به، فالأمرُ بيده، مَنْ الذي بيده مقاليد السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ مَنْ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ؟ مَنْ الذي يُدَبِّرُ أَمْرَ الْكَوْنِ؟

إِنَّهُ اللَّهُ جَل جلاله وتقدّست أسماؤه.

- **أَمَّا المخلوقون فلا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً فضلاً عن غيرهم، وهذا يدعو المؤمن إلى توحيد الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وإخلاص العبادَةِ له، وألا يتعلّق بالأُمُوتِ،** فَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ، وَمِنْ أَضَلِّ الضَّلَالِ أَنَّ رجلاً عاقلاً يأتي إلى الأُمُوتِ ويستغيث بهم، ويطلب منهم الممدد، وهم أُمُوت! وينسى خالق الأرض والسَّمَاوَات! كل هذا يدلُّ على عَظِيمِ الإِعْرَاضِ عن الله -عَزَّوَجَلَّ- عِنْدَ الْمُشْرِكِ، ولهذا أَضَلُّ النَّاسِ هُوَ الْمُشْرِكُ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف 5، 6].

{مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ، وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقُهُ}.

- الجملة الأولى: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ)، الدَّلِيلُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: 126]، فالله -عَزَّوَجَلَّ- محيطٌ بخلقه إحاطة علمٍ، يعلم كلَّ شيءٍ سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران 5، 6]، إحاطة العلم.
- وإحاطة السَّمْعِ فالله ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1]، وإحاطة البصرِ، فالله لا تخفى عليه خافية ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تقول عائشة -رضي الله عنها: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ حَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيْهَا كَلَامُهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾"°، هذا يدلُّ على إحاطة الله بخلقه.
- الإنسان حتى ولو كان في مكانٍ بعيد وفي مكانٍ غريبٍ ولا أحد حوله؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُهُ ويراه ويستجيب دعاءه، وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ لِيُونُسَ بْنِ مَتَّى -ذِي النُّونِ- ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء 87، 88]؛ لَأَنَّ بَعْضَ دَعَاةِ الشِّرْكِ وَغَلَاةِ الصُّوفِيَّةِ يَقُولُونَ: هذا للأنبياء فقط، إِذَا دَعَا اللَّهَ اسْتَجَابَ لَهُمْ، أَمَّا الْمَذْنِبُونَ فَلَا يَدُّ لَهُمْ مِنْ وَاسِطَةٍ، فيذهبون إلى أصحاب القبور، والأولياء، والأوتاد، والأقطاب، حتى يكونون واسطة بينهم وبين الله في الدُّعَاءِ!
- فالرَّدُّ عليهم من القرآن هنا: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 88].
- فالله بكلِّ شيءٍ محيط، وهذا يجعل العبد يتوكل على الله، ويثق في الله، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: 143]، الإيمان ولو قلَّ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ، ولا تخفى عليه خافية -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وهذا يُقَوِّي علاقتك مع الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هل الله -عَزَّوَجَلَّ- حالٌ في خلقه؟

° أخرجه ابن ماجه (188)، والنسائي (3460)، وأحمد (24195)، وأخرجه البخاري معلقا قبل (7386)

• لا، الله فوق عرشه، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]، لكن هو محيطٌ بخلقه، يحيطُ بهم فيعلم أحوالهم، ويسمعُ كلامهم، ويرى مكانهم، ويعلم ما تخفيه صدورهم ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7] -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

• ويُنقل أثر عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنه- حبر القرآن أنه قال: "مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِمَا فِي يَدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ"^{٤٦}. الخردلة: هذا الشيء الذي يطير في الهواء لخفته ورقته وصغره ودقته، وهو شيء يسير تراه في شعاع الشمس، فالخردلة هذه إذا وضعتها في يدك لا تكاد تراها من صغرها.

• فيقول: "مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِمَا فِي يَدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ"، وهذا ليس تمثيلاً، فإن الله ليس كمثله شيء، وإنما أراد ابن عباس أن يبين عظمة الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فإذا آمنت أن الله بكل شيء محيط؛ أورتك هذا تعظيم الله، والخوف منه، ورجاءه، وحسن الظن به، وعرفت ضعفك، وعرفت حاجتك إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فلا تستكبر على الله، ولا تعص الله، وإذا وقعت في معصية فبادر إلى التوبة، فهذا معنى قوله: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ).

هل معنى الإحاطة أن الله حال في المخلوقات؟

• الجواب: لا، الله -عزَّوَجَلَّ- ليس حال في المخلوقات، بل بائن منها؛ لأنه فوقها، وفوق العرش.

من الذين يقولون: إن الله حال في المخلوقات؟

• هؤلاء الحلولية، وهم كفار عند علماء السلف، قالوا: من قال إن الله حال في خلقه ومختلط بخلقه فهو كافر، لأن هذا أعظم التنقص لله -عزَّوَجَلَّ- وتكذيب للنصوص الشرعية، وتكذيب لما أخبر الله به وأخبر به رسوله -صلى الله عليه وسلم. هذه مسألة الإحاطة، فالله محيط بكل شيء.

• ننتقل إلى الجملة التي بعدها، وهي: (وَفَوْقَهُ)، يعني: فوق كل شيء، فهذا معنى الجملة، وهذه مسألة العلو، وسبق أن أشرنا إلى مسألة الاستواء، فالاستواء على العرش ورد في سبع مواضع في القرآن: في سورة الأعراف، وفي سورة يونس، وفي سورة طه، وفي سورة الحديد، وفي سورة الفرقان، وفي سورة السجدة؛ كل هذه السور ورد فيها إثبات استواء الله على عرشه، وتقدم شرح معنى الاستواء.

• أما هنا الفوقية وهي العلو، وهذه المسألة دلت عليها نصوص القرآن الصريحة، وأحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- الصحيحة المتواترة، وأجمع عليها علماء السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وخالف في هذه المسألة أعداء الله -الجهمية والمعتلة- ومن اتبعهم في إنكار فوقية الله -عزَّوَجَلَّ- فوق خلقه، وخالفوا الأحاديث الصريحة الصحيحة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وخالفوا الإجماعات المتواترة عن أهل العلم، وإذا أردت الوقوف على هذه الإجماعات فارجع إلى كتاب "اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعتلة والجهمية" لابن القيم الجوزية، فقد حكى إجماعات أهل العلم، وتواتر أقوالهم على إثبات علو الله على عرشه وعلى خلقه، وأنه مستو على عرشه.

^{٤٦} موقوف على ابن عباس، رواه عبد الله بن أحمد في السنة (985)، ابن تيمية في المجموع (ص42).

- فمسألة العلوّ مسألة ظاهرة جدًا في الكتاب والسنة، ودلائل القرآن والسنة عليها كثيرة، كذلك دلّ عليها العقل، والفطرة السليمة تدلّ على علو الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- على خلقه، حتى أنّ بعض العلماء قال: "إنّ أدلّة العلو أكثر من ألف دليل في القرآن"، واجتهد بعض أهل العلم في تقسيم أنواع الأدلّة، فكلّ نوع يندرج تحته أنواع وأفراد من الدلائل، وذكرها ابن أبي العز-رحمه الله- في شرح الطحاوية أكثر من عشرين نوعًا، وقد أخذها من كلام ابن القيم -رحمه الله- في "إعلام الموقعين"، ومن "الصّواعق المرسلة"، و"القصيدة النونية"؛ فقد أورد هذه الأدلّة، ويمكن أن ترجع إليها على وجه التّفصيل في شرح النونية للرّاس، أو شرح النونية لابن عيسى، وهي مفيدة جدًا.

• من أمثلة الأدلّة:

✓ **التّصريح باسمه "العليّ"**، فمن أسماء الله -عزّ وجلّ- "العليّ"، ومن أسمائه "الأعلى" ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1]، و"المتعال" -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

✓ كذلك من أنواع الأدلّة: **صفة العلو**، وهذا واردٌ في أحاديث النّبي -صلى الله عليه وسلم- بكثرة.

✓ كذلك التّصريح بصعود الأشياء إلى الله -عزّ وجلّ-: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، والصُّعود يكون من أسفل إلى أعلى.

✓ وكذلك العروج: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4]، فهو فوق الخلق -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

✓ كذلك نزول الأشياء من عنده، فذكر الله -عزّ وجلّ- نزول القرآن من عنده في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: 2].

• وهذا يفيد مسألتين:

❖ **الأولى:** إثبات صفة الكلام، وأنّ الله هو الذي تكلم به وابتدأه.

❖ **الثانية:** تفيد أنّ التّزول يدلّ على أنّ الله في العلوّ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كذلك نصوص الاستواء على العرش التي سبق ذكرها في الأعراف وفي يونس، وفي الرعد، وفي الفرقان، وفي طه، وفي الحديد، وفي السّجدة؛ سبع مواضع ذكر فيها استواء الله على عرشه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

• والذين نفوا العلو وأنكروه نوعان:

□ **النوع الأول:** زعموا أنّ الله في كلّ مكانٍ، وهؤلاء يُقال لهم الحلوليّة، وبعضهم أشدّ ويسمّون

الاتّحاديّة، وبعضهم أشدّ وهم أهل وحدة الوجود، ولكن قد يتجاوز فيُطلق هؤلاء على هؤلاء،

فالحلوليّة والاتّحاديّة وأهل وحدة الوجود يقولون: إنّ الخالق والمخلوق شيء واحد، أو إنّ الخالق حلّ

في المخلوقات. وهؤلاء كفّار -كما سبق- لأنّهم وصفوا الله -عزّ وجلّ- بالنّقص، وكذبوا النّصوص

الشّرعيّة الدّالة على مُباينة الله لخلقه، وخالفوا طريقة النّبي -صلى الله عليه وسلم- والصّحابة

والتّابعين لهم بإحسان.

□ **النوع الثاني:** يقولون: إنَّ الله ليسَ في مكانٍ، لا فوقَ العالم، ولا تحتَه، ولا يمينَه، ولا شماله، ولا

أمامَه، ولا خلفَه، ولا مَبايِن، ولا مُحايِث، ولا خارجَ، ولا داخلَ؛ وهؤلاء يُقال لهم: "المعطلة النَّفَاة".

فأهلُ التَّعْطِيلِ عندهم طريقة النَّفي، والحلوليَّة عندهم الغلو في القول بأنَّ الله في كلِّ مكانٍ؛ وكلاهما عطلَّ الله -عزَّ وجلَّ- عن كَمَالِه الذي وَصَف به نفسه -نسألُ الله العافية والسَّلامة.

- فالله -عزَّ وجلَّ- لا يجوز أن نقول في حقِّه إنَّه حالٌّ في الأمكنة؛ بل نقول: هو العليُّ العظيم ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1]، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 18]، وقال عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50]، والتَّصْوص في هذا كثيرة جدًّا -كما تقدَّم.

- أمَّا التَّصْوص الواردة في إثبات معيَّة الله لعباده، فهي على نوعين:

(١) معيَّة عامَّة.

(٢) معيَّة خاصَّة.

❖ **المعيَّة العامَّة:** كقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4]، فمعيَّة الله لعباده ولخلقِه بعلمه

وسمعه وبصره وإحاطته وقدرته، وتديبره، فالله محيطٌ بهم، وليس معنى معيَّة الله لعباده أنَّه حالٌّ فيهم، فالعربُ لا تقول هذا، ومَن ادَّعى هذا على لسان العرب فقد غلطَ، وخالفَ طريقة الرَّسول -صلى الله عليه وسلم- والصَّحابة، فإنَّ قول: ﴿مَعَكُمْ﴾ لا يلزم منه الاختلاط والحلول، ومنه قول العرب: لا زلنا نسير والقمر معنا.

❓ **هل معنى أنَّ القمر معنا أنَّه بين الأمتعة وبين الأغراض وبين الأجساد؟!**

ما أحد يقول هذا، مع أنَّ القمر بينك وبينه مسافة عظيمة جدًّا.

- أيضًا قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿مَعَكُمْ﴾، معناه عند العلماء: معكم بعلمه، فالله محيطٌ بكلِّ شيءٍ، ويعلمُ كلَّ شيءٍ، ولا تخفى عليه خافية، ومَن كان هذا شأنه فهو مع عباده -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❖ **المعيَّة الخاصَّة:** وتكون لعباده المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:

128]، فمعيَّة الله الخاصة هنا معناها: النَّصرة ولا تَأْييد، والحفظ، والرَّعاية، والحماية، وغير ذلك،

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40].

- قال: (وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقُهُ).

أي أنَّ الرَّبَّ أَعْجَزَ الخلقَ عن الإحاطة به، فالخلقُ لا يحيطون بالله -عزَّ وجلَّ.

الخلق أذلُّ وأحقَر من أنَّهم يُحيطون بالله -عزَّ وجلَّ- وأقلُّ من ذلك الرُّوح التي بين جنبك الآن، أنت لا تدرك حقيقتها، ولا تعرف هيئتها، فكيف يتطلَّب عقلك أن يحيط بالله؟! هذا محال.

- قال الله تعالى في سورة طه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [البقرة: 255]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255]، وقال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103].

فالخلقُ مهما أوتوا من العلم فلا يعلمون إلا الأمور اليسيرة جدًا، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7].

- (وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقَهُ)، يعني لا يحيطون بالله، ولكن هذا ليس بإحاطة، وإنما هذا علم، فيُعلمهم الله ما أخبرهم الله من صفاته وأسمائه، لكن هذا ليس بإحاطة، وإنما هذا علم، فيُعلمهم الله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، قال علماء السلف في تفسير ﴿بِمَا شَاءَ﴾ أي: بما يَبْنَى لعباده.
 - وبالتالي نعرف أنه لا يجوز أن يظنَّ ظانُّ أنه يحيطُ بالله، ويعلم ما لم يعلمه الله؛ كلُّ هذا من الشيء الذي يعجز عنه العباد، حتى الرُّسل -عليهم الصَّلَاة والسَّلَام- قال النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^{٤٧}، هذا وهو أعلم الخلق بالله، حتى أنه يوم القيامة يقول: «ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْ قَبْلِي»^{٤٨}، يعني يُعلمه الله -عزَّ وجلَّ- أشياء يحمد به، ويكونُ هذا التَّعليمُ يومَ القيامة.
- وفي حديث ابن مسعود: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أُنْزِلَتْهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتُ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»^{٤٩}، فهناك أمور استأثر الله بها.

□ هذا الدرس اشتمل على:

- (١) بيان وجوب الإيمان بالعرش، وما وصفه الله به في القرآن وفي السُّنة بما وصفه النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-.
- (٢) الإيمان بالكرسي، وأنَّ هذا حقٌّ، لا نُحَرِّف، ولا نُؤَوِّل كطريقة المبتدعة.
- (٣) بيان جملة (وَهُوَ مُسْتَعْنِي عَنِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ)، أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- لما استوى على العرش لا يعني هذا أنه محتاجٌ إلى العرش، فالله غني عن العرش؛ بل العرش هو المحتاجُ إلى الله، وجميعُ الخلق محتاجون إلى الله.
- (٤) بيان أنَّ الله محيط بكلِّ شيء.
- (٥) بيان أنَّ الله فوق كلِّ شيء، وإثبات صفة العلوِّ لله -الفوقيَّة- وعلوه تعالى على عرشه، ويمكنُ أن يرجع طالب العلم للكتب التي توسَّعت مثل شرح الطَّحاوية لابن أبي العز، وكذلك إثبات صفة العلوِّ لابن قدامة -رحمه الله- وكتاب "العلو للعلي الغفار" للذهبي، وشرح حديث التُّزول لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهناك رسائل أخرى لأئمة السُّنة يرجع إليها طالب العلم حتى يستفيد ويعرف الحقَّ، ويتبعد عن مسالك أهل البدع والباطل.
- (٦) بيان جملة (وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقَهُ)، والمقصود أنَّ الله محيطٌ بكلِّ شيء ولا أحد يحيط بالله.

وصلى الله على نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

^{٤٧} صحيح مسلم (486).

^{٤٨} صححه الألباني في شرح العقيدة الطحاوية (229)، ولفظ البخاري "فأحمدُ ربي بمحامد علميها، ثم أشفعُ".

^{٤٩} مسند أحمد (3583)، صححه أحمد شاكر.

الدرس الرابع



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{قال أبو جعفر الوراق الطحاوي -رحمه الله تعالى: (وَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا، إِيْمَانًا، وَتَصَدِيقًا، وَتَسْلِيمًا).}

• يقول -رحمه الله تعالى: (وَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا، إِيْمَانًا، وَتَصَدِيقًا، وَتَسْلِيمًا).

قوله: (وَنَقُولُ)، أي: أهلُ السُّنَّةِ والجماعة السَّائرون على منهجِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- والسَّائرون على منهجِ الصَّحَابَةِ -رضي الله عنهم- نقول: بآلسنتنا مُعتقدين ذلك بقلوبنا.

؟ ماذا نقول وماذا نعتقد؟

• نعتقد ما أخبر الله -عزَّ وجلَّ- به عن نفسه في كتابه، وما أخبر عنه رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

؟ ما الذي جاء في القرآن وما الذي جاء في السُّنَّة؟

• جاء في القرآن أوصافٌ كثيرةٌ لربِّنا -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وهكذا في السُّنَّة، فَمِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الثَّابِتَةِ: أَنَّ اللَّهَ -عزَّ وجلَّ- اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125]. وكذلك في سُنَّةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةَ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتَهُ»^{٥٠}، «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا

^{٥٠} صحيح البخاري (449).

اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا^{٥١}، فجاء في القرآن وصفُ الله -عزَّ وجلَّ- بأنَّه اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وجاء في السُّنَّة ذلك، وأيضًا أنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم- شارك إِبْرَاهِيمَ في هذه الصِّفَةِ العَظِيمَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ مُحَمَّدًا خَلِيلًا، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

● ومعنى هذا: إثبات صِفَةِ الْمَحَبَّةِ؛ بل والخَلَّةِ، وهي أعلى درجاتِ المحبة، ولأنَّ المحبة درجات، وذكر العلماء أنَّها عشر درجاتٍ، والمحبة أصلُها في القلب وأثَارُها على الجوارح، وتختلف وتتفاوت، فأعلاها الخَلَّةُ، وفوق الخَلَّةِ التَّعَبُّدُ، فالخَلَّةُ هي أعلى درجاتِ المحبة، ولا نحتاج إلى أن نذكر الدَّرَجَاتِ كُلَّهَا، وليس هذا من الضَّرُوري، ولكن نُعَيِّرُ بالتَّعْبِيرَاتِ الشَّرْعِيَّةِ فيما يضاف إلى الله -عزَّ وجلَّ- لأنَّ من الدَّرَجَاتِ العشق والصَّباية، وهذا لا يُوصَفُ الله به، ومثل الغرام، وهذا أيضًا لا يجوز أن يوصَفَ الله به.

● فأعلى درجاتِ المحبة التَّيِّمُ وهو التَّعَبُّدُ، والذي وردَ في السُّنَّةِ وفي الكتابِ فيما وصفَ الله به نفسه أنَّه يُحِبُّ بعضَ عبادِهِ، فالله يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ، ويحِبُّ الصَّالِحِينَ، ويحِبُّ الْمُتَّقِينَ، ويحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، ويحِبُّ التَّوَابِينَ، ويحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، ونحو ذلك من النُّصوصِ نوَّمن بها، ومن ذلك أنَّه يُحِبُّ أَنْبِيَاءَهُ وَرَسُولَهُ وَهُمْ أَعْلَى الْبَشَرِ، وقد اصطفاهم الله -عزَّ وجلَّ- فهم خلاصة البشر وأفضل البشر، وهؤلاء الرُّسُل -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أعلاهم وأكملهم وأولو العزم.

● وأولو العزم من الرُّسُل خمسة: محمد -صلى الله عليه وسلم- وإِبْرَاهِيمَ -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَنُوحَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وأعلاهم منزلة فيما يظهر من النُّصوص الشَّرْعِيَّةِ هو: محمد -صلى الله عليه وسلم- ثم إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ.

وهذه المسألة أنكرتها الجهميَّة، والجهميَّة من الفِرَقِ الضَّالَّةِ الْمُتَنَحِرَةِ انحرافًا شديدًا عن الإسلام، حتى حَكَمَ جَمْعٌ من كِبَارِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ بأنَّ الجهميَّةَ ليسوا مِن أُمَّةِ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- وأصلهم يُنسَبُ إلى الجهم بن صفوان الذي نَشَرَ الْمَذْهَبَ، وإلا فالأساس هو شيخه الجعد بن درهم، والجعد بن درهم اشتهرت عنه مقالةٌ خبيثة وهي نفي جميع الصِّفَاتِ وَالْأَسْمَاءِ، حتى قال: "إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا".

● ولهذا قال الطَّحاوي هنا: (وَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) ردًّا على هذه الطَّائِفَةِ الْخَبِيثَةِ، فَإِنَّهُمْ أَنْكَرُوا أَنَّ اللَّهَ -عزَّ وجلَّ- يوصَفُ بِالْمَحَبَّةِ، فَأَنْكَرُوا أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ بعضَ عبادِهِ، وَأَنْكَرُوا أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ -يعني أنَّ المؤمن يُحِبُّ اللَّهَ- فَأَنْكَرُوا الْمَحَبَّةَ مِنَ الطَّرَفَيْنِ، وَهَذَا مِنَ الضَّلَالِ الْعَظِيمِ وَالْكَفْرِ الْمُبِينِ، وَالتَّكْذِيبِ لِكَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ -صلى الله عليه وسلم-.

وكانَ هذا الكلام أَوَّلُ بدعةٍ ظهرت من بدعِ الجهميَّةِ وانتشرت، ولهذا أجمع العلماء واتَّفَقُوا على أَنَّ قائلها كافرٌ، ومستوجبٌ للقتلِ.

● فعلماء المسلمين وأمرأؤهم مُتَّفِقُونَ على محاربةِ هذا المذهب الخبيث؛ وهو إنكار صفاتِ الله والتَّكْذِيبِ بآياتِ الله، والتَّكْذِيبِ بما أخبر الله به عن نفسه.

^{٥١} صحيح مسلم (832).

- قوله: **(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)** هنا أثبتَ صفةَ الكلامِ لله - عزَّ وجلَّ - وهذا ثابتٌ في آياتٍ كثيرةٍ، قال الله تعالى: **(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)** [النساء: 164]، **(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ لَنْ تَرَانِي)** [الأعراف: 143]، فإثباتُ صفةِ التَّكْلِيمِ، وأنَّ الله يُكَلِّمُ بعضَ عبادهِ حقٌّ، حتى نبينا - صلى الله عليه وسلم - شارك موسى - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - في هذا، ولهذا لما عَرَّجَ بنبيُّنا محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى ما فوق السَّمَاءِ السَّابِعَةِ في ليلةِ الإسراءِ والمعراجِ؛ كَلَّمَهُ اللهُ - عزَّ وجلَّ -، وفرضَ عليه الصَّلواتِ الخمسَ مِن غيرِ واسطةٍ، خلافاً لبقيةِ الفرائضِ فإنها نزلت عن طريقِ جبريلَ - عليه الصَّلَاة والسَّلَام.
 - فهذا أيضاً أنكره الجهميَّة، وقالوا: إنَّ الله لا يتكلَّم، ولا يُكلِّمُ بعضَ عبادهِ، وأنكروا أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وقالوا: هذا ليسَ كلامُ الله - نسألُ الله العافية والسَّلَامَة.
 - وينبغي التَّنَبُّهُ إلى أنَّ المتأخرين ممَّن وقعَ في مذهبِ الأشاعرةِ والماتريديةِ وغيرهم: كثيرٌ منهم كان غَلَطُهُ في هذه المسائلِ بسببِ التَّأويلِ الفاسدِ، بخلافِ المتقدِّمين فكان عندهم جُرأةٌ على مصادمةِ النَّصِّ - نسألُ الله العافية والسَّلَامَة - وعلى ردِّ التُّصوص، ولذلك تُنقَلُ أقوالُ بشعةٍ عن طغاتهم وزنادقتهم وأئمتِّهم - أئمةِ الجهميَّة.
 - أمَّا هؤلاء الأشاعرةِ والماتريديةِ فلا شكَّ أنَّهم مُبتدعةٌ ومخالفون لِسُنَّةِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - ولطريقةِ الصَّحَابَةِ وَأئِمَّةِ السُّنَّةِ، ولكن ليسوا مثل أولئك في حكمِ التَّكْفِيرِ وحكمِ الزندقةِ؛ لأنَّ كثيراً منهم غلِطَ غلِطاً بيِّناً ووقعَ في التَّأويلِ الفاسدِ، هذا هو الفرقُ بينَ الفريقين.
 - فالمنكرُ الجاحدُ غيرُ المخطئِ، غيرُ المفرِطِ، المفرِطُ والمقصِّرُ أثمان، ولكن لا يبلغ مرتبةَ الكفرِ إلا إذا كان متعمِّداً لمعاندةِ الله، وتكذيبِ خبرِ الله، وخبرِ رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولهذا لم يُطلَقِ القولُ بتكفيرهم عند جماهيرِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة.
 - وبإثباتِ صفةِ المحبَّةِ وصفةِ الكلامِ والتَّكْلِيمِ لله - عزَّ وجلَّ - يقومُ في القلبِ الإيمانُ بجميعِ الصِّفَاتِ، أمَّا إذا أنكرَ المحبَّةَ أو بعضَ تفاصيلها، أو أنكرَ التَّكْلِيمَ أو بعضَ تفاصيله؛ وقعَ في التَّحْرِيفِ سواءً لكلِ الصِّفَاتِ أو بعضها، ولهذا من آمنَ بهذا على وجهِ الكلامِ تصديقاً وإيماناً وتسليماً صارَ من أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ وآمنَ ببقيةِ الأسماءِ والصِّفَاتِ، ومن خالفَ في هذا أو في جزءٍ من أجزائه وقعَ في التَّأويلِ أو في التَّحْرِيفِ ولو في بعضِ المواضع.
- {(وَنُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّبِيِّينَ، وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)}**
- قال - رحمه الله: **(وَنُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّبِيِّينَ، وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)**.
- هذا الكلامُ العظيمُ يُبَيِّنُ فيه الطَّحَاوي - رحمه الله - ثلاثةً من أركانِ الإيمانِ، وهو قد ذكرَ بقيةَ أركانِ الإيمانِ في مواضعٍ أخرى، فأركانُ الإيمانِ ستَّةٌ، قال النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - لما سأله جبريلُ عن الإيمانِ قال: «أنَّ تَوْمَنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَوْمَنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^{٥٢}.

^{٥٢} صحيح مسلم (8).

هنا ذكر الإيمان بالملائكة - وهو الركن الثاني - والإيمان بالرُّسل - وهو الركن الثالث - والإيمان بالكتب - وهو الركن الرابع - فهذه ثلاثة أركان.

• **دَلَّ عَلَى الْأَرْكَانِ السِّتَةِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ**، قال الله - عزَّ وجلَّ: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

وانظر إلى قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾، أي: لا نُؤْمِنُ ببعضهم ونكفر ببعض. وكذلك قوله - عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 177].

والقدر، قال الله - عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2].

ورَتَّبَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - على إنكار هذه الأركان الكفر، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136].

• فإذا كفر بالله، أو بملائكته، أو كفر بالكتب، أو كفر بالرُّسل، أو كفر باليوم الآخر؛ فقد ضلَّ ضلالًا بعيدًا، ولهذا لا يصحُّ الإسلام ولا يثبتُ الإيمان إلا بالإيمان بهذه الأركان الستة؛ فلا بدَّ على كلِّ مؤمنٍ ومُؤمنةٍ أن يؤمنَ بهذه الأركان الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، وهذا ما اتَّفَقَ عليه جميعُ الأنبياء والرُّسل، واتفقت عليه جميعُ الرِّسالات السماوية من لدن آدم - عليه الصَّلاة والسلام - إلى محمدٍ - صلى الله عليه وسلم - خاتم الأنبياء والرسل؛ فكلهم اتَّفَقُوا على هذه الأصول الستة، وآمنوا بها، ودَعُوا إلى الإيمان بها، ولم يُكذِّبْ بهذه الأمور إلا أعداء الله، وأعداء رُسُلِهِ من الكفار بجميع أنواعهم، المشركون، والملاحدة، والفلاسفة المكذِّبون للرُّسل، وأهل البدع كذَّبوا ببعض أجزاء هذه الأركان الستة، وعلى اختلافهم فمستقلٌّ ومستكثرٌ.

• **فالمقصود: أن أركان الإيمان هذه يجبُ الإيمان بها**، والإيمان هو التَّصديق والتَّسليم والإقرار والالتزام ما تضمنت عليه.

✓ **الإيمان بالله** يتضمَّن الإيمان بتوحيد ألوهيَّته، فنعبده وحده لا شريك له، والإيمان بربوبيَّته، وبأسمائه وصفاته.

✓ **الإيمان بالملائكة** يتضمَّن الإيمان بأسمائهم وصفاتهم، وأعمالهم، ومَن سَعَى اللهُ - عزَّ وجلَّ - ومَن لم يُسَمِّ، وكل ما أخبر الله - عزَّ وجلَّ - عن الملائكة، أو أخبر رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

✓ **الإيمان بالرُّسل** أن نُؤْمِنَ بجميع الأنبياء والمرسلين، وأنَّهم على الحقِّ المبين، وأنَّهم أفضل خلق الله، وأنَّهم جاؤوا بالهُدَى والنُّور، وأنَّهم يدعون أقوامهم إلى الفلاح والسَّعادة في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ مَن آمنَ بهم واتَّبَعَهُمْ في زَمَنِهِمْ فهو المؤمن، ومَن كفرَ بهم في زَمَنِهِمْ فهو الكافر، حتى خُتِمُوا بمحمدٍ - صلى الله عليه وسلم -.

✓ **والإيمان بالكتب** يتضمّن الإيمان بجميع ما أنزل الله -عزّ وجلّ- من الوحي على ألسنة رسله -عليهم الصّلاة والسّلام- فهناك كتب سمّاها الله -عزّ وجلّ- مثل: التّوّارة، والإنجيل، والزّبور.

- فالتّوّارة أنزلت على موسى -عليه السّلام- والإنجيل أنزل على عيسى -عليه السّلام- والزّبور أنزل على داود، وهناك صُحف إبراهيم، وأعظم الكتب المنزلة القرآن العظيم، وبه خُتمت الكتب، وهو المهيم، فلا يجوز النّظر في الكتب السّابقة، ولا الاطلاع عليها والقراءة فيها، وطلب الهدى منها؛ فهذا لا يجوز؛ لأنّ النّبي -صلى الله عليه وسلم- رأى في يد عمر صحيفة من التّوراة فقال: «أُمَّهُوَ كَوْنٌ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟!» أي: مُتَحَيِّرُونَ! مُتَشَكِّكُونَ؟! «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^{٥٣}، وفي رواية: «لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى، ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ»^{٥٤}.

- ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم في آخر الزّمان -كما صحّت بذلك الأحاديث- فإنّه يحكم بشريعة النّبي محمد -صلى الله عليه وسلم- ولا يحكم بالإنجيل الذي أنزل عليه؛ بل ويصلي خلف إمام المسلمين تكملة لهذه الأُمَّة ولنبيها -صلى الله عليه وسلم- فيكون مؤمناً بالنّبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنّ الله قد أخذ الميثاق على جميع الأنبياء والرّسل لئن بُعث محمدٌ وهم أحياء ليؤمننّ به وليتبعنّه ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

- فهذا معناه: أنّ كلّ نبيٍّ أخذ عليه الميثاق أن يتبع محمداً -صلى الله عليه وسلم- لو قدّر أن يُبعث وهو حي. وقد قال الله في أكثر من موضع عن الإيمان بالرسول: ﴿لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [آل عمران: 179]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: 150، 151]، وقال الله -عزّ وجلّ- في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 105]، مع أنّهم ما كذبوا إلا نوحاً -عليه الصّلاة والسّلام- ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 123]، وهكذا بقيّة الأمم، فمن كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرّسل، ولهذا اليهود كفار لأنّهم كذبوا بعيسى، وكذبوا بمحمدٍ -عليهم الصّلاة والسّلام- والنّصارى كفار لأنّهم كذبوا بمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- حتى لو آمنوا بموسى وعيسى، فتكذيبهم بمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- كفر، وهو تفریق بين الله ورسوله، وهذا يبيّن لنا أنّ كلّ من وجد بعد مبعث النّبي -صلى الله عليه وسلم- فإنّه لا يجوز له أن يدين بغير دين النّبي -صلى الله عليه وسلم- ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 85]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وقال: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19]، فكل من بلغته دعوة النّبي -صلى الله عليه وسلم- فيجب عليه الدّخول

^{٥٣} مسند أحمد (14895).

^{٥٤} مسند أحمد (15550).

في دين الإسلام، ولا يصحُّ منه ولا يقبلُ منه عند الله أن يبقى على دينه السابق، لأنَّ الأديان السابقة حُرِّفَتْ وَبُدِّلَتْ وَنُسِخَتْ بمبعث النَّبِيِّ مُحَمَّد -صلى الله عليه وسلم.

• هذه الأركان السِّتَّة يجبُ الإيمانُ بها عن يقينٍ وتصديقٍ، الإيمانُ بها إجمالاً، وتفصيلاً لمن علَّمه الله وفقَّههُ في الدِّين.

❖ **الإجمال:** يكفي عمومُ أهلِ الإيمان -عوامهم- ومن كان منه مشغول؛ فيؤمنون بها إجمالاً.

❖ **تفصيلاً:** من علَّمه الله -عزَّ وجلَّ- وتعلَّم وتفقَّه.

وكَلِّمًا كان العامِّي من أهل الإسلام ومن عموم المؤمنين يتعلَّم ويتفقَّه؛ كَلِّمًا زادَ إيمانه وزادَ يقينه، فالتَّظَرُّفُ في كلامِ الله وكلامِ رسوله يزيدُ الإيمانَ ويزيدُ اليقينَ.

• ومن هنا نعرفُ الفرقَ بين طريقة أهل الإيمان والإسلام، وبين طريقة الكفَّار، فالكفَّار يُكذِّبون بالله، ويكفرون

بالله، ويكفرون بالملائكة، ويكفرون بالرُّسل، ويكفرون بالكتبِ المنزلَّة، ويكفرون باليومِ الآخر، ويكفرون بالقدر. ولهذا كانت طريقة أهل الإيمان تختلف عن طريقة أهل الكفر والجحود.

ومن هنا نعرفُ أنَّ العالمَ اليومَ يعجُّ بالملل والتَّحَلُّ والأديانِ الفاسدة، والعقائدِ الباطلة، فالله -عزَّ وجلَّ- اختصَّ المسلم، ومنَّ عليه بهذا؛ وهو الإيمان.

• ولهذا فإنَّ موضوعَ الإيمان هو مِنَّةٌ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لا تظنُّ أنه بجهدك وكذكِّ وعقلك، فكم من

عاقِلٍ وعبقري لا زالَ كافرًا مُرتكسًا في كُفْرِهِ ، وأنت قد منَّ الله عليك بالإسلام، ولهذا فإنَّ أهلَ الجنَّة إذا

دخلوا الجنَّة -جعلنا الله وإياكم وجميع إخواننا منهم- قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ

لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: 43]، والصَّحَابَةُ -رضوان الله عليهم- كانوا يقولون: "وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا

اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقْتَ، وَأَنْزَلَنَّا سَكِينَةً عَلَيْنَا

وَتَبَّتْ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقَيْنَا وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا"^{٥٥}. هذه كانوا يرتجزونها وهم يحفرون الخندق مع النَّبِيِّ -

صلى الله عليه وسلم- يوم الأحزاب.

الشَّاهد: أنَّ هذا اعترافٌ من الصَّحَابَةِ وإذعانٌ وذلٌّ لربِّهم -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- واعترافٌ بفضله.

ولهذا فإنَّ أصلَ الإيمان ليس هو العقل والتَّفكير، العقل وسيلة، لكن أصلَ الإيمان مِنَّةٌ من الله على العبدِ،

ولهذا نسأله في الصَّلَاة ونقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاحة: 6].

• وقد حرصَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- على إيمانِ أبي طالب؛ فلم يُسلم مع أنه يعلم أنَّ هذا هو الدِّين

الحق، قال الله -عزَّ وجلَّ- فيه وفي أمثاله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:

56]، فهذه مِنَّةٌ من الله، وعلى المؤمن أن يسأل الله الهداية.

• وأمَّا الكافر فيُدعى إلى الإسلام، وتُبَيَّن له الدَّلَائِلُ، وتُبَيَّن له الحُجَجُ، وتُبَيَّن له المحاسن؛ لعلَّ الله أن يهديه «لَأَنَّ

يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»^{٥٦}، لكن ننتبه اليوم أنَّ أغلب أهل الأرض من الكفار على شتى

^{٥٥} صحيح مسلم (3370).

^{٥٦} صحيح البخاري (2738).

أصنافهم هم أعداء ومكذِّبون بهذه الأركان، فبعضُ النَّاسِ يظُنُّ أنَّ هؤلاء غافلون عنها، لا، هم في أصلِ عقيدتهم مُكذِّبون بها أو ببعضها، أو بأغلبها، حتى ما أقرُّوا به من بعضِ الجوانبِ عندهم فيه من التَّحريف ومن التَّبدِيلِ ما اللهُ به عليم، هذا فيمن زعم أنَّه باقٍ على بقايا اليهوديَّة أو بقايا النَّصرانيَّة؛ لكنَّهم حرَّفوا وبدَّلوا، فهم يصفون الله بالنَّقائص، ويصفون الله -عزَّ وجلَّ- بما يتنزَّه عنه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصفات: 180، 181]، عرفت الفرق؟

طريقة المرسلين: قال الله فيهم: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصفات: 181]، لسلامة ما قالوه من النقص والعيب.

أما هؤلاء، فقال الله فيهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات: 180].

✓ وأخطرُ من هؤلاء المحرِّفون للأديان من اليهود والنصارى: الفلاسفة المكذبون لجميع الأنبياء والرسل، والمنكرون لوجود الخالق.

✓ وأخطرُ منهم: الملاحدة، كالعلمانيين، والليبراليين، والشُّيوعيين، والاشتراكيين، وجميع المذاهب الأرضيَّة هذه التي هي صناعةُ زُبالةِ عقولِ البشر، زبالةُ عقولِ أرذلِ خلقِ الله، هذه الزبالة صارَ بعضُ النَّاسِ يطير بها ويُعجَّ بها وينشرها بين المسلمين، ولا يدري أنَّ أصولَ هؤلاء هي إنكار هذه الأصولِ السَّيِّئة!

ولهذا فمن مهمَّتِكَ أيُّها المسلم وطلاب العلم: نشر الإيمان، ونشر العلم، ونشر الوحي، وتثبيت الإيمان في قلوب المسلمين ببيان براهينه، وأدلَّته من كتاب الله ومن سُنَّةِ رسوله -صلى الله عليه وسلم- ومن كلام أهل العلم، وبيان الحُجَجِ الشرعيَّة، وبيان الحُجَجِ العقليَّة أيضًا؛ حتى تَرَدَّ على هؤلاء الملاحدة المكذِّبون للرُّسل.

□ وكذلك أهل البدع -أشرنا إليهم قبل قليل- وقلنا: إنَّ عندهم نوعٌ تكذيبٍ، وعندهم انحراف، فمثلاً الجهميَّة، تقدَّم أنَّهم ينكرون أسماءَ الله وصفاته، فهم لم يؤمنوا بالله كما أنزلَ وكما شرعَ، ولهذا قال بعضُ السلف عن الجهميَّة: "إنهم يدورون أنَّه ليس فوقَ السَّماءِ إلهٌ يُعبد" ^{٥٧}، أي: يدورون على التَّعطيل.

□ وكذلك الحلويَّة الذين يقولون: إنَّ الله في كلِّ مكانٍ، فمذهبيهم هو التَّعطيل وإنكار الخالق، وإن لم يصرحوا به. فهذه البدع الخبيثة فيها إنكار لهذه الأصول -أركان الإيمان السَّيِّئة.

□ وكذلك القدريَّة الغلاة الذين يُنكرون عِلْمَ الله، فيقولون: إنَّ الله لا يعلم؛ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

• فإذا عرَّفتَ الفرقَ؛ عرَّفتَ أهميَّة هذه الأركان، وتمسَّكتَ بها، وثبتَّ عليها، فكلُّ الطوائفِ المبتدعة عندهم مخالفة لهذه الأركان، إمَّا مخالفةً كليَّة، أو مخالفةً جزئيَّة، ومنهم المعتزلة، وهكذا الجماعات الضَّالة والفرق والطوائف المنحرفة، ولهذا فإنَّ كلَّ طائفةٍ منحرفة وكلَّ جماعةٍ وكلَّ فرقةٍ تجعلُ لها أصولًا، وتدعو أتباعها إلى

^{٥٧} ذكره ابن تيمية عن عبد الرحمن بن مهدي الإمام المشهور أنه قال: "ليس في أصحاب الأهواء شر من أصحاب جهم يدورون على أن يقولوا: ليس في السماء شيء" (مجموع الفتاوى ج 5 ص 53).

هذه الأصول التي ابتدعتها واخترتها، أمّا أهل السُّنَّة والجماعة فهم معتصمون بالكتاب والسُّنَّة، وأصولهم هي الأصول التي أخبر عنها الرَّسُول -صلى الله عليه وسلم.

ولهذا فإنَّ عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة -كما ترون الآن- مرجعها هذه الأركان السِّتَّة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

مثلاً: الأصول الثلاثة للشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- بناها على: مَنْ رَبُّكَ؟ وما دينك؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وهذا الذي أخبر عنه النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّ الْعَبْدَ يُسْأَلُ عَنْهُ فِي قَبْرِهِ، وَيُتَمَحَّنُ هَذَا الْامْتِحَانُ، فَأَهْلُ الْعِلْمِ طَرِيقَتُهُمْ رِبْطُ النَّاسِ بِالْأَصُولِ الشَّرْعِيَّةِ وَبِالْوَحْيِ، وَرَدُّ النَّاسِ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- خِلافاً لطريقة المبتدعة، وخلافاً للجماعات الضَّالَّةَ والفِرَقَ المنحرفة.

مثلاً: المعتزلة: عندهم أصولٌ خمسة، ولسنا بحاجة لتعدادها، ولكن كلَّ أصلٍ من أصول المعتزلة الخمسة فيه ردٌّ للنصوص الشرعية، وفيه تحريفٌ لكتاب الله وسنَّة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وفيه ضلالةٌ من ضلالات المعتزلة، ويمكنكم الرجوع إلى شرح الطحاوية حتى تعرفونها.

فالمقصود: أننا نثبت على أصول أهل السُّنَّة والجماعة، ونؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

ولهذا لما كانت هذه الأصول مذكورة في آيتين من سورة البقرة: جاء فيها الفضل العظيم، قال النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم: «الْآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَاهُ»^{٥٨}، يعني تكفيه من كل شرٍّ، حتى قال بعضهم: تكفيه عن قيام الليل. ولكن هذا فيه نظر، والأقرب أنَّها تكفيه كلَّ خطرٍ وكلَّ شرٍّ، والعلم عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَمِعَ نَفِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَتَحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَتَزَلَّ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ، لَمْ يَنْزَلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: «أَبَشِّرْ بَنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ»^{٥٩} الله أكبر! هذه بشارةٌ للمسلم، ونعمةٌ من الله على هذه الأمة، والحمد لله على هذا، وهذا يدلُّك على عظيم شأنِ أركان الإيمان السِّتَّة.

ودلَّت النُّصوصُ الشرعيَّةُ على ما يتعلَّق بالكتب، وقد سبق الإشارة إليها، ولكن نُنبِّه إلى أنَّ أعظمَ الكتب هو القرآن -كما تقدَّم- فالإيمان به على وجه خاصٍّ أنَّه كلامُ الله منزَّلٌ غيرُ مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وأنَّ الله تكلمَ به حقيقة، وأنَّه كلامُ الله لفظه ومعناه، ليس اللفظ دون المعنى، ولا المعنى دون الكلام، وأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- جعلَ فيه الهدى والنُّور، ويجب التَّحَاكُمُ إِلَيْهِ وَالرِّضَا بِهِ، والعملُ بِمَحْكَمِهِ، والإيمانُ بِمُتَشَابِهِهِ، وأنَّ نَأْخُذَ بِهِ كُلَّهُ، وَلَا نَضْرِبَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، كُلُّ هَذَا دَاخِلٌ فِي الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

^{٥٨} صحيح البخاري (4008).

^{٥٩} صحيح مسلم (1345).

- ومن التَّحَاكُم بِالْقُرْآنِ وَالْعَمَلِ بِهِ: الْعَمَلُ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالتَّحَاكُم إِلَيْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].
- والإيمان بالملائكة: إيمانٌ بأسمائهم، حيث سَمَّى اللهُ -عَزَّوَجَلَّ- جبريلَ وميكائيلَ، وجاء في السُّنَّة تسمية الملائكة مثل: إسرافيل، وجاء في السُّنَّة بيان أَنَّ رضوان خازن الجنة^{٦٠}، وجاء في القرآن أن (مَالِكُ) هو خازن النَّار ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: 77]، ومنهم الملائكة الموكِّلون بالرَّحْم، ومنهم الملائكة الموكِّلون بحفظِ العباد، ومنهم حملةُ العرشِ وهم الكروبيون، ومنهم الملائكة الذين يجتمعون في صلاةِ الفجر وفي صلاةِ العصر، ومنهم ملائكة سيَّارون يبحثون عن حَلَقِ الذِّكْرِ والعلمِ، وغير ذلك مِنَ الملائكة المذكورة في الكتابِ وفي السُّنَّة.
- والملائكة: جمع مَلَك، والمَلِك هو الرَّسُول، فالملائكة لفظهم يشعر بأنَّهم معهم رسالة، ولهذا كان جبريل يأتي بالوحي من عند الله -عَزَّوَجَلَّ- إلى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء 193-195]، وهم أفضل المخلوقات ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: 26]، لا يعصون الله طرفة عين.
- وأفضل الملائكة ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، دَلَّ على هذا الحديث الذي أَخْبَرَتْ بِهِ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- عَنْ صَلَاةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي اللَّيْلِ، أَنَّهُ كَانَ يَسْتَفْتِح بِهَذَا الدُّعَاءِ، فَكَانَ إِذَا قَامَ يَصَلِّي فِي اللَّيْلِ يَقُولُ بَعْدَ التَّكْبِيرِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^{٦١}.
- فيجب الإيمان بالملائكة، وهم خُلِقُوا مِنْ نُورٍ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلَا نَخُوضُ فِيهَا لِمَا يَخْبِرُنَا اللَّهُ بِهِ، وَلَا نَقُولُ إِنَّهُمْ قَوَى رُوحَانِيَّة، وَأَنَّهَا لَا حَقِيقَةَ لَهَا، أَوْ أَنَّهُمْ قَوَى الْخَيْرِ؛ كُلُّ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ وَالتَّأْوِيلَاتِ الَّتِي لَمْ يَنْزِلِ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ -وَقَالَهَا بَعْضُ الْمُتَأَوِّلِينَ- غَيْرُ مُقْبُولَةٍ، فَنُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَفِي السُّنَّةِ مِنْ أَسْمَائِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ.
- وقد تَكَلَّمَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمَافَاضَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَيُّهُمْ أَفْضَلُ؛ وَالْمَسْأَلَةُ سَهْلَةٌ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَصِيرَ فِيهَا نِزَاعٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَبِالنَّظَرِ فِي الْآيَاتِ وَالتَّنْصُوصِ نَجَدُ أَنَّ صَالِحِي الْبَشَرِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ قَدْ يَفْضَلُونَ جَمِيعَ الْمَلَائِكَةِ، فَالتَّنْصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ دَلَّتْ عَلَى هَذَا، لَكِنْ بَقِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ، هَلْ هُنَاكَ مَنْ يَفْضَلُهُمْ جَمِيعًا؟ هَذَا مَحَلٌّ تَأْمُلُ، وَمَحَلٌّ دَرَاةٍ، وَالْأَمْرُ فِي هَذَا سَهْلٌ، وَلَا يَنْبَغِي التَّرَاوُعُ فِيهِ.

^{٦٠} فينادي رب العزة رضوان وهو خازن الجنة" رواه العقيلي في الضعفاء الكبير، وابن حبان في المجروحين. وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله عن الملائكة: "وَمِنْهُمْ الْمُؤَكَّلُونَ بِالْجَنَانِ، وَإِعْدَادُ الْكَرَامَةِ لِأَهْلِهَا، وَتَهْيِئَةُ الضِّيَافَةِ لِسَاكِنِيهَا، مِنْ مَلَابِسَ وَمَصَاغٍ وَمَسَاكِنَ وَمَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا قَلْبٌ بَشَّرَ. وَخَازِنُ الْجَنَّةِ مَلَكٌ يُقَالُ لَهُ (رِضْوَانٌ)، جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ " انتهى من "البداية والنهاية" (53/1).

وقال الشيخ ابن عثيمين: "وأما 'رضوان' فموكل بالجنة، واسمه هذا ليس ثابتاً بثبوتنا واضحا كثبوت مالك [يعني: خازن النار] لكنه مشهور عند أهل العلم بهذا الاسم " انتهى من "مجموع فتاوى العثيمين" (119/3).
^{٦١} صحيح مسلم (770).

- تقدّم الإيمان بالرّسل: فالرّسل أفضل خلق الله، ونؤمن بهم إجمالاً وتفصيلاً.
فالإجمال: أنّ الله -عزّ وجلّ- أرسل الرّسل لهداية البشر، والرّسل والأنبياء هم خيرة البشر ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75]، فالله يصطفي من النّاس بشراً يوحى إليهم، هؤلاء البشر الذين اصطفاهم الله -عزّ وجلّ- هم الأنبياء والرّسل، وأولهم آدم وهو نبي مُكلّم، وآخرهم محمد -صلى الله عليه وسلم- وأول الرّسل إلى أهل الأرض بعد حصول الشّرك هو نوح ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: 163]، فهذا يدلّ على أنّ نوحاً هو أول الرّسل إلى أهل الأرض.
- والرّسل منهم من أخبر الله -عزّ وجلّ- بأسمائهم، ومنهم من لم يخبر بأسمائهم ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78]، فنحن نؤمن بأنهم بلّغوا البلاغ المبين، وأنهم قاموا بأمر الله كما ينبغي، وأنهم لم يقصّروا، وأنهم بيّنوا بياناً لا يسع أحد جهله، وأنهم أفضل البشر، لا أحد أفضل منهم، ولا نقول كما يقول الصّوفيّة الضّالّون أنّ الوليّ -أو القطب- أفضل من النّبيّ! فالنّبيّ والرّسول أفضل من البشر، والأولياء تحتهم، والأولياء هم المؤمنون الصّالحون وليس كما يزعم هؤلاء.
- كذلك نؤمن بأنّ أفضل هؤلاء الرّسل أولي العزم، فأولو العزم هم: محمد -صلى الله عليه وسلم- وهو أفضلهم، ثم إبراهيم، ونوح، وموسى، وعيسى، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 13]، وفي سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: 7]، فذكرهم الله في موضعين من القرآن. وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، فهؤلاء الرّسل -عليهم الصّلاة والسّلام- نؤمن بهم إيماناً مجملاً، ونؤمن بأنهم أفضل البشر، ولكن نؤمن إيماناً تفصيلاً بنينا محمد -صلى الله عليه وسلم- بتصديقه، واتباعه، والإيمان به، ومحبته، والدّفاع عن دينه، والدّخول في دينه، والثّبات عليه، ونشر سنّته، والشّهادة بأنّه محمد رسول الله، هو عبد الله ورسوله، فالشّهادة له بالرسالة تتضمّن طاعته فما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألاّ يعبد الله إلاّ بما شرع -صلى الله عليه وسلم-.
- فهذا هو الإيمان بالنّبيّ -صلى الله عليه وسلم- وله حقوق على أمّته وهي:
 - (١) الإيمان به، وتصديق أخباره، والعمل بما جاء به، وامتنال أمره، والانتفاء عن نهيه، ومحبته أعظم من محبة النّفس، والأهل، والوالدين، والنّاس أجمعين.
 - (٢) ومن حقوق النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- الصّلاة والسّلام عليه إذا ذكر اسمه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].
 - (٣) ومن حقوقه على أمّته -صلى الله عليه وسلم- أن ننشر سنّته، ونُدافع عنها، وننصر دينه، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم.

٤) وكذلك التَّحَاكُم إلى سُنَّتِهِ وإلى شَرْعِهِ والعمل به، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: 65].

٥) وتعليم أولاد المسلمين محبة النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- ومحبة سيرته، وبيان أخباره وأخلاقه، وهديه، وسمته -صلى الله عليه وسلم- اللهم اجعلنا ممن اتبعه حقًا ظاهرًا وباطنًا.

٦) وكذلك من حقه علينا ألا نبتدع في الدين، وألا نتبع البدع، لأنه حذرنا منها، قال: «إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ شَرَّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَالَّةٌ»^{٦٢}.

أما الغلو في النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فقد نهانا عنه، وهذا من طرائق أهل البدع والأهواء، فيجب الحذر من ذلك، نسأل الله -جلَّ وعلا- أن يُفَقِّهَنَا في الدين.

؟ ذكر المؤلف هنا صفة المحبة وصفة التكليم لله، هل صفات الله -سبحانه وتعالى- الأخرى مثبتة من حيث الأدلة بهذا الوضوح أم فيه تفاوت في الوضوح؟

- كلُّ ما جاء في القرآن وفي السُّنَّة من صفات الله -عزَّ وجلَّ- يجبُ الإيمان بها، ويجبُ إثباته، وكلُّ ما أخبر الله به عن نفسه وأخبر به رسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ يجبُ الإيمان به كما جاء من غير تحريف، ومن غير تعطيل، ومن غير تكييف، ومن غير تمثيل، حتى إثبات أهل السُّنَّة والجماعة لمحبة الله -عزَّ وجلَّ- والخلة لإبراهيم ولمحمد، فإنهم يثبتونها على وجه لا يُشابه صفة المخلوقين، فمحبة الله ليست مثل محبة الخلق، محبة الله -عزَّ وجلَّ- صفة قائمة به، والله -عزَّ وجلَّ- ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4]، ﴿فَلَا تَضُرُّوهُ لِلَّهِ الْأَمْثَالُ﴾ [النحل: 74]، فلا يجوز أن يُشَبَّه الله بخلقه، لا في صفة المحبة، ولا في صفة الخلة، ولا في غيرها من الصفات، فكلُّ ما جاء في القرآن وما جاء في السُّنَّة فيجبُ الإيمان به تمامًا، ولا يجوزُ تحريفه أبدًا ولا تعطيله، فهذه هي الطريقة السَّلفيَّة، حتى لو جاء في آية واحدة أو حديث واحد؛ فهذا يكفي، كلُّ ما جاء عن الله فهو حقٌّ، وكلُّ ما جاء عن رسوله -صلى الله عليه وسلم- فهو حق.

؟ ذكرتم أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ»^{٦٣}، فكأن معناه أنه لم يتخذ خليلًا، ثم هناك حديث أبي هريرة يقول: "أَوْصَانِي خَلِيلِي"^{٦٤}، ويقصد به الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

- النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- إذا أرادَ أن يتَّخَذَ خَلِيلًا لا يمكن إلا إذا اتَّخَذَ خَلِيلًا واحدًا؛ لأنَّ القلبَ يمتلئ بمحبَّته، ولهذا فإنَّ الله -عزَّ وجلَّ- اتَّخَذَهُ خَلِيلًا، فلا يمكن للنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- أن يتَّخَذَ أَبَا بَكْرٍ

^{٦٢} صححه الألباني في أحاديث الأحاد (6).

^{٦٣} سبق تخريجه رقم (1).

^{٦٤} صحيح مسلم (721).

خليلاً، وهو أحقُّ النَّاسِ بذلك، «وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ»^{٦٥}، إلا أنَّ الخُلَّةَ هي كمالُ المحبَّةِ ويمتلئُ بها القلبُ، فلماذا اتَّخَذَ اللهُ محمداً -صلى الله عليه وسلم- خليلاً.

• أمَّا الصَّحَابَةُ -رضي الله عنهم- فيمكنُ لكلِّ واحدٍ منهم أن يتَّخَذَ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- خليلاً؛ لأنَّ قلبه يمتلئُ بمحبَّةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- وهذا لا يتعارضُ مع ما سبق، لكن من جهةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فإنه لا يمكنُ أن يتَّخَذَ خليلاً من البشر، فالله -عزَّ وجلَّ- اتَّخَذَهُ خليلاً، ومن هذه النَّاحِيَةِ انتَفَى من جهةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- للصَّحَابَةِ، لكن لم يَنْتَفِ من جهةِ الصَّحَابَةِ لِلنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- أن يحبُّوه حبًّا عظيمًا محبَّةَ الخُلَّةِ، فهذا غير منفٍ. بارك الله فيكم.

وصلى الله على نبيينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه. وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.



^{٦٥} سبق تخريجه رقم (1)

الدرس الخامس



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{قال المصنّف -رحمه الله تعالى: (وُسَمِّيَ أَهْلَ قِبَلَتِنَا مُسْلِمِينَ، مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَرِفِينَ، وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ. وَلَا نَخُوضُ فِي اللَّهِ، وَلَا نُمَارِي فِي دِينِ اللَّهِ، وَلَا نُجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)}.

- قال الطحاوي -رحمه الله: (وُسَمِّيَ أَهْلَ قِبَلَتِنَا مُسْلِمِينَ، مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَرِفِينَ، وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ) ، هذا مثل ما تقدّم معنا في المراد بأهل القبلة في حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «مَنْ صَلَّى صَلَاتِنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتَنَا، وَأَكَلَ دَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ»^{٦٦} ، فهذا المراد بأهل القبلة، كلُّ مَنْ أظهر الإسلام والشهادتين واستقام عليهما، والتزم بالإسلام ودخل فيه؛ فهذا مسلمٌ.

قوله: (أَهْلَ قِبَلَتِنَا) هؤلاء يسمون أهل القبلة. لماذا يسمون أهل قبلة؟

أخذًا من هذا الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم: «وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتَنَا»، واستقبال القبلة يكون في الصلاة، وهذا علامة إسلامه.

- (وُسَمِّيَ أَهْلَ قِبَلَتِنَا مُسْلِمِينَ) فكلُّ مَنْ أظهر الإسلام نحكم عليه بالإسلام بما ظهر، وهل الأصل في المسلم السلامة، أم نقول الأصل في المسلم العدالة؟ ما رأيكم؟

^{٦٦} صحيح البخاري (381).

نقول: السَّلامَة، لأنَّ العَدالةَ تحتاجُ لمرتبةٍ أعلى، فتحتاجُ إلى توثيقٍ، وتركيبَةٍ، وما يدلُّ على ثبوتها، أمَّا السَّلامَةُ فهي الأصلُ، فما دام أنَّه أظهرَ الإسلامَ فنحكمُ بما أظهرَ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: 94]، إذن نُسمِّي أهل القبلة

بالمسلمين، فنقول: هؤلاء مسلمون ومؤمنون.

- (مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَرِفِينَ، وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ) ، فهذا أصلٌ عظيمٌ، وهو أنَّه إذا ثَبَتَ تكذيبهم بالنبي -صلى الله عليه وسلم- أو ردُّهم لآيات القرآن أو نحو ذلك من علامات الكفر والنفاق؛ فإنَّهم حينئذٍ لا يكونون مسلمين، لأنَّ مَنْ كَذَّبَ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- أو كَذَّبَ القرآنَ أو لم يُصَدِّقْ بما قاله النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- أو شكَّك فيه أو نحو ذلك؛ فهذا علامةُ كفره، فهو كافرٌ حينئذٍ وليسَ بمسلمٍ.
- فالأصلُ في أهل الإسلام السَّلامَة حتى يثبَّت ما يُخالفُ هذا الأصلَ، فإذا أظهرُوا تكذيبَ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- مثل مَنْ يُصَدِّقُ مسيلمةَ الكذاب ويَتَّبِعُه، فمسيلمة ادَّعى النُّبوَّةَ، فهؤلاء ربَّما بعضهم يستقبلُ القبلةَ أوَّلَ الأمرِ، لكن هل هم مُصَدِّقِينَ بالنبيِّ -صلى الله عليه وسلم- أم مُكَذِّبِينَ؟ هم كذبوا النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- أنَّه خاتمُ النَّبِيِّينَ، وزَعَمُوا أنَّ مسيلمةَ رسولٌ معه ونبيٌّ معه.
- فالمسلم يُحَكِّمُ بإسلامه بما أظهرَ حتى يثبَّت ما يُخرِجه عن الإسلام، ولا يُمكن أن يخرجَ مِنَ الإسلامِ إلا بيقينٍ، أمَّا الدُّنُوبُ فلا تخرِجه مِنَ الإسلامِ، خِلافًا للخوارج والمعتزلة، فالخوارج والمعتزلة يقولون: إذا ارتكبَ المسلمُ الدُّنُوبَ خَرَجَ مِنَ الإسلامِ، وهذا مذهبٌ خاطئٌ وضالٌّ.
- وفي مقابلِ هذا: مذهبُ المرجئة، فيقولون: مهما ارتكبَ مِنَ الدُّنُوبِ والمعاصي فهو مؤمنٌ كاملُ الإيمانِ.
- ولهذا فنحنُ نحتاجُ إلى أن نُقَيِّدَ الشَّرْحَ في قوله (مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ)، فنقول: إذا ارتكبوا الدُّنُوبَ نَقَصَ إيمانُهم ونَقَصَ إسلامُهم، فليسَ مجرد الاعتراف بالنبيِّ -صلى الله عليه وسلم- والتَّصديق به يُكْتَفَى بذلك، لأنَّ هذا مذهبُ بعضِ المرجئة، فيقولون: يكفي الاعتراف والتَّصديق دون القول والعمل. فهذا غيرُ صحيحٍ. فلا بدَّ في الإسلام والإيمانِ مِنَ اعتقادٍ بالجنانِ وقولٍ باللسانِ، وعملٍ بالجوارح والأركانِ، فهذا معنى قوله: (وَنُسَمِّي أَهْلَ قِبَلَتِنَا مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ) ، يعني نصفُهم بوصفِ الإسلامِ والإيمانِ وإن كانوا ليسوا كلُّهم على الكمالِ بمجرد الاعتراف بالنبيِّ -صلى الله عليه وسلم- أو نطقِ الشَّهادتين.

هل كل المسلمين على درجة واحدة؟

الجواب: لا، هم متفاوتون، لكن إذا ارتكبَ واحدٌ منهم ناقضًا من نواقض الدِّين وثبَّتَ ذلك؛ خرجَ مِنَ وصفِ الإسلامِ، وخرجَ مِنَ وصفِ الإيمانِ -نسألُ الله أن يثبِّتَنَا وإِيَّاكُمْ على الإيمانِ وعلى الإسلامِ.

{(وَلَا نَخُوضُ فِي اللَّهِ، وَلَا نُمَارِي فِي دِينِ اللَّهِ، وَلَا نَجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ)}.

- هذه ثلاثُ مسائلٍ، فلا نخوضُ في الله -عزَّ وجلَّ- لأنَّ الخوضَ في الله هو الكلامُ بغيرِ علمٍ، أو الكلامُ بما لا يجوزُ الكلامَ فيه، وقد نهانا الله -عزَّ وجلَّ- أن نتكلَّم بغيرِ علمٍ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]، ونهانا

الله عن اتباع الظن، فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: 23].

والخوض في الله يدخل فيه البحث في كيفية صفاته، كيف صفة الله، كيف ذات الله؛ فهذا أمر محرّم وباطل، ولا يمكن أن يدركه العقل البشري مهما بلغ ومهما أوتي، لأن الله -عز وجل- قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110].

ومن الخوض المذموم: الكلام في المشتبهات، والكلام في الكيفيات، كيف استوى على العرش، كيف ينزل، كيف يجيء، وبعضهم يذكر هذه الأشياء ليردّ النصوص الشرعية ويحرفها -نسأل الله العافية والسلامة-.

فالخوض في الله -عز وجل- يشمل الخوض في ذاته، والخوض في كيفيات صفاته، ويشمل أيضاً الخوض في شرعه بالتشكيك في الشريعة الإسلامية، والخوض في الدين الإسلامي، والخوض في آيات الله؛ كل هذا من الأمور الباطلة المحرّمة في الشريعة، وأهمل السنة والجماعة على طريقة واحدة وهي (وَلَا نَخُوضُ فِي اللَّهِ)، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 68].

؟ الإنسان المسلم قد تهجم عليه وسأوس شيطانية في التفكر في ذات الله، ونحو ذلك، فقد يلقي الشيطان الوسوس على المسلم، فماذا يجب عليه؟

وجّهنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في هذا المقام إلى ثلاثة أمور:

□ **الأول:** أن يستعيد بالله -عز وجل- من الشيطان الرجيم.

□ **الثاني:** أن ينتهي ولا يسترسل، ويتوقّف عن هذا التفكير وهذه الوسوس، فلا يسترسل ولا يستجيب لها.

□ **الثالث:** أن يدافعها بقراءة الآيات العظيمة، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الصمد].

فلا يجوز للمسلم أن يخوض في الله -عز وجل-.

أما الإيمان بما أخبر الله -عز وجل- عن نفسه، كما أخبر الله -عز وجل- أنّه هو السميع وهو البصير، وهو

العليم، وهو الحي القيوم؛ فكل هذه الأسماء لها معاني تؤمن بها، ونصديقها، وننتفع بتعظيم الله -عز وجل-.

فنعبّد الله -عز وجل- ونجتهد في طاعته، ولهذا فإن أعلى مقامات الدين هي «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، يعني

تستحضر معاني أسمائه وصفاته، فتعظمه «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^{٦٧}، فهذا مقام المراقبة، وهذا معنى

قوله: (وَلَا نَخُوضُ فِي اللَّهِ).

ثم قال: (وَلَا نُمَارِي فِي دِينِ اللَّهِ)، المراءى مذموم في الشريعة، وهو المجادلة والمجادلة فيما فيه مرية، يعني فيما

فيه شك وتردد، والأمور التي ليست واضحة تمام الوضوح فالنقاش فيها والمحاورة فيها يسئ مراء، لكن المراء

يدخل فيه جانب نفسي هو أن المتحدّث يريد أن ينصر كلامه، ولهذا بعضهم يقول القول الخطأ ثم يفيسر

^{٦٧} صحيح البخاري (49).

الشريعة بهذا القول الخطأ، أو يُفسر الآية بهذا القول الخطأ، ثم يبحث ويجادل عن هذا ويُحاور في هذا، لأنّه لحظَ حظاً نفسه، ويريد أن ينتصر لقوله دون النظر إلى الأدلة الشرعية.

فالمراء في دين الله -عز وجل- بأن تنظر لنفسك، وما قلته حتى تنصّر قولك، حتى لو كان قولك بغير علم وبغير تحرير، وبغير تحقيق، وبغير مراجعة وتأكد، فتجد بعض الناس يُماري، ويُحاول أن يؤيدّ قوله بكلّ شيء حتى لو بالباطل، حتى ربّما لو وجد بعضهم حديثاً ضعيفاً أو مكذوباً ذهبَ يحتجّ به أو يُحاول أن يقوّي شأنه حتى يستأنس به لنصرة قوله؛ فهذا من المراء المذموم.

؟ فالمراء: يعني النقاش فيما فيه مريّة. لماذا فيه مريّة؟

لأنّ بعض الأمور لا تتضح للمتحدّث فيبحث عن نصرتها، لكن إذا اتّضحت بالدليل الشرعيّ فهذا جدالٌ بالحقّ، وجدالٌ بالتي هي أحسن، فلا بأس بهذا أن يبيّن الحقّ، لكن لا يريدُ نصرته نفسه فقط، وإنّما يريدُ بيان الحقّ بدليل، فهذا يدلُّ على وجوب مجاهدة النفس، وأنّ الإنسان لا يكون همّه الانتصار لقول نفسه، فأنّت عرضة للخطأ مهما كنت، ولهذا تجد بعضهم يماري في الدين حتى يأخذ بالأقوال الضعيفة، ويأخذ بالتعصّب الأعمى، ويقلّد التقليد الأعمى، ويتّبع أقوال الشيوخ ويخالف الأحاديث والآيات، وربّما بعضهم يُقدّم قول الشيخ على الآية والحديث، فالشيخ ليس بمعصوم، والعالم ليس بمعصوم، فلا تمار في القرآن، ولا تمار في الدين، ولهذا قال الله في سورة الكهف: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً﴾ [الكهف: 22]، يعني جدالاً بالحقّ، الشّيء البين بدون توسّع، فتبين الحقّ وتسكت، ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً﴾.

ولهذا أيضاً في الحديث في سنن أبي داود عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنّ النّبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «المراء في القرآن كفر»^{٦٨}، نسأل الله العافية والسّلامة- وهذا المراد به -والله تعالى أعلم: التّشكيك فيه بغرض جحده وتكذيب آياته، فهذا -نسأل الله العافية والسّلامة- يُعتبر من الكفر. ومن ذلك أنّ بعض الناس يماري في الدين فيردّ الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى تجرّ بعضهم وقال: إنّ الأحاديث في البخاري ومسلم ما نصدّق أنّ الرّسول قالها، ولا نوّمن بذلك. لماذا؟ يقول: لأنّ عقلي لا يصدّق هذا.

فهذا يدلُّ على أنّه يماري في دين الله -عز وجل- ويتّبع هواه، ولا يتبع الهدى!

فعقولنا مهما أوتيت فهي عرضة للخطأ والتّغيّر والتّجدّد، واليوم يبدو لك رأي ثم ترجع عنه ويظهر لك ضعفه، فكيف تجعل هذه العقول حاكمة على كلام الله أو كلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- فتردّها الأحاديث الصحيحة الثّابتة المتواترة؟! فمن ردّ حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهو على شفا هلكة كما قال السّلف الصّالح -رحمة الله عليهم.

ولهذا قال: (وَلَا تُمَارِ فِي دِينِ اللَّهِ)، إذا جاء الحقّ اقبله، فإذا جاء الحقّ بالدليل من القرآن ومن السنّة اقبله ولا تمار، لا تهرب ولا تحاول أن تنتصر لرأيك وتجلس تُجادل الآخرين وتضيع الأوقات بالمراء.

^{٦٨} سنن أبي داود (3989).

- بقي معنا مسألة الجدل، قال: **(وَلَا تُجَادِلْ فِي الْقُرْآنِ)** تقدّم الحديث عن الجدل، وذكرنا حديث النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- **«المرء في القرآن كُفْرٌ»** وهذا رواه أبو داود في سننه، وسنده قد صحّحه أهل العلم، وكذلك رواه الإمام أحمد وغيره، فالمرء في القرآن كفر.

وذكرنا من معاني الجدل الباطلة كما قال الله تعالى: **﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾** [غافر: 5]، يعني ليردوا به الحق.

- والجدال بالباطل أنواع:

❖ **النوع الأول:** ربما يُجدال لِيُشَكِّكَ في القرآن، ويقول: إنّه ليس كلام الله، وإنّما هو كلام البشر، كما

قال الكفار الأولون: **﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾** [الأنعام: 25]، **﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ**

مُفْتَرًى﴾ [القصص: 36]، وقالوا: هذا قول كاهن، وقالوا: هذا قول شاعر؛ وحالوا أن يختلقوا

الأشياء؛ فكلّ هذا تكذيب للقرآن، وهؤلاء الكفار الأولون لهو وراث إلى الآن من الزنادقة

والمستشرقين والمنصّرين وأعداء الدين، فلا زال هناك من هؤلاء الكفرة من يردّد كلام الكفار

الذين حكى الله أقوالهم في القرآن.

فهذا نوع من المراء في القرآن، ولهذا فلا يجوز لنا أن نروج أقوال هؤلاء المجرمين المكذّبين

الجاحدين، فهذا من الجدل في القرآن، فلا نجادل في القرآن، ونؤمن أنّه حقّ وأنّه كلام ربّ

العالمين.

❖ **النوع الثاني:** أن يردّ المعاني الصّحيحة لهوى في نفسه، أو لعصبية مذهبه أو لطائفته أو بدعته،

أو يردّ الحقّ لشبهة طرأت عنده، أو يردّ الحقّ بالكذب والبهتان والافتراء على الله وعلى رسوله،

ولهذا في طوائف من أهل البدع من يكذب على الله -عزّ وجلّ- ويكذب على الرّسول -صلى الله

عليه وسلم- ويروجّ الكذب على الله وعلى رسوله ويفتري ولا يخاف من الله؛ فهؤلاء جادلوا

بالباطل ليدحضوا به الحقّ.

ولهذا أهل العلم يقولون: **(وَلَا تُجَادِلْ فِي الْقُرْآنِ)**، فكلّ هذه الطُّرق السّابقة باطلة.

❖ **النوع الثالث:** من الجدل في القرآن بهذه الطّريقة الكفريّة المخرّجة من الملة: من يزعم من

العلمانيين المتأخّرين أنّ القرآن قابل للنّقْد. وعجبا لهؤلاء! فهذا الكلام من قاله فهو كافراً بالله

العظيم، فكلام الله حقّ **﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَا**

يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: 42 - 43]، هؤلاء مكذّبون للرّسل ومكذّبون

للرّسالات، ومكذّبون للقرآن.

- وبعضهم يقول: لا بدّ أن نعرف بشريّة القرآن.

ما معنى بشريّة القرآن؟

يعني: أنّه قول بشر.

وماذا قال الله في سورة المدثر؟

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدر 25-26]، فهذا ليس قولُ البشرِ، وإنَّما هو قولُ ربِّ العالمينَ، فالله -عزَّ وجلَّ- أنزله على محمد ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: 193-195].

وبعضهم يقول: القرآن من التراث، والتراث لابد من تمحيصه.

سبحان الله! فهؤلاء كفَّارُ أعداءِ الله ورسوله، وأعداءُ لدين الإسلام، فيجبُ فضحهم، ويجبُ كشفهم للمسلمين حتى لا يشتبه على الجهال والأغرار والسذج مثل هذه المقالات الخبيثة الكفريَّة.

● الجدل في لغة العرب: من الجدَل، والجدَل هو لفُّ الشَّعر ونحوه، ومنه الجدِلة، فالجدلُ يكون له قوَّة. والمجادل غيرُ المُحاور، فالحوار هو أيُّ نقاشٍ بين طرفين، لكن المُجادل عنده لدَّةٌ وعنده شيءٌ من الخصومة حتى يُثبتَ صحَّةَ ما يقوله، ولهذا فالجدالُ في الأغلب غيرُ محمودٍ، وإنَّما يُحمَدُ منه ما كان لنصرة الحقِّ، وما كان بالتي هي أحسن، ولهذا ينبغي لمن يريد أن ينشر الحقَّ ويبيِّنَه أن يكونَ كلامه بعلمٍ وبالدليل وبالْحجَّة الشرعيَّة والعقليَّة والفطريَّة، ويستخدم الأدلَّة الصَّحيحة، والقرآنُ اشتملَ على أصولِ الأدلَّة الصَّحيحة من الأدلَّة العقلية، والأدلَّة الشرعية، والأدلَّة الفطرية، والأخبار الصادقة، والأحكام العادلة؛ فهذا ينبغي أن يتفطنَ أهلُ العلم وطلابُ العلم لما في القرآن من الحجج العقلية والبراهين الصَّحيحة اليقينية في الردِّ على أهلِ الباطل، ويستفيدَ من طرقِ القرآن في الردِّ على أهلِ الباطل.

● الجدلُ يكون بالحقِّ تارةً، ويكونُ بالباطلِ تارات، ولهذا يجبُ على المسلم أن يلزم الطَّريقة الصَّحيحة، وهي

الجدال بالتي هي أحسن ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، وفي قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا

مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: 46]، فبعض الناس معاند يريد الباطل حتى لو تبين له الحقُّ لا يريد، فهذا لا يُجادل، يُلقَى الحقُّ إليه ولا يُناقش، حتى بعض المبتدعة سواء من الجهميَّة أو المعتزلة أو الأشاعرة أو المتصوِّفة أو الشيعة أو غيرهم؛ تجدُ بعضهم متعصِّبًا لباطله، فهؤلاء تُلقَى إليهم الحقُّ ولا تجادلهم، أسمع النَّاسَ الحقَّ من كلام الله وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- والمعاني الصَّحيحة التي تضمَّنها كلامُ الله وكلامُ رسوله ولا تدخل معهم في المناظرات وإضاعة الأوقات.

● قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: 46]. وفي الحجِّ قال: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: 197]،

فتمسك لسانك عن الكلامِ بالباطلِ، وعن إضاعةِ الأوقاتِ في اللَّددِ والخصومة، فتُبَيِّن الحقَّ حتى في الحجِّ، والجدال المنهي عنه هو الجدال بالباطلِ أو بغير علمٍ أو بإضاعةِ الوقتِ لنُصرة قولك، فتُبَيِّن الحقَّ بدونِ لدِّ وبدونِ خُصومة، وبدونِ اندفاعٍ، حتى تُظهر أنَّك متعصِّب لقولك وتَنظر لحظَّ نفسك. هذا من الجدال في القرآن.

❖ النوع الرابع: وهو إنكارُ القراءة الثَّابتة، وورد في هذا أحاديث عن الرَّسول -صلى الله عليه وسلم-

فإنَّ القرآن أنزلَ على سبعةِ أحرف، والنَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- أقرأ الصَّحابة على عددٍ من

القراءات، فبعضُ النَّاس لجَّهله ربَّما يُنكِرُ قراءةً ثابتةً صحيحةً عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم-

وهذا من الجدال في القرآن، ولا يجوز مثل هذا.

❖ النوع الخامس: من الجدال المذموم في القرآن: أن يُفسَّر القرآن بالرأي وبالظن، فلا يجوز أن تُفسَّر

القرآن برأيك مهما كنت، إنَّما يُفسَّر القرآن بالقرآن وبالسُّنَّة الصَّحيحة، وبأقوال الصَّحابة والتَّابعين وأتباعهم، وعلماء أهل السُّنَّة والجماعة، وبما تقتضيه اللُّغة العربيَّة، أمَّا التَّفسيَّرات المخترعة والمتكلَّفة والمبتدعة، أو تنزِيلُ بعضِ الوقائع العصريَّة وتفسير القرآن بمقتضاها مع أنَّها قد تتغيَّر وقد تبدَّل ويسمون هذا "الإعجاز العلمي" فيدخلُ في هذا أن يُنسَب إلى القرآن ما ليس منه، فبعضُ النظريَّات قابلة للصَّواب والخطأ، وقابلة للدراسة، فيأتي بعضُ النَّاسِ ويستعجب ويقول: المراد بهذه الآية كذا وكذا -بمسمى الإعجاز العلمي- ولا يثبت! فهذا كلُّه من الجدال بالباطل، ومن التَّفسيَّر بالرَّأي، ويجبُ الحذر من هذه المسالك.

هذا -أيُّها الإخوة الكرام- معنى قوله (وَلَا تُجَادِلْ فِي الْقُرْآنِ)، فيجب الحذر.

- وممَّا وردَ في السُّنَّةِ في المسند وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال: خرج النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- على قومٍ يتدارؤون في القدر -أي يتدافعون في النَّقاش- هذا ينزع بأية، وهذا ينزع بأية -يعني هذا يحتجُّ بأية ويقول هذه الآية ترد عليك- والآخر ينزع بأية -أي يقول الآية ترد عليك- فكأنَّ المستمعين لهم يظنون أنَّ القرآن يُعارضُ بعضُ بعضًا. يقول: خرجَ رسولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- على أصحابِهِ وهُم يختصمون في القدر فكأنَّما يُفَقُّ في وجهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الغَضَبِ فقال: «هَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ، تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضُهُ بَبَعْضٍ»^{٦٩}، وفي رواية: «وَأَنَّمَا نَزَلَ كِتَابُ اللَّهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا تَضْرِبُوا بَعْضُهُ بَعْضًا، مَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا، وَمَا لَا، فَكَلِّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»^{٧٠}، يعني فوضُّوا أمره إلى الله -عزَّ وجلَّ- أي: اسكتوا عن هذا وكلوه إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فالله هو العالم.

- فلهذا يجبُ عليك أن تتكلَّم بعلمٍ، ولا تتكلَّم بغيرِ علمٍ، ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86]، فلا تتكلَّف، وقل: الله أعلم، لا أدري، سنبحثُ في هذه الآية ونبحثُ في تفاسير العلماء

الموثوقة كتفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير الطبري، وتفسير البغوي، وهكذا من المعاصرين تفسير السَّعدي، نراجع تفسير الآية حتى نقفَ على المعنى الصَّحيح، ولا تتكلَّم بغيرِ علمٍ. فهذا -أيُّها الإخوة الكرام- التَّعليق على قوله (وَلَا تُجَادِلْ فِي الْقُرْآنِ).

{وَنَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، فَعَلَّمَهُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ، وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا نَكْفِرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ}.

- يقول: {وَنَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، أي أنَّ القرآنَ كلامُ ربِّ العالمين، قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: 193-195]، وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ

^{٦٩} سنن ابن ماجه (69)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

^{٧٠} مسند أحمد (6565). من حديث عمرو بن شعيب عن جده.

- * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿ [الحاقة: 44-47]، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 6]. والآيات في هذا المعنى كثيرة، فهذا الكتاب عزيز وهو كتاب مبين، وهو الحق، وهو القرآن ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: 87]، فالحمد لله على هذه النعمة العظيمة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: 17]، فهو كلام الله - عز وجل.
- وقال الله عن الكفار: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِّسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: 103]، فهذا الكلام كلام رب العالمين - سبحانه - تكلم الله به حقيقة، وهو منزل من عند الله - عز وجل - قال تعالى: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: 2]، وقال: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: 96]، وقال: ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: 42]، والآيات في هذا كثيرة، وكل هذا يدل على أنه منزل من عند الله - سبحانه - وتعالى - فالله هو الذي تكلم به، وسمعه جبريل - عليه السلام - وهو الروح الأمين لأنه مؤتمن، لا يُغَيَّرُ ولا يُبَدَّلُ ولا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ، ولا يُتَّهَمُ بالخيانة كما فعلت اليهود، فإنهم زعموا أن جبريل عدو لهم من الملائكة، وكذلك بعض غلاة الشيعة يقولون: كانت الرسالة لعلي بن أبي طالب ولكن جبريل خان وأعطاه محمدًا - صلى الله عليه وسلم - فكل هذا من التكذيب لله - عز وجل - لأن الله سمَّاه الروح الأمين، أما اليهود فجعلوه عدوًا لهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 97-98]، فمن عادى جبريل فقد عادى الله وعادى الرسل، ومن كان معاديًا وليًا من أولياء الله فإنه بارز الله بالمحاربة، قال الله - عز وجل - في الحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ»^{٧١}، فهذا جبريل وصفه الله - عز وجل - في سورة النجم بأنه شديد القوى، وفي سورة التكوين: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوين: 20 - 22]، فالرسول هنا هو جبريل، والقول هنا بمعنى التبليغ، ونُسب إليه لأنه تلقاه من الله - عز وجل - وبلغه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -
 - أما الآية التي في سورة الحاقة: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ [الحاقة: 19 - 20]، فالرسول هنا هو محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه - صلى الله عليه وسلم - قرأه على الناس وبلغه لهم، وإنما يُضَافُ القول حقيقة إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قاله مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا، فالمُبلِّغُ والمُؤدِّي رسول، والذي ابتدأه هو الله - سبحانه - وتعالى.
 - قال: ﴿ وَنَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، فيقولون: إن القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأن الله تكلم به حقيقة، ولا يجوز القول بأنه عبارة عن كلام الله، أو حكاية عنه؛ لأن هذا هو قول الأشاعرة والماتريدية، وهو قول باطل فاسد.
 - وكلام الله - سبحانه - وتعالى - من أعظم البراهين والحجج من عِدَّة أوجه:

^{٧١} صححه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (371/2)، وأصله في البخاري (6502) من حديث أبي هريرة "من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب"

□ **الأول:** قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَارْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^{٧٢}، وهذا الحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة، يعني أَنَّ القرآنَ أعظمُ آيةٍ وبرهانٍ أُعطيَه النبي -صلى الله عليه وسلم- ولهذا تحدَّى الله الكفارَ أن يأتوا بمثله، وتحذَّاهم أن يأتوا بعشر سورٍ منه، وتحذَّاهم أن يأتوا بسورة واحدة، وتحذَّاهم أن يأتوا بحديثٍ منه ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: 34]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: 13]، وقال: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]، ألفاظه، ومعانيه، ونظمه، وسياقه، وما فيه من الكفاية والهداية، وكونُ الله -عزَّ وجلَّ- تكفَّلَ بحفظه، وفيه التعريفُ بالله وبأسمائه وصفاته، وفيه بيان كمال الشريعة ومحاسنها، وفيه البراهين العقلية، وفيه الدلائل العظيمة، وفيه الهدى وفيه النور، وكما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَتَمَسَّكُوا بِكِتَابِ اللَّهِ»^{٧٣}، فهذا أوجه إعجاز القرآن، وعظمة القرآن، وعجز جميع الخلق من الجن والإنس أن يأتوا بمثله، فالقرآنُ نعمةٌ عظيمةٌ، ونعمةٌ كبرى، ونعمةٌ عظمت على الرسول -صلى الله عليه وسلم- وعلى الأمة الإسلامية كلها، فهو مِنَّةٌ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- على النبي -صلى الله عليه وسلم- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87]، فحينئذٍ يجبُ علينا أن نهتدي بالقرآن، وأن نُعَظِّمَ القرآن، ونؤمن بالقرآن، ونتمسك بالقرآن، ونعمل بالقرآن.

- ومن العمل بالقرآن والإيمان به: العمل بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- والإيمان بها ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31]، وأما من يقول: نأخذ بالقرآن ونترك السنة فهذا كافر، لأنَّه مكذِّب بما أمر الله به، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 4]، وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7].
- قال: (فَعَلَّمَهُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ)، لا يمكن أن يُماثل كلامُ الله -عزَّ وجلَّ- كلامَ المخلوقين، فكلامُ المخلوقين ناقصٌ مهما أوتوا من بلاغةٍ ومهما أوتوا من فصاحةٍ ففيه النقص وفيه الغلط، وفيه التناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

؟ قال: (وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ)، لأنَّ القولَ بخلق القرآن كفرٌ. ما معنى القول بخلق القرآن؟

يعني أَنَّ القرآنَ مخلوقٌ، وهذا يعني أَنَّ الله لم يتكلَّم ولا يتكلَّم، ولا أمر، ولا نهى، ولا شرع، بل معنى قولهم أَنَّ القرآنَ مخلوقٌ أَنَّ الله -عزَّ وجلَّ- لم يُرسلَ محمدًا، ولم يقلْ له "اقرأ"، ولم يبعثْ أحدًا من الأنبياء، ومعنى قوله "إن القرآن مخلوق" هو إبطالُ لجميعِ الشريعة، بل إبطالُ جميعِ الشرائع، وإبطالُ جميعِ الرِّسالات، والقولُ بخلق القرآن هو وصفُ الله بالعجز، ونفيُ لصفةِ الكلامِ لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وتعطيلُ للشريعة

^{٧٢} أخرجه البخاري (4981) واللفظ له، ومسلم (152)
^{٧٣} صحيح مسلم (2408)، واللفظ للبيهقي في سننه (159/7).

الإسلاميّة، ولهذا فإنّ السّلفَ أجمعوا على كفرٍ من قال بهذا القول، وأنّ القولَ بأنّ القرآنَ مخلوقٌ كفرٌ، ولهذا عذّب الإمامُ أحمد على هذا من قِبَلِ المعتزلة الضُّلالِ فَصَبَرَ-رحمة الله عليه.

وهذه المسألة قد بُسِطَتْ في المستوى الأوّل فيما يتعلّق بالدُّروس هنا عند قول الطّحاوي: **(أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ، وَلَا يُشَبِّهُ قَوْلَ الْبَشَرِ. وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ).**

• قال: **(وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ)**، هذه الجملة مهمّة جملة، «وَيَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ، فَمَنْ شَدَّ شَدًّا فِي النَّارِ»^{٧٤}، وقال-صلى الله عليه وسلم: «وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^{٧٥}، هم الجماعة، وقال -صلى الله عليه وسلم: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^{٧٦}، وفي حديث آخر «مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^{٧٧}، وهذا في البخاري ومسلم.

وهذا يدلُّ على أنّ الجماعة يُعَبَّرُ عنها بالجماعة مرّة، ويُعَبَّرُ عنها بالسُّلْطَانِ، لأنّ الجماعة المراد بها: الاجتماع على ولادة الأمر في غير معصية الله، في السَّمْع والطَّاعة لهم حتى تجتمع لهم.

والجماعة يُراد بها: الاجتماع على الحقِّ، وعلى السُّنَّةِ والعملِ بمقتضاها، فالخروجُ عن وليّ الأمر خروجٌ عن الجماعة، والخروجُ عن هدي النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- والصَّحَابَةِ خروجٌ عن الجماعة، فهذان الأمران متلازمان.

وصلّى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



^{٧٤} الأسماء والصفات للبيهقي (52/2) وصححه الألباني ف تخريج مشكاة المصابيح (171).

^{٧٥} مسند أحمد (21807).

^{٧٦} صحيح البخاري (6558).

^{٧٧} صحيح البخاري (7053).

الدرس السادس



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{(قال المصنّف-رحمه الله: (وَلَا نُكْفِرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ، وَلَا نَقُولَ لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ)).}

- يقول الطحاوي -رحمه الله: (وَلَا نُكْفِرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ) ، تقدّم أنّ المراد بأهل القبلّة: المسلمون لقول النبي -صلى الله عليه وسلم: «مَنْ صَلَّى صَلَاتِنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ»^{٧٨} ، فمن ثبت إسلامه فهذا له حرمة وله حقُّ علينا، لا يجوز أن نعتدي عليه لا في ماله ولا في عرضه ولا في دمه، ومن أعظم البغي ومن أعظم الاعتداء تكفيره بغير حق. وتكفيره: أي إخراجُه من ملّة الإسلام فنقول: هذا كافر، فتكفيرُ المسلم بغير حقٍّ ليس من منهج أهل السُنّة والجماعة، بل هو من منهج الخوارج والمعتزلة، فالخوارج يصرحون بتكفيره، والمعتزلة يصرحون بخروجه من الإيمان والإسلام، ويقولون: هو في منزلة بين المنزلتين. أمّا أهل السُنّة والجماعة فهم موافقون للكتاب والسُنّة، ومتبعون للنصوص الشرعيّة.
- يقول الطحاوي مُعَبِّرًا عن هذا المعنى: (وَلَا نُكْفِرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ) ، لأنّ المراد عنده- رحمه الله- الذُّنُوب التي دون الشِّرك الأكبر والكفر الأكبر، مثل: السرقة، وشرب الخمر، والزنا -نسأل الله العافية لنا ولكم وللمسلمين- فهذه الذُّنُوب من كبائر الإثم، ولكنها لا تخرجُ صاحبها من الدين، بل ينقصُ

^{٧٨} صحيح البخاري (381).

دينه، وينقص إيمانه، وينقص يقينه، ويكون بهذه الكبيرة فاسقًا، ناقص الإيمان، ناقص الإسلام، لكن لا يجوز أن نكفره وأن نخرجه من ملة الإسلام.

قال: (وَلَا نُكْفِرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ).

❓ لماذا لا نكفره بالذنب؟

لأن الذنب الذي هو دون الشرك كالسرقة، والزنا، والقتل، وشرب الخمر، وأكل مال اليتيم، ونحو ذلك من الموبقات؛ هذه الذنوب لا تخرج من ملة الإسلام، ولا يجوز أن يخرج الإنسان من الدين الإسلامي إلا بيقين، ولهذا فإن التكفير حق لله ولرسوله، ليس لأهوائنا ولا لرغباتنا، ولا لعواطفنا دخل في ذلك، وإنما يجب علينا أن نلتزم طريقة الكتاب والسنة، وطريقة أهل العلم الراسخين فيه من أئمة أهل السنة -رحمة الله عليهم- هذا هو المنهج الصحيح في مسائل التكفير.

❓ أمّا إذا كفرناه بغير حقٍ فماذا يحصل؟

يحصل مفسد عظيمة:

❖ أولاً: أن الكفر يعود على قائله، لما في الصحيحين من قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»^{٧٩}، يعني إذا لم يكن على ما ذكر ترجع الكلمة على المتكلم والمكفر -نسأل الله العافية والسلامة.

❓ هل معنى هذا أن الذي كفر أخاه بغير حق يكون أيضاً كافراً خارجاً من الملة؟

• نقول: هذا من باب الوعيد الشديد، وهذا الحديث من أحاديث الوعيد التي تبقى على وعيدها وترهيبها حتى يخاف المسلم من ذلك، فهذا من أسباب رجوع التكفير إليه.

❖ ثانياً: إذا كفر المسلم بغير حق، فهذا سيكون خصماً لك يوم القيامة، لأن قولك للشخص: يا كافر؛ أعظم من رميك له بالسرقة أو بالقتل، أو بالزنا، لأن الكفر أعظم الذنوب، فهو أعظم من الذنوب كلها، ولهذا أعظم البغي أن يخرج العبد من الدين وهو ليس كذلك، فهذا عدوان عظيم وإساءة بالغة لا نظير لها.

❖ ثالثاً: أن الإنسان إذا ركب هذا الأمر وكفر غيره بغير حق فقد سلك مسلك الخوارج، فالخوارج كفروا

المسلمين، وجعلوا الآيات التي نزلت في المشركين في المؤمنين، وأخرجوهم من الدين، وأول من فعل ذلك الخوارج الذين خرجوا في آخر عهد عثمان وتسببوا في مقتله، ثم خرجوا على علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم أجمعين.

• فهؤلاء الخوارج حكموا بالتكفير بغير حق، فالذي يكفر أحداً من أهل القبلة بغير حق يسلك مسلك الخوارج، وكفى بهذا خزيًا وعارًا وإثمًا وذنبًا، لأن الخوارج ورد فيهم الوعيد الشديد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ومنه قوله: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَةِ»^{٨٠} -نسأل الله العافية والسلامة.

^{٧٩} مسند أحمد (5750).

^{٨٠} صحيح البخاري (3117).

ومنها قوله: «يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْتَانِ»^{٨١}، ومنه قوله- صلى الله عليه وسلم- عنهم «هَؤُلَاءِ كِلَابُ النَّارِ»^{٨٢}، ومنها قوله- صلى الله عليه وسلم: «شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ»^{٨٣}، كلُّ هذا الوعيد الشَّدِيد فيمَن سَلَكَ هذا المَسْلَك.

❖ رابعاً: من أثار التَّكْفِيرِ بغيرِ حقٍّ: سفكُ دماءِ المسلمين، وإيجادُ الإحَنِ والعداواتِ والأحقادِ بينَ

المسلمين، والخروجُ على جماعةِ المسلمين وإمامهم، وغير ذلك من المفاصد العظيمة.

- ثم إنَّه إذا حُكِمَ على الشَّخصِ بأنَّه غيرُ مسلمٍ بانت منه زوجته، ومُنِعَ التَّوارثُ بينه وبين أقرابه المسلمين - أولادًا أو آباءً- وكذلك لا يُغَسَّلُ ولا يُكَفَّنُ، ولا يُصَلَّى عليه، ولا يُدْفَنُ في مقابر المسلمين، كل هذه الأحكام الخطيرة لا يجوزُ للمسلم أن يطلقها إلا بقينٍ مثل الشَّمْسِ، وهو أن يرجع إلى أهل العلم الراسخين فيه، ولا يستعجل ولا يتسرع كسفهاء الأحلام وحدثاء الأسنان، وليكن المسلم ثابتاً على السُّنَّة، ومتمسكاً بغرَزِ أهل العلم لا يخرج عن قولهم، ولا يتجرأ على التَّكْفِيرِ، فإذا تجرأ على الفتوى فقد تجرأ على النَّار، والفتوى قد تكون أسهل؛ فكيف إذا تجرأ على التَّكْفِيرِ؟! فلا مقارنة بين الفتوى بغيرِ علمٍ وبين التَّكْفِيرِ بغيرِ حقٍّ، لا شكَّ أنَّ التَّكْفِيرَ بغيرِ حقٍّ أخطر بكثير.
- فكلُّ هذه الأمور تُوجبُ على المسلم الحذرَ ثمَّ الحذرَ ثمَّ الحذرَ، والتَّثَبُّتُ والتَّيُّ، قال الله -عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ﴾ [النساء: 94]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6].
- وانظر إلى ما حصلَ لما سَلَكَ كثيرٌ من الشُّبابِ مَسْلَكَ الخوارج، وتَّبِعُوا دعاةَ شرٍّ ودعاةَ سوءٍ ممَّن ركب موجةَ التَّكْفِيرِ بغيرِ حقٍّ، ماذا حصلَ في بلدانِ المسلمين من الجماعات الضَّالَّةِ والتنظيماتِ الخبيثةِ الإرهابيةِ، ماذا حدث؟ صاروا يقتلون أهلَ الإسلام، ويُفجِّرون في الأسواقِ، والمساجِدَ، والطُّرقاتِ، ويترصدون للنَّاسِ في بيوتهم، أو في مساجدهم، أو في أسواقهم، ويغتالون، ويقتلون رجالَ الأمنِ، ويقتلون المواطنينَ، ويقتلون المعاهدينَ، كلُّ هذا بسببِ الغلوِّ في التَّكْفِيرِ بغيرِ حقٍّ، وسلوكِ هذا المسلكِ الخبيث -نسأل الله العافية والسلامة.
- ❓ **فإن سألْتَ عن الدَّلِيلِ: لماذا الذَّنْبُ لا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ؟**
- فنقول: دلائلُ هذا لا تُحصَى، فدلَّ القرآنُ الكريمُ، ودلَّت السُّنَّةُ المطهَّرةُ، وإجماعُ المسلمين على أنَّ ارتكاب الذُّنوبِ التي دون الشُّركِ لا تُخرجُ مِنَ الْمِلَّةِ، ولا توجب التَّكْفِيرَ. فمن هذه النُّصوصِ الشرعيَّةِ:

^{٨١} صحيح البخاري (3117).

^{٨٢} مسند أحمد (21602).

^{٨٣} مسند أحمد (21625).

□ قول الله-عزَّ وجلَّ- في شأنِ القاتل، والقاتل ارتكب جريمة القتل، وهي من أكبر الكبائر بعد الشِّرك، قال الله في شأنه ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 178]، فأثبت الأخوة مع وجود القتل.

□ قول الله-عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9]، فسماهم "مؤمنين" وقد حصل بينهما اقتتال، وهذا دليل على أنَّ هذه الكبيرة لم تُخرجهم من وصف الإيمان، ثم قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10]، وهذا صريح في أنَّ المؤمن إذا ارتكب هذا الجرم أنَّه لا يُخرج من الإيمان، ولكن يكون معه إيمانٌ ضعيفٌ، وإيمانٌ ناقصٌ، بحسب حاله.

□ ما ورد من الوعيد في شأنِ السَّارق والزَّاني ونحوه، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: 38]، لو كان بمجرد السرقة كافراً لوجب استتابته أو قتله إن كان مرتدّاً، وهنا شرع الحد وهو قطع يد السَّارق، ولم يُشرع القتل ولا الاستتابة، لأنَّ السَّارق لم يخرج من الدِّين، فهذا صريح جداً.

□ قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2]، فهذا حدٌّ من حدود الله -عزَّ وجلَّ- يجب أن يُنفذَ فيمن استحقَّ ذلك، فينفذه وليُّ الأمر عن طريق القضاء الشرعي، ولكن هذا يدلُّ على أنَّه بمجرد الزنا لم يكفروا ولا يجوزُ تكفيره. والأمثلة على هذا كثيرة.

□ وأيضا القذف فيه حدٌّ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 4]، هذا دليل على أنَّهم لم يكفروا، ولهذا تنوعت العقوبات والحدود، فبعضها فيه الجلد مائة جلدة، وبعضها فيه الجلد ثمانين جلدة، وهذا يدلُّ على أنَّ هذه عقوباتٌ.

□ وجاء في السُّنة في صحيح البخاري ومسلم من حديث عباد بن الصَّامت -رضي الله عنه- وكان قد شهد العقبة، أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبَيِّنَتَيْنِ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَاقِبُهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ»، قَالَ: فَبَايَعْتُهُ عَلَى ذَلِكَ» ، وهذا الحديث في البخاري ومسلم والسُّنن، وهو من أصحِّ الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

الشَّاهد فيه: أنَّ مَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا لم يقل له: فليجدد إسلامه، أو يُسلم من جديد، أو قد ارتدَّ. وأيضا قال «وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ» ، أي إن لم يُعاقب ويُقام عليه الحد؛ فإنَّه إلى الله «إِنْ شَاءَ عَاقِبُهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ».

• وإن كان بمجرد ارتكاب هذه الذُّنوب التي دون الشِّرك يكفر كما صار مجالا للعفو، لأنَّ الله قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 116].

وهناك نصوص كثيرة جدًا في هذا المعنى كلها تدلُّ على أنَّه لا يجوز تكفير المسلم بالذنب، وأنَّ هذا منهج الغلاة من الخوارج والمعتزلة والوعيدية وأشباههم، فالواجب على أهل الإسلام الحذر من هذه المسالك الخبيثة.

• وهناك شبهة لهؤلاء الخوارج خاصَّة المعاصرين منهم، فلهم شبهة يشبهون بها على النَّاس، فبعضهم يقول: نحن لا نُكفِّر بالذنب، لكن تجده يُكفِّر بالذنب بحيلة أخرى، مثل أن يقول: إنَّ الدولة إذا حَمَت المعصية فهي كافرة، فجعل حماية المعصية كفرًا مخرجًا من الملة، فرجع إلى التَّكفير بالذنب، لكن احتال عليه، وهذه طريقتهم.

• وبعضهم يقول: الطَّائفة الممتنعة من إقامة شعيرة من الشَّعائر، أو الممتنعة بالإصرار على معصية؛ فهي كافرة، فيجعل الدِّول الإسلامية طوائف ممتنعة، وهؤلاء هم الشُّدَّاذ الذين يُشبهون قطاع الطُّرق، فيجعلون أنفسهم هم القادة وهم الأمة -بزعمهم- مع أنَّهم مختفون في السَّرَادِيْب، ومختفون عن أعين النَّاس.

على عهد أبي بكر الصديق كان هو الخليفة شاهرًا ظاهرًا، ما كان مختفيًا يدَّعي الخلافة ولا يأبه به أحد! فكان شاهرًا ظاهرًا له قوَّة، والسُّلطة لا تتمُّ إلا بهذا، والإمارة والولاية لا تتمُّ إلا بهذا، أمَّا الذين يختفون في المغارات، ويختفون الكهوف، ويختفون في البيوت؛ هؤلاء ليسوا قادة وليسوا أئمَّة، وليسوا ولادة أمرًا!

• فبعض الخوارج يحتالون ويجعلون الدِّول الإسلامية طوائف ممتنعة، ثم يقولون: إنَّ هذه الطَّوائف الممتنعة امتنعت عن تطبيق الأمر الفلاني، أو امتنعت بفعلها المحرَّم الفلاني، إذن يجب قتالها ومحاربتها، وإذا حاربنا وقتلتنا فهي كافرة مرتدة، فصاروا يُكفِّرون بالذنب بهذه الحيل التي يخدعون بها الصِّغار، ويخدعون بها من لا يعرف العلم.

وليعلم المسلم أنَّ هؤلاء الخوارج عندهم عبادة، وعندهم تدبُّن، وعندهم ابتهاج؛ فلم تنفعهم عبادتهم، ولم ينفعهم تدبُّنهم، ولا ابتهاجهم، ولا ذكرهم لله -عزَّ وجلَّ.

فهذا يدلُّك على أنَّ هؤلاء الخوارج بعضهم حافظ للقرآن، وبعضهم عارف بالأحاديث، ودارس العلم الشرعي؛ ولكن فُتِن -نسأل الله العافية والسَّلامة- فلا تغترَّ به يا مسلم ويا مسلمة، لا تغتروا بمن زلَّ وشدَّ عن جماعة المسلمين.

• والله -عزَّ وجلَّ- لما ذكر المشتبهات؛ لم يذكر إلا الرَّاَسخين في العلم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ

الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7]، هذا ما ينفع فيها مصلٍ ولا عابدٌ ولا صائمٌ ولا مُكثِرُ ذكرٍ؛ هذه المتشابهات لا ينفع فيها إلا الرَّاَسخُ في العلم، فقال الله عن المبتدعة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾، وقال عن الرَّاَسخين في العلم: ﴿وَالرَّاَسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، فكن معهم

وابحث عنهم، واسلك سبيل الرَّاَسخين في العلم.

• هذا تعليق على قوله: (وَلَا تُكْفِرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ) ، طبعًا ليس كلُّ ذنبٍ، فهناك ذنوبٌ عظيمة، وهي الشُّرك بالله -عزَّ وجلَّ- كما قال ابن مسعود -رضي الله عنه- للنبي -صلى الله عليه وسلم:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^{٨٤}، سَمَّاهُ ذَنْبًا، فمراد الطَّحَاوي الذُّنُوبُ التي هي دُونَ الشِّرْكِ، لكن هناك ذُنُوبٌ عَظِيمَةٌ كَالشِّرْكِ، والكُفْرِ، والإِلْحَادِ، والنِّفَاقِ الأَكْبَرِ؛ كُلُّ هَذِهِ مَخْرَجَةٌ مِنَ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ.

أَيْضًا هُنَاكَ أُمُورٌ إِذَا تَرَكَهَا كَفَرَ، كَتَرَكِ الصَّلَاةَ، ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»^{٨٥}.

والمعيار في التَّكْفِيرِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ يَكُونُ بِالْأَدَلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، لَيْسَ بِالْأَهْوَاءِ وَلَا بِمَا يَضَعُهُ النَّاسُ، حَتَّى لَوْ كَانَ كَلَامُ عَالِمٍ فَتَرَدُّهُ إِلَى النُّصُوصِ، وَنَرَدُّهُ إِلَى فَهْمِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ.

؟ بقي معنا قوله: (مَا لَمْ يَسْتَجِلَّهُ)، ما معنى الاستحلال؟

● **الاستحلال:** هو الاعتقاد أَنَّهُ حَالِلٌ، وَلَيْسَ مَعْنَى الاستحلال الإصرار على الذَّنْبِ، فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَصْرَعَ عَلَى الذَّنْبِ وَلَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى الذَّنْبِ؛ فَيُعْتَبَرُ مُسْلِمًا، لَكِنْ لَا يُخْرَجُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ إِصْرَارِهِ عَلَى الذَّنْبِ، صَحِيحٌ أَنَّهُ زَادَ إِثْمَهُ، وَلَكِنْ لَا يُخْرَجُ مِنَ الدِّينِ، فَالِإِصْرَارُ عَلَى الذَّنْبِ وَالتَّسَاهُلُ فِي ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ، وَالِاسْتِمْرَارُ لِلذُّنُوبِ، وَالرِّضَى بِالْمَعَاصِي وَالِاسْتِمْرَارُ عَلَيْهَا وَالْأَنْسُ بِهَا؛ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ الْإِيمَانِ بِشِدَّةٍ، لَكِنْ لَا يُخْرَجُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِهَذَا.

؟ ما هو الاستحلال؟

● أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ حَالِلٌ، وَيَتَكَلَّمُ بِذَلِكَ، فَيَقُولُ: الْخَمْرُ حَالِلٌ وَلَيْسَ حَرَامًا. يَقُولُ: الرِّبَا حَالِلٌ وَلَيْسَ حَرَامًا. يَقُولُ: الزِّنَا حَالِلٌ وَلَيْسَ حَرَامًا. أَوْ يَقُولُ: أَنَا لَا أَقْبَلُ تَحْرِيمَهُ حَتَّى لَوْ كَانَ حَرَامًا، هُوَ حَالِلٌ لِي؛ فَهَذَا مُسْتَجِلٌّ.

؟ ما حكم استحلال الذَّنْبِ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؟

● كُفْرٌ مُخْرَجٌ مِنَ الْمِلَّةِ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ.

؟ لماذا؟

● لِأَنَّهُ تَكْذِيبٌ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَلِسُنَّةِ رَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِأَنَّ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ نَأْخُذُهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَنْ رَدَّ حَكَمَ الْكِتَابِ وَحُكْمَ السُّنَّةِ فَقَدْ كَفَرَ. هَذَا هُوَ السَّبَبُ.

● نَرْجِعُ مَرَّةً ثَانِيَةً إِلَى الْخَوَارِجِ؛ فَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُ حِمَايَةَ الذَّنْبِ اسْتِحْلَالًا.

نَقُولُ: لَا، حِمَايَةُ الذَّنْبِ مَعْصِيَةٌ مَعَ الذَّنْبِ، يَعْنِي لَوْ أَنَّ وَاحِدًا أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ ذَنْبًا وَطَلَبَ مِنْ شَخْصٍ أَنْ يَحْرُسَهُ؛ فَهَذَا الْحَارِسُ يَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعَاوُنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2]، لَكِنْ لَا يَكُونُ كَافِرًا، إِذَا كَانَا يَعْتَقِدَانِ أَنَّهُ حَرَامٌ فَهَمَا عَاصِيَانِ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَلَيْسَا كَافِرَيْنِ.

فَهِنَا تَقَعُ تَلَبُّسَاتٌ مِنَ الْخَوَارِجِ، حَيْثُ يَجْعَلُونَ اسْتِحْلَالَ هُوَ حِمَايَةُ الذَّنْبِ، أَوْ إِصْرَارُ عَلَى الذَّنْبِ، أَوْ اسْتِمْرَارُهَا، فَنَقُولُ لَهُمْ: لَا، انْتَبِهُوا، وَنُبَيِّنُ لِإِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ لَا تَجُوزُ، نَحْنُ لَا نَهَانُ بِالذُّنُوبِ، لَكِنْ نُبَيِّنُ مَا هُوَ الضَّابِطُ فِي مَسْأَلَةِ التَّكْفِيرِ، لِأَنَّهَا مَسْأَلَةٌ خَطِيرَةٌ جَدًّا.

^{٨٤} صحيح البخاري (5569).

^{٨٥} مسند أحمد (22334).

- وبعضُ النَّاسِ يخلط بين الاستخفافِ والتَّهاونِ، فَالتَّهاونُ بالشَّيءِ لا يدلُّ على عدمِ قبولِ حُكْمِ الله -عزَّ وجلَّ- فبعضُ النَّاسِ عنده تهاونٌ في بعضِ الواجباتِ، وعنده تهاونٌ في المحرماتِ، فهذا ليس استحلالاً. فهذا معنى قوله: **(وَلَا تُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ)**، فهذا الأمرُ أمرٌ عظيم.
- أهلُ السُّنَّةِ والجماعة يُفَرِّقون بين التَّكْفِيرِ المطلقِ والتَّكْفِيرِ المعينِ.
- ❖ **التَّكْفِيرُ المطلقُ:** أن تُذكرَ المقالةُ الكفريَّةُ، بغضِّ النَّظَرِ عن قائلها. فيقال: مَنْ قالَ إِنَّ القرآنَ مخلوقٌ فهو كافرٌ، مَنْ قالَ أَنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- حالٌّ في كُلِّ الأُمُكِنَةِ ومختلِطٌ بالمخلوقاتِ فهو كافرٌ، مَنْ أنكرَ أسماءَ الله وصفاته فهو كافرٌ. هذا يُسمَّى التَّكْفِيرُ المطلقُ.
- ❖ **التَّكْفِيرُ المعينُ:** هو أن يُقالَ: فلان ابن فلان الذي قال كذا وكذا هو كافرٌ بعينه.
- ✓ **التَّكْفِيرُ المطلقُ** يُشترط فيه أن تكونَ المقالةُ كفرًا، ومناقضةً لكتابِ الله وسُنَّةِ رسوله، وموجبةً للتَّكْفِيرِ. هذا شرطٌ.
- ✓ **التَّكْفِيرُ المعينُ** يُشترط فيه أكثر من ذلك، فيُشترط فيه ما تقدَّم في التَّكْفِيرِ المطلقِ، ويُشترط ثبوت هذا بيقينٍ عن الشَّخصِ المعينِ، واجتماعِ شروطِ التَّكْفِيرِ، وانتفاءِ موانعِ التَّكْفِيرِ؛ حتى يصحَّ إطلاقُ التَّكْفِيرِ على المعينِ.
- وهناك مِنَ النَّاسِ مَنْ يكفر بعدَ إسلامه، قال تعالى عن المستهزئين بالدين: **﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾** [التوبة: 66]، لكن لا يُطلق هذا إلا بعدَ التَّثَبُّتِ والتَّيَيُّنِ، وهذا دلَّت عليه النُّصوصُ الشرعيَّةُ، ونذكرُ منها قولاً لنبيِّ -صلى الله عليه وسلم- في الرَّجُلِ الذي فقدَ ناقته وطعامه وشرابه في الصَّحراءِ، فلمَّا نامَ واستيقظَ ووجدها فوقَ رأسه، فشكر الله، ورفعَ يديه يدعوربه وقال: **«اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»**^{٨٦}، فالقول هذا كفرٌ، فقالَ اللهُ تعالى "أنت عبدي"؛ ولكنَّه لم يُكْفَرْ لأنَّه مخطئٌ، والله تعالى يقول: **﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾** [البقرة: 286]، فالخطأُ مانعٌ من موانعِ التَّكْفِيرِ، وهذا دليلٌ على التَّفريقِ بين التَّكْفِيرِ المطلقِ والتَّكْفِيرِ المعينِ.
- فنقول: مَنْ قالَ اللهُ رَبِّ العالمين "أنت عبدي" هذا بإجماعِ المسلمين أنَّه كافرٌ، فالمقولةُ كفرٌ، والشَّخصُ كافرٌ، ولكن لما جئنا نطبِّقُ على المعينِ وجدنا أنَّ بعضَ الناسِ قالها عن خطأ كما في الحديثِ، فهو يريد أن يقولَ "اللهم أنت ربي وأنا عبدك" فأخطأ وسبقَ لسانه، فهذا غيرُ مؤاخذٍ، وهذا دليلٌ على صحَّةِ القاعدة.
- ومثَلُ قولِ الرَّجُلِ الذي أسرفَ على نفسه بالذنوبِ، فقالَ لأبنائه: **«كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، قَالَ: لِبَنِيهِ إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ ذَرُونِي فِي الرِّيحِ فَوَاللَّهِ لَنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لِيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فَعِلَ بِهِ ذَلِكَ فَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ، فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكَ مِنْهُ فَفَعَلَتْ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ خَشِيتُكَ فَغَفَرْتَهُ، وَقَالَ غَيْرُهُ مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ»**^{٨٧}.

^{٨٦} صحيح مسلم (4938).

^{٨٧} صحيح البخاري (4957).

مع أَنَّهُ شَكَّ في قدرة الله، والشَّكُّ في قدرة الله كفرٌ. فالذي يقول: إِنَّ الله لا يقدرُ عليّ؛ فهذا كافر. فالمقولة كفرٌ، ولكن هذا الشَّخص لجهله وشدة مخافته لله -عزَّ وجلَّ- دُرء عنه هذا الحكم.

- وحديث حاطب -رضي الله عنه- لما أُرسل رسالة لمشركي قريش يخبرهم بمسير النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- فهذا الفعل جريمة، ولكن هذه الجريمة تحتاج استفسار، قال له النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم: «**ما حملك على هذا؟**»، فدَكَرَ له عذرًا أَنَّ له أهل ويخاف عليهم، فدُرء عنه حكم الكفر، ولأنَّه لو كانَ هذا عن رضى وموافقة لهم على الدِّين لكان موجبًا لكفره، فهذا يدلُّ على التَّفريق بين التَّكفير المَعين، والتَّكفير المطلق.
- هناك موانع للتَّكفير، وهي: الخطأ، والنَّسيان، والإكراه، والجهل، والتَّأويل، والعجز؛ هذه ستَّة.

• فيجب على المسلم أن يحذر من التَّسرع في تكفير المسلمين بغير حقٍّ، وأن يتورَّع، وأن يلزم طريقة العلماء، خصوصًا في الأمور المشكَّلة، فأهل العلم والفتيا والقضاء هم المرء للباس، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83]، هذا معنى قوله (وَلَا نُكْفِرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ).

؟ لو استحلَّ ما اختلف فيه العلماء، كأن قال بعضهم هذا حلال، وبعضهم قال هذا حرام. هل يكفر؟

- الجواب: لا. فهناك بعض الأشياء اختلف العلماء فيها، فبعض العلماء يقول: هذا الشَّيء حرام للدَّليل الفلاني، وبعضهم يقول: هذا الشَّيء حلال، وهناك خلافات كثيرة بين الفقهاء، فمثلاً: ربا الفضل، وشرب التَّبَيِّذ، وإن كان الخلاف ضعيفاً والصَّواب هو تحريم ربا الفضل، لكن بعض النَّاس يوافق القول هذا عن اجتهادٍ وليس عن هوى؛ فهل بهذا يكون قد استحلَّ محرماً؟ لا.
- ولهذا بعض العلماء يقول: "مَن استحلَّ محرماً معلوماً من الدِّين بالضرَّورة"، أو نحو ذلك من العبارات حتى يُخرج المسائل التي جرى فيها الخلاف.

- قال: (وَلَا نَقُولُ لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِّمَنْ عَمِلَهُ) لأنَّ هذه مقولة المُرَجَّة.
- الفقرة السَّابقة كنَّا نردُّ عن الخَوارج، وفي هذه الفقرة نردُّ على المُرَجَّة بهذه الجملة.
- قال: (وَلَا نَقُولُ لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِّمَنْ عَمِلَهُ)، لأنَّ المُرَجَّة عندهم أَنَّ الإيمان هو التَّصديق، فإن صدَّق بقوله حتى لو وقعت منه الذُّنوب، فإنَّ التَّصديق لا يتزعج ما دام أَنَّهُ صدَّق بالله، وصدَّق بالرَّسول -صلى الله عليه وسلم- وصدَّق باليوم الآخر، فلو ارتكب الذُّنوب لا يضرُّه ذلك. وهذا كلامٌ باطلٌ من عدة أوجه:

□ **أولاً:** أَنَّ الْإِيمَانَ ليسَ تصديقاً فقط، الإيمان هو: التصديق بالقلب، والعمل بالجوارح، والقول

باللسان. هكذا دلَّ القرآن، ودلَّت السُّنَّة المطهَّرة، وأجمع المسلمون مِنَ الصَّحابة والتَّابعين على هذا، فَمَن قالَ غير ذلك فقد سَلَكَ خلافَ سبيل المؤمنين.

- **ثانياً:** دلَّت النُّصوصُ الشَّرعية والأحاديثُ على أَنَّ مَن ارتكب الذُّنوبَ فهو على خطرٍ. كيف تقول "لا يضر" وهو على خطر؟

مثال ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10]، كيف تقول للمسلمين لا يضرهم هذا؟ فهذا كلامٌ باطل مضادٌّ للقرآن، ومضادٌّ للسُّنَّة، والأحاديثُ كثيرةٌ

جدًا، والنُّصوصُ كثيرةٌ في هذا المعنى، كلُّ أحاديثِ الوعيدِ التي وردت تدلُّ على هذا، فهذه مقولة المُرَجَّة، فيقولون: لا يضرُّ مع الإيمان ذنب لمن عمله.

وهذه ضلالة عظيمة، حتى أنَّ بعضهم يقول للنَّاس: إيماني مثل إيمان جبريل، ومثل إيمان محمد-صلى الله عليه وسلم!

- فهذا كلام بشع جدًّا ولا يرضى أن يقوله مسلم، لكن هكذا البدع تفعل بأصحابها، ومع الأسفِ مضمونُ هذا الكلام موجودٌ في مقالات المتكلمين من الأشاعرة ومن الماتريدية، لأنَّهم يجعلون الإيمان هو التَّصديق، فلهذا يقولون: التَّصديق لا يتزحج ولا يتضرَّر، ولو نقص التَّصديق -بزعمهم- لوقع في الشكِّ والكفر، فبقي التَّصديق إذن حتى لو فعل الذُّنوب فلا تضرُّه.

وكلامهم باطلٌ، وخطر جدًّا، والنَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «لَا يَزْنِي الرَّأْيِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمَرُ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^{٨٨}، والنُّصوص في هذا المعنى كثيرة، فنحذر من ضلالة الخوارج كما نحذر من ضلالة المُرَجَّة.

{وَنَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ وَيُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، وَلَا نَأْمَنُ عَلَيْهِمْ، وَلَا نَشْهَدُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَنَسْتَغْفِرُ لِمُسِيئِهِمْ، وَنَخَافُ عَلَيْهِمْ، وَلَا نَقْنِطُهُمْ}{.}

- هذه الجملة تُبيِّن لنا الموقف من أهل الإسلام، أهل الإسلام على درجاتٍ متفاوتة كما قال الله -عزَّ وجلَّ- في سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ [فاطر: 32]، ثلاث درجات:
 - ✓ السَّابِقُونَ بِالْخَيْرَاتِ: هم أعلى، وهم المحسنون.
 - ✓ الْمُقْتَصِدُونَ: هم المتوسطون.
 - ✓ الظَّالِمُونَ لَأَنْفُسِهِمْ: هم الذين وقعوا في الذُّنوب.

؟ فما هو موقفنا تجاههم؟

- قال: (وَنَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ)، يعني إذا ماتوا نرجو لهم الخير، (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ وَيُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ).
- قال: (وَلَا نَأْمَنُ عَلَيْهِمْ) لأننا لنا الظَّاهِر والله ويتولَّى السَّرَّاءِ، لا نعلم ما في القلوب، فلا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب -سبحانه وتعالى.
- (وَلَا نَشْهَدُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ)، إلا مَنْ شَهِدَ له الكتابُ ورسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- لأنَّ الشهادة لمعين أنَّه في الجنة أو في النَّار هذا أمرٌ لا يجوزُ إلا بما تجوز به الشهادة، والشَّهادة كما في الحديث «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الشَّهَادَةِ، فَقَالَ: "هَلْ تَرَى الشَّمْسَ؟ عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ أَوْ دَعُ"^{٨٩}، فما دليلك أنَّ هذا في الجنة أو أنَّ هذا في النَّار؟

^{٨٨} صحيح البخاري (6302).

^{٨٩} رواه ابن حزم في المحلى (9: 434)، وابن الملقن في البدر المنير (9: 617)، وضعفه ابن عثيمين في شرح بلوغ المرام (6: 188).

- إن لم يكن عندك دليل فقل: "نرجوا"، وما نقطع لهذا أنه لما مات أنه في الجنة، إلا من شهد له الكتاب والسنة، مثل الصحابة ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18]، ونحو ذلك، ومثل قوله -صلى الله عليه وسلم: «أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ...»^{٩٠}، إلى آخر العشرة، ومنهم ثابت بن قيس، أبو هريرة، عبد الله بن عمر، وأزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- عائشة وخديجة، وبقية أمهات المؤمنين، وهكذا الحسن والحسين «سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^{٩١}، وفاطمة، وهكذا...، فمن شهد له الرسول -صلى الله عليه وسلم- نشهد له، أما من لم يرد فرجوا له، نرجوا للمحسن ونخاف على المسيء، لا نقطع لهم بجنة ولا بنار، فإذا مات واحد من أهل الخير والتقوى والصلاح وأهل العلم فإتينا ندعوا له، ونستغفر له، وترحم عليه، ونرجوا له الجنة، لكن ما نقول أنه الآن في الجنة، ما نعلم هذا، لأن هذا من أمور الغيب، فلا نشهد إلا بما تجوز به الشهادة.

؟ قال: (وَنَسْتَغْفِرُ لِمُسِيئِهِمْ)، لماذا؟

- لأنه أخونا في الإسلام، فالمسيء منهم لازالت بيننا وبينه أخوة الإسلام والدين، ألم يقل في القاتل: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: 178]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، ولهذا نقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: 10]، فمن حقه علينا أن ندعوا له، قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19]
- (وَلَا تُقَيِّطْهُمْ)، لا نُقَيِّطُ أَحَدًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، لا نقول: أنك قانط من رحمة الله، ولا يمكن أن يرحمك الله. هذا لا يجوز.

ولهذا جاء من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِينِي وَرَبِّي أَبْعَثْ عَلَيَّ رَقِيبًا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ.»

؟ ماذا صنعت هذه الكلمة في صاحب العبادَةِ والمجتهدِ فيها؟

- قال: «فَقَبِضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا، وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَأَدْخِلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ»^{٩٢}. قال أبو هريرة -رضي الله عنه: "قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته".
- ولهذا فالمذنبون لا نُقَيِّطُهُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، انظر للبغي التي سقت كلبًا فشكر الله لها فأدخلها الجنة^{٩٣}، فالمقصود أن هذا المذنب حصل في قلبه لما أهانه هذا الرجل واستحققه، وقال: لا يغفر الله لك، وأنت كذا وأنت كذا...، فحصل في قلبه استكانة وضعف بين يدي الله -عز وجل- فأوجب له أن يغفر له، وذاك حصل في قلبه

^{٩٠} مسند أحمد (1608).

^{٩١} مسند أحمد (11565).

^{٩٢} سنن أبي داود (4257)، وصححه الألباني.

^{٩٣} جاء عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «غُفِرَ لِمَرْأَةٍ مُوسِمَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يُلْهَثُ، قَالَ: كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ فَفَزَعَتْ حُفَهَا فَأَوْتَقَتْهُ بِخِمَارِهَا فَفَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ فُغِرَ لَهَا بِذَلِكَ» صحيح البخاري (3094).

استكباراً بسبب عبادته ورؤيته لنفسه، فصَارَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فانتبهوا -نسأل الله أن يحفظنا وأن يحفظ
 ألسنتنا- فالرَّجُلُ «لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^{٩٤}، وهذا هو الموضوع،
 فهو عندما يرى المذنبين وأهل المعاصي فيقول: هذا في النَّارِ، ويقول: أنتم لا يَغْفِرُ اللَّهُ لكم. فلا يجوزُ هذا
 الكلام؛ بل ادْعُ لهم أن يَهْدِيَهُمْ، وانصَحِهِمْ، وأنكر عليهم، لكن لا تَحْكَمْ عليهم بأنهم لا يُغْفَرُ لهم، فهذا غلطٌ
 عظيمٌ جدًّا، فما داموا مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَمِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِيرَجَى لهم أَنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يُوَفِّقَهُم للتَّوْبَةِ،
 ولعلَّهم يندَمون، وهذا في الحياة، أمَّا إِذَا مَاتُوا عَلَى الذُّنُوبِ وَلَمْ يَتُوبُوا مِنْهَا فنَخَافُ عليهم، ولكن لا نُقَيِّطُهُمْ،
 ولا نقطعُ لهم بنار. هذا ما يتعلَّقُ بهذه الجملة.

• قال المؤلف: **(وَالْأَمْنُ وَالْإِيَّاسُ يَنْقَلَانِ عَنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ، وَسَبِيلُ الْحَقِّ بَيْنَهُمَا لِأَهْلِ الْقِبْلَةِ)** ، هذه المسألة
 العظيمة مِنْ أَصُولِ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وهي الجمع بين الخوفِ والرَّجَاءِ، **لأنَّ أَصُولَ الْعِبَادَةِ ثَلَاثَةٌ: حُبٌّ،**
وَخَوْفٌ، وَرَجَاءٌ.

• فالله -سبحانه وتعالى- الذي تعبده تُحِبُّهُ وترجوه وتخاف منه، وهذا مذكور في قوله تعالى في سورة الفاتحة
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.
 فقول: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** فيه إشارة للحبِّ، لأنَّك تُحِبُّهُ لمحامدِهِ، ولإِحْسَانِهِ الْعَظِيمِ، فهذا موجبٌ
 لمحَبَّتِهِ.

قولك: **﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**، فيه الرَّجَاءُ، فترجو رحمته.

وقولك: **﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾**، فيه الخوف، فتخاف مِنْ عِقَابِهِ، وتخافُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ ذُنُوبِكَ.
 فأصولُ الْعِبَادَةِ: الْحُبُّ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ. فلا بدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ.

أَمَّا الْأَمْنُ وَالْإِيَّاسُ فهما ضِدَّانِ لِلْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَمَنْ خَافَ لَا يِيَّاسُ، وَمَنْ رَجَا لَا يَأْمَنُ. كيف؟

• مَنْ خَافَ مِنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- لَا يُقَيِّطُ نَفْسَهُ ويقول: أنا في النَّارِ، ولن يَغْفِرَ اللَّهُ لي، لأنَّ ذُنُوبِي كَثِيرَةٌ. اللَّهُ -عَزَّ
 وَجَلَّ- قال: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ**

جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]، ومغفرة الذنوب جميعاً ليس معناه أن تذهب لأصحاب القبور،
 أو إلى وليٍّ، أو إلى شيخٍ طريفةٍ، أو بعض النَّاسِ الَّذِينَ يَغْتَرُّونَ بِالتَّنْظِيمَاتِ الضَّالَّةِ فيأتي ويقول: تعالَ معي
 نُقَاتِلَ تحتَ رَايَاتٍ جَاهِلِيَّةٍ حَتَّى تُكْفَرَ ذُنُوبُكَ! لا، إِذَا دَعَاكَ اللَّهُ، وَصَدَّقْتَ فِي التَّوْبَةِ، وَأَقْلَعْتَ عَنِ الذُّنُوبِ
 وَنَدِمْتَ عَلَيْهَا؛ سَيَغْفِرُكَ اللَّهُ.

هذه شروطُ التَّوْبَةِ:

(١) الإقلاع عن الذَّنْبِ.

(٢) العزم على ألا تعود.

(٣) التَّدَمُّعُ على ما فات منك.

^{٩٤} صحيح البخاري (6024).

بهذا يغفر الله لك، ما تحتاج أن تتكَلَّف، فرحمةُ الله واسعةٌ، وفضلُ الله عظيمٌ، فأحسِن الظَّنَّ بالله. هذا موضوعُ الخوف، وضده الإياس، فإذا خفتَ من الله فلا تيأس.

• وإذا رجوتَ الله، ورجوتَ الجنةَ، ورجوتَ أن الله يرحمَكَ؛ فلا تأمنَ مَكَرَ الله، فلا تقل: سيُغفر لي، قطعاً أنا في الجنة ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99]، بل تخاف من أعمالك لأنَّ فيها تقصيرٌ ونقصٌ، قد لا تُقبل بسببِ تقصيرك وإساءتك.

أيضاً قد يأتِيكَ الشَّيْطَانُ فتغترَّبَ بعمَلِكَ وتزهو، وتمنُّ على الله بعمَلِكَ، وهذا أيضاً من أسبابِ ردِّ العملِ. ثالثاً: قد يُقَلِّبُ الله قلبَكَ فتقلبَ على عقبيكَ، فلهذا كانَ أكثرُ دعاءِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^{٩٥}، فالأسبابُ كثيرةٌ، والواحدُ يسألُ رَبَّهُ الثَّباتَ.

؟ كيف يكون تعامله في الأمن والإياس؟

• بأن يخافَ ويرجو، فلا يأمنَ مَكَرَ الله، ولا يقنُطَ من رحمةِ الله، فيجمع بين الخوفِ والرَّجاءِ، ولهذا قال العلماء: "الخوفُ والرَّجاءُ للمؤمن كجناحِ الطَّائِرِ، إذا استويتا تمَّ الطَّيْرَانُ، وإذا ضعُفَ أحدهما ضعُفَ الطَّيْرَانُ جدًّا، وإذا ذهبَا سقطَ الطَّائِرُ"؛ وهكذا المؤمنُ في مسيرته إلى رَبِّه يخافُ من الله ويرجو رحمته، ولهذا وَصَفَ اللهُ الأنبياءَ والأولياءَ والصَّالحينَ بهذا ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: 90]، فهذا مدح لهم، وهكذا في سورة الزمر ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 9]، فجَمَعَ بين الخوفِ والرَّجاءِ، وفي سورة الإسراء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: 57]، وهذا كثير في القرآن.

• أما مَنْ يقول: إِنَّ هذه مقامات ضعيفة، ويكفي الحب لله؛ فهذا كلام الصُّوفِيَةِ الضُّلَّالِ، وهذا كلامٌ فاسدٌ، وطعنٌ على الأنبياءِ، وإتهامٌ لهم بالنقص، وهذا طعنٌ في كتابِ الله، ولهذا قال بعضُ العلماء: "مَنْ عبد الله بالحبِّ وحده فهو زنديقٌ"، يشير إلى هؤلاء الذي يتنقَّصون أنبياءَ الله، ويتنقَّصون المؤمنين من الصَّحَابَةِ وَمِنَ التَّابِعِينَ لهم بإحسانٍ.

• ولهذا قال هنا: (وَالْأَمْنُ وَالْإِيَّاسُ يَنْقُلَانِ عَنِ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ)، يعني إذا قلت: أنا آمن لا يمكن أن أدخل النَّارَ، أنا متأكدٌ أنني في الجنةَ...، كيف ذلك؟!

والعكس هو الإياس، أن تقول: أنا لن يُغفر لي. هذا كُلُّهُ ينقلُكَ عن مِلَّةِ الْإِسْلَامِ.

• قال: (وَسَبِيلُ الْحَقِّ بَيْنَهُمَا لِأَهْلِ الْقِبْلَةِ).

؟ مَنْ هُم أَهْلُ الْقِبْلَةِ؟

• هم أهل الإسلام.

؟ ما هو سبيل الحق؟

• الجمع بين الخوف والرجاء.

^{٩٥} رواه البخاري في الأدب المفرد (681).

{وَلَا يَخْرُجُ الْعَبْدُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِجُحُودٍ مَا أَدْخَلَهُ فِيهِ}.

• قوله: (وَلَا يَخْرُجُ الْعَبْدُ مِنَ الْإِيمَانِ).

متى يخرج العبد من الإيمان؟

• إذا وقع في المكفرات المخرجة من ملة الإسلام، لكن المؤلف قصرها على واحدٍ من هذه المكفرات، وهو الجحود -أي التّكذيب.

وهناك فرقٌ لطيفٌ بين الجحود والتّكذيب:

✓ **الجحود:** أن يجحدَ حتى لو لم يعتقِدْ كذبه، فيردُّ الحقَّ، ويردُّ كلام الله، ويردُّ الرّسالة، حتى لو علِمَ أنّه حقٌّ. فهذا جاحِدٌ.

✓ **التّكذيب:** أن يقول: هو كذاب.

• والحقيقة أنّ هذه الجملة (وَلَا يَخْرُجُ الْعَبْدُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِجُحُودٍ مَا أَدْخَلَهُ فِيهِ) قصّر المؤلف التّكفير على مسألة الجحود، ولكن هناك موجباتٌ تكفيرٍ أخرى غير الجحود، مثل الشكّ في الدّين، الشكّ في اليوم الآخر، والشكّ في الله، وهذا مذكور أيضًا في القرآن في سورة الكهف، وكذلك الاستكبار والإباء عن الطاعة وعن الإسلام، وكذلك الإعراض، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ [النحل: 2]، وكذلك لو سبَّ الله ورسوله حتى لو قال: الدّين حقٌّ، وأنا لا أجد شيئاً، وأن مقرّ؛ وأخذ يسبُّ الله ورسوله، فهذا يعتبر خارجاً من الإيمان ومن الإسلام.

وأيضاً الاستهزاء بالدّين، وأيضاً لو قال: إنّ أحداً من النّاس يسعه الخروج عن شريعة النّبّي -صلى الله عليه وسلم- أو دعا غير الله، واستغاث بالأموال وذبح لهم، وطاف بأضرحتهم، وتقرب إليهم بالذّبح والنذر؛ فهذا مخرجٌ عن ملة الإسلام كما دلّت على ذلك الأحاديث والآيات، وكذلك لو ترك الصّلاة، فالنّبّي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنّ تارك الصّلاة كافرٌ.

• لهذا قوله -رحمه الله- هنا (وَلَا يَخْرُجُ الْعَبْدُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِجُحُودٍ مَا أَدْخَلَهُ فِيهِ) ، اعتبر أنّ الجحود واحدٌ فقط، والمؤاخذه هنا واضحة، والمؤلف -رحمه الله- وافق مرجئة الفقهاء، المرجئة يقولون: الإيمان هو التّصديق، وضدّ التّصديق التّكذيب والجحود، فلا يكون الكفر إلا بالجحود؛ بناءً على مذهبهم في مسألة الإيمان.

وهذا غلطٌ ، فنواقض الإسلام كثيرة -نسأل الله أن يثبتنا على الإسلام- وكتب الفقهاء في المذاهب الأربعة نصّت على هذه النّواقض، فهي ليست مقصورةً على الجحود أو التّكذيب، فهناك نواقض تكون بالأعمال، كالسُّجود للصّنم، ووطئ المصحف، والاستهزاء بالقول أو بالفعل، فهناك نواقض بالعمل، ونواقض بالقول، ونواقض بالاعتقاد، فها مقلّب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

• والمؤمن يحافظ على إيمانه من أي ناقضٍ، وحتى من أي نقصٍ، ويحرص على الإيمان والثبات عليه، ويحرص على أسباب زيادته، ويبتعد عن أسباب نقصانه، فما بالك بالأمور التي تنقض الإيمان! فيجب أن يحذر منها أشدّ الحذر، وهذا لا يتأتّى إلا بالعلم النافع، والعمل الصالح.

وصلّى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس السابع



الحمد لله رب العالمين، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{قال أبو جعفر الوراق الطحاوي -رحمه الله تعالى: (وَالْإِيمَانُ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصَدِيقُ بِالْجَنَانِ. وَجَمِيعُ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ كُلُّهُ حَقٌّ).}

- هنا يقول الطحاوي -رحمه الله: (وَالْإِيمَانُ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصَدِيقُ بِالْجَنَانِ) ، هذا هو تعريف الإيمان عِنْدَ الْمُرْجئة وليس عند أهل السُّنَّة والجماعة، ولهذا فَإِنَّ هذا القول مُخَالَفٌ لِلْحَقِّ ومُخَالَفٌ لِمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أهل السُّنَّة والجماعة، فأهل السُّنَّة والجماعة أَجْمَعُوا وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الإيمان قولٌ واعتقادٌ وعملٌ، حكى هذا الإجماع الإمام البخاري محمد بن إسماعيل، وأيضاً ذكر اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة إجماعات أهل العلم، كسفيان بن عيينة، والبخاري، وإسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل؛ وغيرهم من أئمة أهل السُّنَّة وأئمة أهل الحديث على أَنَّ الإيمان: قولٌ واعتقادٌ وعملٌ.
- وأغلب عبارات السلف يقولون فيها: "قول وعمل"؛ لِأَنَّ الاعتقاد أمرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، فيذكرون ما حصل فيه الْإِزَاع؛ لِأَنَّ الْمُرْجئة يُخْرِجونَ العملَ من الإيمان.

لماذا سُمُّوا مُرْجئة؟



- من الإرجاء، وهو: التأخير. والمراد: إخراج العمل عن الإيمان؛ فهم قد أخرجوا العملَ عن الإيمان. وهذا مُخَالَفٌ لِلآيَاتِ، ومُخَالَفٌ لِلأَحَادِيثِ، ومُخَالَفٌ لِمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ سلفُ الأئمة، ولهذا فالطحاوي -عفا الله عنه- في هذه المسألة لم يَقُلْ بقول أهل السُّنَّة، وإنَّما قالَ بقولِ الْمُرْجئة، ولكن يُمكن أن يُقالَ عنهم: إنَّهم مُرْجئة

الفقهاء؛ لأنَّه له عبارات أخرى- كما في ذكره الصحابة قال عنهم: "حبُّهم دينٌ وإيمان وإحسان"، والحب عمل، فذكرَ العمل وسمَّاهُ إيمانًا، فهذا أحسنُّ حالًا من المرجئة الخُلص، فهو -رحمه الله- عالمٌ وله جُهودٌ طيِّبةٌ، وهذه عقيدةٌ مباركةٌ، لكن يوجد بعض الأشياء اليسيرة التي أخذت عليه، ومنها هذه المسألة.

● فالصواب والواجب على جميع أهل الإسلام أن يقولوا بمثل ما نطق الكتاب العزيز والسنة المطهرة، واتفق عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وهو: أنَّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص.

● بعض السلف يقولون: قولٌ وعملٌ ونيَّةٌ، يعني: الإخلاص لله -عزَّ وجلَّ.

فالإيمان يتكوَّن من ثلاثة أمور:

◀ **الأول: الاعتقاد:** ويقصد به الأمور التي تكون في القلب من الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

والاعتقاد أوسع من التصديق؛ لأنَّ الاعتقاد هو الإيمان بالخبر الذي أخبر الله به، وأخبره به رسوله -صلى الله عليه وسلم- مع عقد القلب على ذلك والثبات عليه، وربط القلب عليه، فهذا أعظم من التصديق؛ لأنَّ الاعتقاد مأخوذٌ من "العقد" وهو الشدُّ على الشيء، فالتصديق هذا حقٌّ، لكن الثبات عليه وتأكيدُه هذا أعظم وأشمل وأوسع.

◀ **الثاني: القول باللسان،** شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وكلُّ ما أمر الله به أمرٌ إيجابٍ أو أمرٌ استحبابٍ فهو من الإيمان.

◀ **الثالث: العمل بالجوارح،** مثل: الصلاة، والزكاة، والصَّوم، والحجَّ، وغير ذلك من الأعمال، كبرِّ الوالدين، والإحسان إلى الجيران، وكفِّ الأذى، وحُسن الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والأعمال كثيرة ومذكورة في الكتاب والسنة، ومنها: إمطة الأذى عن الطريق، وهذا معنى قوله -صلى الله عليه وسلم-: «الإيمانُ بضْعٌ وسِتُّونَ، أو: بضْعٌ وسَبْعُونَ شُعْبَةً، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ»^{٩٦}، فقول: «لا إله إلا الله» هذا قول باللسان، وإمطة الأذى عن الطريق هذا عمل بالجوارح، والحياء عمل قلبي.

● فالدليل على أنَّ العمل من الإيمان خلافًا لقول المرجئة: كلام الله -عزَّ وجلَّ- وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

بعض الأدلَّة التي وردت في القرآن:

□ قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ: إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 143]، هذه

الآية الكريمة نزلت لما غيَّرت القبلة إلى الكعبة المشرفة، وكانوا من قبل يُصلُّون إلى بيت المقدس، فلمَّا غيَّرت القبلة سأل بعض الصَّحابة عن إخوانهم الذين ماتوا وهم يُصلُّون إلى بيت المقدس ولم يصلوا إلى الكعبة، فأنزل الله -عزَّ وجلَّ- هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾، يعني: صلاتكم إلى بيت المقدس، فسَمَّى الله -عزَّ وجلَّ- الصَّلَاةَ إيمانًا.

^{٩٦} البخاري ومسلم

□ وكذلك دلت النصوص الأخرى، مثل قوله -سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:3]، فجعل الله -عزَّ وجلَّ- الإيمانَ منه العمل الصَّالح ولهذا عطفه عليه، ليس عطفَ مغايرة، ولكنَّه عطفٌ من باب عطف الخاصِّ على العام، لأنَّه من أهمِّ أفرادِه.

□ وكذلك قال الله -عزَّ وجلَّ- في كتابه في أوامر كثيرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:77]، فناداهم الله باسم الإيمان، وجعل الأعمال من الإيمان.

□ وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:11]، فجعل هذه الأمور سبباً للأخوة في الدين، وهي: التَّوْبَةُ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فالدين والإيمان لا يكونا إلا بالعمل، أمَّا أن يقول: أنا أتكلَّم بلساني، وأعتقد بقلبي ولا أعمل شيئاً! فهذا ليس بمؤمنٍ ولا بمسلمٍ.

ولهذا قال العلماء: إنَّ قول المرجئة من أفسد الأقوال.

والمرجئة أصناف شتى:

- ★ **النوع الأول:** مَنْ يُخرج العمل، لكنَّه يُوجبُه ويُلزِمُ به، ويؤاخذ على مَنْ ترك الواجبات، أو فعل المحرمات. وهؤلاء يُسمَّون "مرجئة الفقهاء" ومنهم الطَّحاوي وجماعة كثيرون من أهل العلم غلَطُوا في اللفظ، وهذا لا شك أنَّه غلط خطير جدًّا فتح الباب وأورث الشُّبُهَة.
 - ★ **النوع الثاني:** عموم المرجئة الذين يُخرجون العمل من الإيمان، وبعضهم يقول: لا يضر إذا ترك الواجب، أو فعل المحرم ما دام مصدِّقاً بقلبه متكلِّماً بلسانه. وهؤلاء المرجئة المبتدعة المذمومون.
 - ★ **النوع الثالث:** مَنْ قال: حتى القول باللسان لا يُحتاج إليه، يكفي التَّصديق بالقلب . وهذا من الأقوال الشَّنيعة، ولهذا تلاحظون أنَّ الطحاوي قال فيما يُخرج من الإيمان: الجحود فقط، وذلك في المسألة السابقة، في الدرس الماضي، قال: (وَلَا يَخْرُجُ الْعَبْدُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِجَحُودٍ مَا أَدْخَلَهُ فِيهِ) ، فجعلَ مقابل التَّصديق: الجحود، ولهذا لم يجعل الأمور الأخرى داخلة في أسباب خروج العبد من الإيمان، وقد تقدَّم التعليق على هذا. فالمسألة مسألة عظيمة.
 - ★ **النوع الرابع:** غُلاة المرجئة الذين يقولون: يكفي المعرفة بالقلب، وهذا أشدُّ وأشنع، فعلى هذا القول يكون أهل الكتاب الذين قال الله -عزَّ وجلَّ- عنهم في شأن محمد -صلى الله عليه وسلم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:146]، فإذا عرفوه كما عرفوا أبناءهم؛ إذن هم على هذا المذهب، وأنَّهم مؤمنون، لأنَّهم عرفوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وعرفوا أنَّه حقٌّ.
- ولهذا أبو طالب عمُّ النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول:

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ محمدٍ *** من خير أديانِ البرِّيَّةِ دينًا
لولا الملامةُ أو حذارُ مَسَبَّةٍ *** لوجدتني سَمحاً بذاك مُبيناً

هو يعلم أنَّه خير الأديان. لكن هل هذا العلم يكفي؟

هل هذا العلم ينفعه؟

لم ينفعه؛ لأنَّه لم يتكلَّم بلسانه، ولم يعمل بجوارحه.

حتى إبليس يعرف أن الله ربُّه، ويعرف الحق؛ ولكنه عاندَ واستكبر، واليهود عاندوا واستكبروا؛ فهذا كله يُبيِّن لك فساد مذهب المرجئة وبطلانه.

- وهناك أيضًا قولٌ آخر أفسد من هذا وأظهر فسادًا، وهو قول طائفة الكرامية ، وهم أتباع محمد ابن كرام السجستاني، عنده أغلاط في العقيدة كثيرة، ومن ضمنها هذه المسألة، حيث زعم أن الإيمان هو قول اللسان فقط، ولا يحتاج إلى التصديق، ولا إلى العمل، فالمنافق عنده يُعدُّ مؤمنًا، وهذا أيضًا من الأقوال الفاسدة.
- هنا لما قال: (وَالْإِيمَانُ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ) ، نفهم منه أن هذا هو قول المرجئة، وأن هذا قول غلط، لابد أن نُضيف إلى "الإيمان" قولنا: "عمل بالجوارح"، ولا يجوز أن يُقال: إن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط، والتَّصديق بالجنان فقط، لابد من العمل، والنُّصوص في هذا كثيرة جدًا.
- ويمكن أن نستعرض ما ذكره العلماء في مسألة الإيمان، فالآيات الكثيرة مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضْيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: 143]، ﴿لَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِيمَانٌ وَزِينَةٌ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: 7].
- ولما نعلم أن الإيمان شُعَب، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «إِيمَانٌ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً»^{٩٧}، كلها من الإيمان، فكيف يُجعل هذا خارج الإيمان؟!
- والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^{٩٨}، ويقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ»، هذا عمل، «فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ»، هذا قول، «فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^{٩٩}، إذن التَّغيير باليد وباللسان ومن ذلك يُعتبر من الإيمان، وعلامة على قوة الإيمان. والأدلة حقيقة كثيرة، ولكن المؤلف أخطأ -رحمه الله- ونعذرله، والواجب على أهل العلم أن يعرفوا حق أهل العلم ويعتذروا لمن أخطأ منهم، ولكن يجب أن يرجعوا للحق.
- يقول البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه : "وَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ"^{١٠٠}، ثم أورد النصوص الشرعية على إثبات أنه قول وعمل، وأنه يزيد وينقص، ثم أورد عشرات النصوص من القرآن ومن أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم.
- قال: (وَجَمِيعُ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ كُلُّهُ حَقٌّ) ، هذا كلامٌ عظيم، وكلامٌ طيبٌ، فجميع ما صحَّ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الشَّرْع ومن البيان حقٌّ؛ لأنَّ المراد الرَّد على مَنْ زعمَ الاكتفاء بأخبار متواترة فقط، فبعض النَّاس جعل الاكتفاء بالأخبار المتواترة، أما أحاديث الآحاد فلا يقبلونها في العقائد، ولهذا ردَّ عليهم المصنف هنا وقال: (وَجَمِيعُ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ كُلُّهُ حَقٌّ) ، هذا هو الحقُّ.
- بعض المتكلمين من المبتدعة يقولون: إذا جاء الحديث وهو ليس بمتواتر ما نقبله في العقائد.

^{٩٧} تقدم تخريجه في (1)

^{٩٨} أخرجه أبو داود (4682)، والترمذي (1162)، وأحمد (527/2) وصححه الألباني في صحيح الجامع.

^{٩٩} أخرجه مسلم

^{١٠٠} صحيح البخاري كتاب الإيمان

- وهذا باطل، نعم الأحاديث الضعيفة في أسانيدھا التي حَكَمَ علیھا أهل المعرفة وأهل العلم والاختصاص من محدِّثین؛ هذه يُرجع في حكم الحديث إلیهم؛ لأنهم هم أهل الاختصاص والمعرفة بالرواة والأسانيد والعلل، وطرق الحديث، فإذا حكموا على الحديث بالضعف أو بأنَّه شديد الضعف، أو بأنَّه مكذوب؛ ففِعْمَل بقولهم، ولا يجوز الأخذ بالأحاديث الموضوعة ولا المكذوبة، ولا العمل بها ولا روايتها، ولا اعتقادها، ولكن **(مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)** كما قال الطحاوي: يجب العمل به وقبوله، وهذا مثل ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية: "فصل في سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فالسنة تُفسر القرآن وتبيِّنُه، وتدُلُّ عليه، وتعبِّر عنه، وما وصف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ربَّه -عزَّ وجلَّ- من الأحاديث الصَّحاح التي تلقَّاها أهل العلم بالقبول وجب الإيمان بها كذلك" يعني: مثل ما نؤمن بما ورد في القرآن، لكن القيد: "التي تلقَّاها أهل العلم بالقبول"، وهي التي صحَّت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولهذا حُفِظَ عن الإمام أبي حنيفة -رحمة الله عليه- والإمام مالك بن أنس والإمام الشَّافعي، وغيرهم؛ حُفِظَ عنهم أنَّهم يقولون: "إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي"، فكل أهل العلم مُعْظَمُونَ لحديث الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فإذا ثبت عندهم وصحَّ قَبْلُوه وَعَمِلُوا بِهِ، واعتقدوا مضمونه، لا يقولون نأخذ به في العمل دون الاعتقاد؛ كما يقول بعض أهل الكلام؛ بل يُؤخذ به في الاعتقاد وفي العمل، يؤخذ به في الأعمال والأحكام الشرعيَّة، ويؤخذ به في العقائد؛ لأنَّه كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي قال الله -عزَّ وجلَّ- عنه: ﴿هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:4]، وما ينطق عن الهوى -صلى الله عليه وسلم-.
- أما مَنْ يشكِّك في السُّنة ويشكِّك في الأحاديث، ويرد الأحاديث التي في الصَّحَّيحين لتَرَهَاتٍ أو لشبهاتٍ أو لتشكيكاتٍ؛ وبعضهم يقول: يكفي العمل بالقرآن! فهؤلاء كلهم من الضَّلال المبتدعة، الذين فارقوا طريق أهل العلم وأهل السُّنة.
- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115]، نسأل الله العافية والسلامة.
- النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يُرسل أصحابه إلى المناطق يدعون إلى الله -عزَّ وجلَّ- ويُخبرون الناس بالأحكام الشرعية، فأرسل معاذًا إلى اليمن، وأرسل أبو موسى إلى اليمن، ثم أرسل بعده عليًّا إلى اليمن، وأرسل إلى سائر المناطق بعض الصحابة يُعلمون الناس، فكان يُرسل الآحاد من الأشخاص، واحدًا بعد واحد، فيأتون إلى الناس يُخبرونهم بما حصل عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبما قاله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلم يقل أحد من المسلمين: لا، لابدَّ أن يتواتر! فهذا مذهب المبتدعة، فلا يجوز العمل به ولا الأخذ به.
- حتى إنَّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- جاءه شخص واحد وهو عبد الله بن عمر، وفي مرة أخرى جاءه أعرابي، وشهد أنه رأى الهلال، فصامه وأمر الناس بصيامه. فهذا خبر واحد قبله النبي -صلى الله عليه وسلم- ما كان يقول: لابد من جماعة كثيرون، لابد من التواتر والاستفاضة؛ لا.
- فقوله: **(مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ)** يعني: أنَّ الشَّرْع الذي شرَّعه الله -عزَّ وجلَّ- يجب قبول الأحكام الشرعيَّة فيه، مثل: الصلاة، الزكاة، الأذكار، وغير ذلك.

ولا يجوز أن نقول: لابد من المتواتر!

وكذلك البيان الذي بيّنه الله -عز وجل- في القرآن، أو بيّنه الرسول -صلى الله عليه وسلم، فسواء ما كان مذكورًا أصله في القرآن أو بيّنه الرسول -صلى الله عليه وسلم- فما دام ثابتًا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فله حكم القبول والإيمان والتّصديق.

ولا يُشترط أن نقول: لابد أن يُذكر الأمر في القرآن، ثم يُذكر أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم!

لا، ما دام أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يبين فهو الذي يوحى إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]. فهذه المسألة مهمة جدًا.

• تلاحظون -أيها الإخوة الكرام- أن بعض النَّاس يقول: نردُّ أحاديث البخاري ونردُّ أحاديث مسلم، حتى تتواتر، أو لا نقبلها حتى نعرضها على ميزان النّقض!

نقول: صحيح البخاري وصحيح مسلم هما أصح الكتب بعد كتاب الله، وقد أجمع أهل العلم على تلقّي ما ثبت فيهما بالقبول، فالذي يأتي بعد أهل العلم وينتقد فإنّما هو متّبِعٌ للهوى، وليس متّبِعًا للهدى، ومن أهل العناد والاستكبار، وإن كان جاهلاً فالواجب عليه أن يتعلم، وإن كان مُعاندًا فالواجب عليه أن يُعالج قلبه، وينظر إلى حاله؛ كيف يليق به أن يقول مثل هذا الكلام الخطير جدًا!

فلا يجوز التّعدي على أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- الثّابتة الصحيحة التي تلقّاها أهل العلم بالقبول، فمن أنت أيّها المتأخّر الذي تدّعي أنّك خير من هؤلاء العلماء! انت بما عندك! ولكن بالفعل ما عندهم إلا الشُّبهات!

ولهذا تولّى العلماء كالدارقطني وغيره الردّ على كل من تكلم على أحاديث الصّحّاحين، وهناك كتب في هذا، وكذلك ابن حجر العسقلاني، وغيرهم كثير.

• فهنا يقول: (وَالْإِيمَانُ وَاحِدٌ وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالْخَشْيَةِ وَالتَّقَى وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى وَمُلَازِمَةِ الْأَوَّلَى).

هذا الكلام أيضًا غلط، فالإيمان ليس واحدًا، وليس أهله في أصله سواء، بل الإيمان يتفاضل، ويزيد وينقص، وأهله مُتَفَاضِلُونَ مُتَفَاوِتُونَ في أصله، ومُتَفَاوِتُونَ في العلم، ومُتَفَاوِتُونَ في القول، وبينهم تفاوت عظيم، وليس تصديق أبي بكر تصديق ضُعفاء الإيمان، وأهل الفسق والعصيان من المسلمين؛ لأنّ الفاسق من المسلمين إيمانه ضعيف، وتصديقه ضعيف، وعمله ضعيف، وقوله ضعيف، بخلاف تصديق أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والصحابة؛ لا شك أنّهم أعلى وأكمل في التّصديق.

• وهذا من أغلاط المُرجئة أيضًا -وهو تابع للمسألة السابقة- لأنهم يتصورون أنّ التّصديق شيء واحد، وأنّ هذا التّصديق يقع من الجميع بشكل سواء، فنقول لهم: لا، حتى التّصديق يتفاوت، وقد دلّ على ذلك القرآن والسُّنة، فالله -عز وجل- قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: 33]، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: 19-21]، هذا أكمل الناس أبو بكر -رضي الله عنه- ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]، وقد ثبت في الحديث "لَوْ وَرَنَ

إِيْمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيْمَانِ النَّاسِ لَرَجَحَ إِيْمَانُ أَبِي بَكْرٍ^{١٠١}، فكيف يُقال: إِنَّ تصديق أبي بكر مثل تصديق أحاد الناس وأحاد المسلمين حتى الفاسقين! لا شكَّ أَنَّ هذا غلطٌ عظيمٌ.

وحق في مسألة التّصديق فالناس يتفاوتون، فلو أخبرت أنتَ بخبرٍ صادقٍ أنّه حدث الشيء الفلاني، أخبرك شخص واحد وهو ثقة عندك، فصدّقتَ هذا الخبر؛ فقد حصل عندك تصديق، لكن لو جاء بعده عشرة أو عشرون أو مائة أخبروك بنفس الخبر، فهل التّصديق اختلف أو زاد؟ زاد وتأكّد عندك جدًّا. فهذا من ناحية وصول الخبر.

من ناحية الرؤية، ولهذا يُقال في المثل المشهور "ليس من رأى رأى كمن سمع". لماذا؟

لأنّ السّامع وصله الخبر عن طريق النقل، وإذا رأى ازداد تصديقًا، ومنه قول إبراهيم -عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: 260].

• ثالثًا: التصديق في عُرْف الشّرع -وليس في اللغة؛ لأنّ الشّرع هو المعتمد- يكون بالعمل، ولهذا قال: «وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ»^{١٠٢}، يُصَدِّقُ ذلك بفعل الزنا. ويُكَذِّبُهُ بمنع نفسه من الفاحشة، فهذا يدلُّ على أن التصديق يتفاوت، فبعض الناس قلبه يصدق الباطل، بمعنى أنه يميل إليه ويفعله ويستجيب لداعيه. لكن هؤلاء المرجئة يقولون: الإيْمَان هو التصديق، مثل ما تقول أنت: السماء فوقك والأرض تحتك، فالإيْمَان بالله وملائكته وكتبه ورسله مثل هذا الأمر، مثل أن تقول: هذا كأس ماء. أنت ترى الماء الآن وتقول: هذا ماء، فتصديقي بوجود الماء مثل تصديقك، مثل تصديق الثاني؛ ما بيننا تفاوت في هذا. هذا غلط عظيم، في التعريف، وفي المراد، وفي القياس، فالخبر عن الله -عزَّ وجلَّ- وعن رسوله -صلى الله عليه وسلم- وأركان الإيْمَان، وأمور الغيب؛ لا شكَّ أن التصديق بها يتفاوت تفاوتًا عظيمًا، فهذا من الأغلاط التي عند المرجئة.

• ولهذا يقول: (وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ)، لكن الطحاوي من مُرجئة الفقهاء -رحمة الله عليه- فقال: يتفاضلون؛ ما قال مثل غلاة المرجئة أنهم لا يتفاضلون؛ لأن بعض المرجئة يقول: إيماني كإيمان أبي بكر وعمر -نسأل الله العافية والسّلامة- أمّا الطحاوي فلا يقول بمثل هذا.

فقال: يتفاضلون بشيء خارج الإيْمَان، ما هو الشيء الخارج عن الإيْمَان؟ كملزمة التقوى، وملزمة الأولى، والخشية، ومخالفة الهوى، هذه الأشياء خارج الإيْمَان، فلهذا يتفاضلون فيها.

وهذا من أغلاطهم!

^{١٠١} هذا أثر موقوف على عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسند صحيح، وهو في شعب الإيْمَان للبيهقي الجزء الأول. ولفظه عن عمر: (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم). وأخرجه كذلك الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وإسحاق بن راهويه في مسنده، والإمام أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة. وأخرجه ابن عدي في الكامل مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه ضعف.
^{١٠٢} البخاري (6243)، ومسلم (2657) عن أبي هريرة، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَقَّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرَزْنَا الْعَيْنِ النَّظْرَ، وَزَنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقَ، وَالنَّفْسَ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجَ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ).

- وبكر بن عبد الله المزني كان يقول: **"مَا سَبَقَكُمْ -أَوْ فَضَّلَكُمْ- أَبُو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ، وَإِنَّمَا سَبَقَكُمْ بِشَيْءٍ وَقَرَفِي صَدْرُهُ"**^{١٠٣}، وما من شيء يقر في القلب إلا التصديق والإيمان، ولهذا يُقال عنه "الصديق الأكبر" رضي الله عنه.
- ولهذا يُروى في أحد الآثار: **"ما طلعت الشمس ولا غربت على رجل بعد النبي أفضل من أبي بكر"**، هذا يُروى مرفوعاً، وإن كان في سنده ضعف^{١٠٤}.
- فالواجب أن يُقال: إن الإيمان يتفاضل أهله في أصله، وفي أعماله وثماره وفروعه وأقواله.
- ولهذا يُقال أيضاً: "ثَبَّتَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ بِأَبِي بَكْرٍ يَوْمَ الرِّدَّةِ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة"، فهؤلاء ما يُقال إنهم متساوون مع غيرهم في الإيمان.
- لكن مثلما سبق أنَّ هذا من أغلاط المرجئة، كما أنَّ هذا من أغلاط الخوارج؛ لأنَّ الخوارج في المقابل يقولون: "الإيمان اعتقاد وتصديق وعمل بالجوارح واللسان، وإذا زال بعضه زال كله".
- وهؤلاء المرجئة أخرجوا الأعمال وأخرجوا الأقوال، وجعلوه، أي: الإيمان، مجرد التصديق، وإذا زال بعض التصديق زال كله، فإذا ذهب التصديق عندهم ذهب الإيمان.
- وعند الخوارج: إذا ذهب شيء من الواجبات بفعل الذنوب خرج عن الإيمان.
- كلا المذهبين غلط، ودين الله وسط بين ضلالتين، فالإيمان يتبعض، والإيمان شُعْب، فإذا وُجِدَ أصله وبعض أعماله فإنه يبقى ويثبت حتى ولو ارتكب الذنوب، فإذا ذهب أصله كله إما بالمكفِّرات التي سبق ذكرها - أسباب الردة- أو بأنه لم يدخل في الإسلام أصلاً؛ فهذا ليس بمؤمن وليس بمسلم، لكن إذا وُجِدَ الأصل، ووجدت بعض الأعمال، ثم حدثت منه الذنوب أو ترك بعض الواجبات فهذا لا يزول عنه الإيمان -كما يقول الخوارج- وأيضاً نقول: إن المرجئة غلطوا لما زعموا أنه مجرد التصديق.
- ومما يدل على بطلان هذا القول -أيها الإخوة الكرام- أنَّ الله -عَزَّوَجَلَّ- قَسَمَ هذه الأمة ثلاثة أقسام في سورة فاطر ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: 32]
- ✓ **فالسابق بالخيرات بإذن الله:** هو الذي فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات، وابتعد عن المكروهات، واستقام على الدين.
- ✓ **المقتصد:** هو الذي فعل الواجب وترك المحرَّم، واقتصر على هذا فقط.
- ✓ **الظالم لنفسه:** وهو الذي فعل بعض الذنوب.
- فهل هؤلاء سواء؟ لا ليسوا سواء. فكيف يُقال: (وَالْإِيمَانُ وَاحِدٌ وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ)؟!
- أما قوله: (وَالْتَفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالْخَشْيَةِ وَالتَّقَى وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى وَمُلَازِمَةِ الْأَوَّلَى) فلا يكفي هذا، فالتفاضل بينهم حتى في التصديق، وحتى في القول وحتى في العمل.

^{١٠٣} فضائل الصحابة للإمام أحمد (173/1)
^{١٠٤} قال الدارقطني في العلل: والحديث غير ثابت

هذا التعليق على هذه المسألة، ولذا يجب الحذر من هذا الغلط، كما يجب الحذر من أغلاط الخوارج.

{وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ، وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَطْوَعُهُمْ وَأَتَّبِعُهُمْ لِلْقُرْآنِ}.

- هذا حق، وكلام صواب (وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ) ، فالله -عز وجل- جعل المؤمن التقي وليًا، فقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62]، فقلوه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ هذا تفسير لقوله ﴿أَوْلِيَاءُ﴾، فمن كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا.
- ومعنى أنهم أولياء الرحمن: أنهم أحبابه، فالله -عز وجل- يتولاهم، فالله يتولى المؤمنين، ويحبهم ويحبونه، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54].
- والمؤمنون يتفاوتون في ولاية الله لهم، ولهذا قال الطحاوي -رحمه الله: (وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَطْوَعُهُمْ وَأَتَّبِعُهُمْ لِلْقُرْآنِ).

← أطوعهم: يعني أكثرهم طاعة.

← وأتبعهم للقرآن: يعني أكثرهم اتباعًا للقرآن.

فالبشر والجن والإنس على قسمين:

(١) منهم من هو عدو لله.

(٢) ومنهم من هو ولي لله.

◀ **القسم الأول:** فأعداء الله هم الكفار والمشركون، والشياطين، والمكذبون للرسول؛ هؤلاء هم أعداء الله لأنهم كذبوا رسله، وكفروا به، ولك يدخلوا في دينه.

◀ **القسم الثاني:** هم المؤمنون والمسلمون، فهؤلاء أولياء الله، ولكنهم متفاوتون:

✓ فمنهم من ولايته كاملة لقيامه بالواجبات، وترك المحرمات، وطاعته لله ولسوله،

واتباعه للقرآن ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]

✓ ومنهم من هو ولي لله من وجه، ولكن عنده عداوة لله من وجه آخر، وهذا يجمع في

المؤمن العاصي والفاسق:

✓ **مثل: المرابي** -الذي يفعل الربا- هذا إذا كان مسلمًا فهو ولي لله من جهة الإسلام والإيمان، ولمَّا فعل الربا صار بهذا الفعل محاربًا لله ﴿فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: 279]، لكن هل يكفر؟ لا يكفر، بقي إسلامه وبقي إيمانه ضعيفًا، فاجتمع هذا وهذا. وأكل الربا هو أضعف الإيمان وأوهنه.

✓ **ومثل: شرب الخمر**، فهذا من الكبائر والموبقات، فإذا وقع فيه المسلم -نسأل الله لنا ولكم العافية- فهذا يوهن إسلامه ويضعفه، ولكن هل يخرج من الإسلام؟ لا يخرج من الإسلام.

✓ **ومثل ذلك السرقة:** لو سرق، فإن السرق من كبائر الذنوب، وتُنقص الدين، وتقدّم الكلام عن الكبائر. هذه الذنوب -أيها الإخوة- تجعل الإنسان يقع فيه عداوة لله بارتكابه لهذه الذنوب؛ لأنه عصى الله، فإذا تاب تاب الله عليه، لكن هذه المعاصي وهذه الذنوب هل تخرجه من ملة الإسلام؟ نقول: لا تخرجه من ملة الإسلام.

ولابدَّ أن نعلق على موضوع الأولياء؛ لأنَّ بعض المتصوفة وغيرهم يعتقدون في الأولياء الذين يخصصونهم بالأضرحة والقباب، والاستغاثة بغير الله -عزَّ وجلَّ- ويزعمون أنهم يدعون من دون الله، وأنهم يُجيبون من لجأ واحتسب بهم، ومَن لاذ بقبورهم، فهؤلاء يجب أن نقول لهم: إنَّ التعلق بالأولياء وعبادتهم من دون الله شرك بالله، فاحذروا وتوبوا إلى الله منه.

● الأولياء والصَّالحون من أهل الإيمان يحبون في الله ويُحترَمون، ويُعطى لهم حقهم بغير غلو، لكن ما تفعلونه من جهة الطواف بقبورهم، والطواف لهم، والذبح لهم، والنذر لهم، والاعتقاد فيهم، أو أنهم يملكون الشِّفاء، أو أنهم يشفعون لهم عند الله؛ هذا هو اعتقاد أهل الجاهلية، فيجب ترك هذه الأمور.

ثم نقول لهم: ليس الأولياء مخصصون بمَن حدَّدتموهم أنتم، فلان، وفلان، وشيخ الطريقة الفلانية؛ لا، الأولياء: كل مَن آمن وعمل صالحًا واتقى الله فهو وليٌّ، ولهذا ممكن الإنسان يكون ولي الله -عزَّ وجلَّ- بالإيمان والتقوى.

❓ إذا سُلِّت عن الدليل. ماذا تقول لهم؟

● قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62]. ولهذا لم يقل الطحاوي: الأولياء هم الذين وضعت لهم الأضرحة، أو هم شيوخ الطريقة الفلانية؛ لا، بل قال: (وَالْمُؤْمِنُونَ -كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ) ، فكل مؤمن ولي الله -عزَّ وجلَّ- ولكن يتفاوتون في هذه الولاية بحسب قِيَامِهِم بِالْإِيمَانِ.

معنى الولاء: هو المحبة والنُّصرة والقرب، وهو مأخوذ من (وَلِيَ) هو القرب، ولهذا تقول: فلان يلي فلان -يعني: بقربه- يعني: موالياً له وقريب منه.

ولما يكون المؤمن مُطيعاً لله، ثابتاً على الإسلام، مُطيعاً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- مُتمسكاً بالسُّنة فهذا قريب من الله -سبحانه وتعالى- فيكون ولياً لله -عزَّ وجلَّ- فنسأل الله -جلَّ وعلا- أن يجعلنا وإياكم من أوليائه -سبحانه وتعالى-.

● الدليل على أنَّ الإيمان يزيد وينقص.

❑ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 83]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17]، هذه النصوص كلها تدل على زيادة الإيمان، فقبل الزيادة كان ناقصاً، ثم زاد.

❑ هذه الآيات تدل على أنَّ الإيمان يزيد وينقص، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: 7]، فكل ما لم يكن يحبه من قبل فإنه ناقص، ولما حَبَّبه الله إليه زاد وثبت عليه.

• وهكذا في السنة المطهرة جاءت الأحاديث كثيرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في بيان زيادة الإيمان، وكذلك الآثار.

★ وكذلك جاء النقصان في الإيمان مُصرِّحًا به في السُّنَّة في قوله -صلى الله عليه وسلم: «مَا رَأَيْتُ مَنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ» ، فذكر نقص الدين، فُسِّلَ عن ذلك فقال: «أَوْ لَيْسَ إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟» قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: «فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا!»^{١٠٥}، فبيَّن أنَّ نقص الدين هنا بأها تجلس أيام الحيض لا تصلي، ولا شك أنها معذورة، ولكنه ينقص عليها بسبب قلة العمل، ولكنها ترفع هذا بالذكر وبالقيام بالطاعة، فهي على خير -إن شاء الله.

★ وأيضًا من الأدلة: الحديث «وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^{١٠٦}، وقد تقدم ذكره، وهو دليل على أن الإيمان يزيد وينقص.

★ ومثل قوله -صلى الله عليه وسلم: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^{١٠٧}، إلى آخر الحديث، فهذا دليل على نقص الإيمان، ونفي الإيمان هنا هو نفي الإيمان الواجب، وليس نفي أصل الإيمان، ولا نقول: "نفي كمال الإيمان" لأنَّ الكمال هو فعل المستحبات، وإنما هو نفي الواجب.

• في النصوص السابقة وغيرها نأخذ مثالًا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون 1-10]، ذكر الله أعمالًا مشتملة على أقوال، إذن هذا هو الإيمان، وهؤلاء هم المؤمنون. أمَّا مَنْ يقول: أنا مصدق بقلبي وأتكلم بلساني ولا أعمل هذه الأعمال! كيف يكون هذا مؤمن؟! فهذا من أقوال المرجئة الفاسدة.

يعني لو جاء واحد وقال: أنا أريد أن أدخل الإسلام، فنفرح بهذا الخبر ونرحب به. ثم قال: أنا سوف أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأعتقد أن الرسول حق؛ لكن لن أصلي، ولن أصوم، ولن أركي! نقول: هذا ليس بإسلام، يجب عليك أن تقوم بالأعمال الواجبة عليك، فَا حصل تقصير فيها فهذا ذنب، لكن أن تقول: أنا لن أعمل هذه الأعمال؛ فهذه جريمة.

• ولهذا فالراجح والصحيح من أقوال أهل العلم أن تارك الصلاة كافر، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»^{١٠٨}، وقال -عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرَكَ الصَّلَاةَ»^{١٠٩}.

• ولهذا فإنَّ من الأقوال الفاسدة عند المرجئة: لو ترك جنس العمل مُطلقًا ولم يُؤدِّه فإنه يثبت إسلامه ويثبت إيمانه.

^{١٠٥} البخاري ومسلم
^{١٠٦} تقدم تخريجه في (4)
^{١٠٧} صحيح البخاري
^{١٠٨} رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه
^{١٠٩} رواه مسلم

وهذا قول فاسد، ولا يمكن أن يكون قولاً حقاً، ولم يقل به أحد من أهل العلم إطلاقاً. حتى احتال بعضهم فقال: إذا تشهّد الشهادتين فهذا عمل؛ لأنّ قول اللسان من العمل! وهذا من حيل هؤلاء، وهذا قول فاسد أيضاً، فإن قول الشهادتين هو قول باللسان وليس عمل بالجوارح.

❓ مسألة الاستثناء في الإيمان، نريد توضيح لها؟.

- الاستثناء في الإيمان: أن يقول: "أنا مؤمن إن شاء الله" أو يقول: "أرجو أن أكون مؤمناً"، يعني: ما يجزم، ولا يقطع؛ فالراجع والصحيح في هذه المسألة وهو الذي عليه المحققون من أهل العلم أنه:
◀ **إن أراد كمال الإيمان، والإيمان الذي وصّف الله به أهل الجنة فلا يزكي نفسه ويقول: "أنا منهم"**، ولهذا فإن عبد الله بن مسعود كان يقول: "إذا قال هذا فليقل: إنه في الجنة"، يعني: لا يجوز أن يقطع لنفسه بهذا، فإذا أراد كمال الإيمان وصفات المتقين على الوجه الثّام فلا يقول: "أنا مؤمن مثل هؤلاء"، بل يقول: "أرجو أن أكون منهم، أسأل الله أن يجعلني منهم، إن شاء الله" ونحو ذلك.
◀ **وإذا أراد أصل الإيمان،** فإذا قال: "أنا مؤمن بالله وملائكته" يعني: أقرّ بذلك وأؤمن بذلك على وجه التّصديق والإثبات. فهذا يجزم أو يستثني؟
● نقول: يجزم، ويقول: "أنا مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله"، ولا يستثني؛ لأنّ هذه المسألة ليست محل شكّ، وليست محل احتمال، ولهذا يجب عليه أن يقطع بها. هذا هو التفصيل.
وأما إذا قال: "أنا مسلم" فيجزم ولا يستثني، بينما جاء هذا لأمر الإيمان، لأنه كمال مثل: الإحسان -وهو أعلى- فلا يقول: "أنا مؤمن إن شاء الله" إن كان يريد أصل الإيمان، ولا يقول: "أنا مؤمن" ويسكت إذا كان يريد كماله.
وصلّى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.



الدرس الثامن



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{قال المصنف -رحمه الله: (وَالْإِيمَانُ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَخُلُوهِ وَمُرِّهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ عَلَى مَا جَاءُوا بِهِ. وَأَهْلُ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّارِ، لَا يُخَلَّدُونَ؛ إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ).

• يقول -رحمه الله تعالى: (وَالْإِيمَانُ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَخُلُوهِ وَمُرِّهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ عَلَى مَا جَاءُوا بِهِ).

• الإيمان هو: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ هذه أركان الإيمان، وقد ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سأله جبريل -عليه السلام- عن الإيمان، فَأَجَابَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بهذا، وهو ذكر أركان الإيمان السَّتَّةَ، فهذا هو الإيمان من جهة ما يُؤمن به العبد، فيؤمن بالله ربًّا وخالقًا، وإلهًا معبودًا، ويؤمن بأسمائه وصفاته، يُخلص له العبادة، ويتعلَّق به وحده لا شريك له، يَعْبُدُهُ وَيَسْتَعِينُ بِهِ وَيَلْجَأُ إِلَيْهِ، وَلَا يَعْبُدُ غَيْرَهُ، وَلَا يَسْتَعِينُ بِغَيْرِهِ، وَهَكَذَا سائر ما يتضمنه الإيمان بالله، فهو يتضمن الإيمان بالالوهية والرُّبوبية، والأسماء والصفات، ويدخل في ذلك معانٍ عظيمة كثيرة مذكورة في الكتاب والسنة.

- والإيمان بالملائكة، والكتب، والرسول، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ كل هذه أركان الإيمان الستة يجب على المؤمن أن يؤمن بها، ومن أنكر واحدًا منها فقد كفر، وليس بمسلم ولا بمؤمن، فمن كذب بالقدر أو كذب باليوم الآخر وأنكر البعث بعد الموت، أو كذب بالملائكة، أو كذب بالرسول، أو كذب بالكتب؛ فهذا كافر بالله العظيم؛ فيجب على المؤمن أن يؤمن بهذه الأركان الستة على ما وضح في كتاب الله، وفي سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم.

● وقول المصنف: (وَالْقَدَرُ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ وَحُلُوهُ وَمَرُّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى).

القدر: الأمور المقدرة، وهي كل ما كتبه الله في اللوح المحفوظ مما يجري على العباد، فكل الأمور التي تجري على العباد مكتوبة مقدرة، وقعت بمشيئة الله وخلقها، فهذه الأمور التي تقع للعباد:

✓ منها ما هو خير بالنسبة لهم.

✓ ومنها ما هو شرٌّ لهم.

✓ ومنها ما هو حلٌّ بالنسبة لهم.

✓ ومنها ما هو مرٌّ بالنسبة لهم؛ ولكن من جهة فعل الله - سبحانه وتعالى - وتقديره فالله - عز وجل - كلُّ

أفعاله خير كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^{١١٠}.

- فكلُّ ما يُقدِّره الله - عز وجل - ويُقْضِيه فهو لحكمة بالغية، حتى لو كان فيه ضررٌ أو شرٌّ على بعض الناس، فمن جهة فعل الرب - سبحانه وتعالى - فأفعاله كلها حكمة بالغية، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا مُعَقَّبَ لحكمه ولا رادَّ لقضائه، فهو الذي يُدبِّر أمر الكون، وكل ما يفعله ربنا - سبحانه وتعالى - لحكمة عظيمة، حتى ما يقع للعباد من بعض الشرور، مثل خلق إبليس، ووجود الكفار وخلقهم، ونحو ذلك من الأمور التي هي شرٌّ، وبين القرآن وبينت السنة أنها شرٌّ، فالشيطان شرٌّ، وإبليس شرٌّ، والكفار شرٌّ، ولكن الله - عز وجل - لحكمة بالغية قَضَى ذَلِكَ وَقَدَّرَهُ.

○ فَمِنْ جِهَةِ فِعْلِ الرَّبِّ فنقول كما قال النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم: «وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^{١١١}.

○ وَمِنْ جِهَةِ الْمَفْعُولَاتِ الْمُقْضِيَّاتِ الْمَقْدَّرَاتِ التي تقع: فمنها بالنسبة لنا وللعباد منها ما هو خير، ومنها ما هو شر، فكل ما يقع لنا وللعباد من خير أو شر فهو بقدر الله، وبقضاء الله - سبحانه وتعالى.

● هذا معنى قوله: (وَالْقَدَرُ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ وَحُلُوهُ وَمَرُّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى).

● ثم نقول كذلك في بقية أركان الإيمان: يجبُ الإيمان بكل ما وَرَدَ في الكتابِ والسُّنة، يعني: التفصيل هذه المذكورة في كتاب الله - عز وجل - قال: (وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كُلِّهِ).

● ثم عَقَّبَ على واحدٍ منها وهو: (وَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ عَلَى مَا جَاءُوا بِهِ) هذا مثلما قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ

^{١١٠} رواه مسلم في صحيحه (1296)

^{١١١} تقدم في (1)

بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿[النساء: 150-151]﴾.

وهذا مُكرَّرٌ في القرآن في مواضع، مثل: آخر آيتين في سورة البقرة: ﴿أَمَنْ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكَ وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

؟ مَنْ الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَ الرُّسُلِ؟

- **الجواب: الكفار، مثل: اليهود والنصارى،** فاليهود آمنوا بموسى -عليه السلام- وكفروا بـعيسى وبـمحمد -عليهما الصلاة والسلام- والنصارى آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بـمحمد -عليه الصلاة والسلام- فهؤلاء كفَّار لأنَّهم كَذَّبُوا مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم-.
ولهذا في القرآن يقول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 105]، ما قال: "كذبت قوم نوح نوحًا"، فجعل تكذيبهم لنوح تكذيبًا لجميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.
- ولهذا لا يجوز لأحدٍ بعد مبعث النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- إلا أن يدخل في دين النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام- فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَهُوَ كَافِرٌ، وَهُوَ مَمَّنْ فَرَّقَ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، فَآمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، فالإسلام نسخٌ لجميع الأديان، وَرَفَعَ حُكْمَهَا، فلا يجوز التَّدْيُنُ ولا التَّعَبُّدُ بدينٍ غير دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، وقال النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ»^{١١٢}.
- إِذَا بَلَغَتْ دعوة محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى أيِّ يهوديٍّ أو نصرانيٍّ فالواجب عليه أن يدخل في دين محمد -صلى الله عليه وسلم- وأن يتعلَّم ويبحث عن الحَقِّ حتى يدخل في دين الإسلام؛ لأنَّه هو الدِّينُ الحَقُّ، وما سواه فهو باطلٌ.
- فالأديان الموجودة التي ورثت عن الأديان الصَّحِيحة مُحَرَّفَةٌ، فاليهود كانوا على دينٍ صحيحٍ لما بُعث موسى، ثُمَّ دَخَلَ هَذَا الدِّينَ التَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ وَالتَّغْيِيرُ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ عِيسَى وَكَانُوا عَلَى دِينٍ حَقٍّ، وَعَلَى شَرِيعَةٍ حَقَّةٍ، ثُمَّ دَخَلَهَا التَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ، ثُمَّ جَاءَتْ فَتْرَةٌ مِنَ الرُّسُلِ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم- خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، فَوَجَبَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ -جَنَّتْهُمْ وَإِنْسَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، ذَكَرَهُمْ وَأُنْثَاهُمْ- أَنْ يَدْخُلُوا فِي دِينِ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158].

^{١١٢} مسلم (153)

- الدَّعوة إلى التَّقارب بين الأديان -أو الدَّعوة إلى وحدة الأديان- هذه مناقِضة للإسلام، ومناقِضة للقرآن، وهذه معاندة للرَّسول-صلى الله عليه وسلم- ومحادة لدين الله، فلا يجوز أن نقول: يتقارب المسلم مع الكافر في العقيدة، فالعقيدة الحقَّة هي التي في القرآن وفي السُّنة، فلا يجوز أن نتنازل عن شيء منها حتى نقرب من الأديان الأخرى، فلسنا في شكٍّ -ولله الحمد- قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 104].

- وكذلك الدَّعوة إلى وحدة الأديان هذه أقبح وأخبث، ولها دعائها، ويريدون أن يكون دينًا واحدًا مخلوطًا، يأخذون شيئًا من الإسلام، وشيئًا من اليهودية، وشيئًا من النَّصرانية! وهؤلاء لا شكَّ أنَّهم كُفَّار وملاحدة ومُكذِّبون، فهُمْ كَذَّبُوا بِالرُّسُلِ، وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم-. هذا التَّعليق على قوله: (وَنُصَدِّقُهُمْ عَلَى مَا جَاؤُوا بِهِ).
- أضف إلى هذا أمرًا مهمًّا وهو: أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- بيَّن في القرآن أنَّه أخذَ على كل نبيِّ الميثاق إن بُعثَ محمدٌ -صلى الله عليه وسلم- وهو حي أن يتَّبَعَ محمدًا -صلى الله عليه وسلم- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: 81].
- ولهذا لما رأى النَّبي -صلى الله عليه وسلم- صحيفة من التَّوراة في يد عمر فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسَّعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^{١١٣}، وأيضًا إذا نزلَ عيسى بن مريم في آخر الزَّمان فإنه يُصَلِّي خَلْفَ إمام المسلمين، ويتَّبَع شريعة النَّبي الكريم محمد -صلى الله عليه وسلم- وحتى الصَّلَاة لا يتقدَّمها تكمرةً لنبيِّنا ولهذه الأُمَّة، اللهمَّ صلِّ على نبيِّنا محمد، و صلِّ على عيسى بن مريم.
- هذا هو الحق، وهذا هو الدِّين، فما يدعو إليه بعض الرِّنادقة من وحدة الأديان هذا مضادٌّ لما سمعتم من هذه الآيات وهذا الأحاديث.

((وَأَهْلُ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّارِ، لَا يُخَلَّدُونَ: إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوحَّدُونَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ، بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللَّهَ عَارِفِينَ مُؤْمِنِينَ، وَهُمْ فِي مَشِيئَتِهِ وَحُكْمِهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]. وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ -بِقَدْرِ جَنَائِهِمْ- بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ، وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ: وَذَلِكَ بِأَنَّ

^{١١٣} رواه أحمد (14736)، وحسنه الألباني في " إرواء الغليل " (34/6) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابِ أَصَابِهِ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ وَقَالَ: أَمْتَهُوْكَونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جُنْتُكُمْ بِهَا نَيْضَاءَ نَفْيَةٍ، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقِّ فُتُكُذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدَّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسَّعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي....

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أسانيد هذا الحديث : "وهذه جميع طرق هذا الحديث ، وهي وإن لم يكن فيها ما يحتج به ، لكن مجموعها يقتضي أن لها أصلا " انتهى من " فتح الباري " (525/13) .

اللَّهُ تَعَالَى تَوَلَّى أَهْلَ مَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلِ نُكْرَتِهِ الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِهِ وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وِلَايَتِهِ. اللَّهُمَّ يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ثَبِّتْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى نَلْقَاكَ بِهِ).

• هذه المسألة العظيمة متعلّقة بالإيمان، وهي: حُكْمُ أَهْلِ الْكِبَائِرِ.

؟ مَنْ هُمْ أَهْلُ الْكِبَائِرِ؟

• الكِبَائِرُ: جمع كبيرة، والكبيرة: هو الذَّنْبُ الْكَبِيرُ.

فالذنوب ينقسم إلى:

(١) ذنب كبير.

(٢) ذنب صغير.

★ الذَّنْبُ الْكَبِيرُ: يُقَالُ عَنْهُ كَبِيرَةٌ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ.

★ الصَّغِيرُ: هو الصَّغِيرَةُ مِنَ الذُّنُوبِ.

هذا هو الحق، وهذا هو ما دلَّ عليه القرآن ودلَّت عليه السنَّة، أمَّا القرآن فقد قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا

كِبَائِرَ مَا تُهْنُونَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: 31]، فهنا ذكر الله -عزَّ وجلَّ-

الكِبَائِرَ التي نُهِنَا عَنْهَا، فما نهينا عنه فيه كِبَائِرُ وفيه ما دون الكِبَائِرِ وهي الصَّغَائِرُ، وهذه الآية دليلٌ على

التَّفْريقِ بين الكِبَائِرِ والصَّغَائِرِ.

؟ ما الجزاء إذا اتَّقَى الْمُسْلِمُ الْكِبَائِرَ وَابْتَعَدَ عَنْهَا؟

• يُكْفِرُ اللَّهُ الصَّغَائِرَ، ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُهْنُونَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ، وهذه من آيات الرَّجَاءِ، وهذا من واسع فضل الله -عزَّ وجلَّ-

• كذلك ممَّا يدلُّ على التَّفْريقِ بين الكِبَائِرِ والصَّغَائِرِ آية سورة النِّجْمِ ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ

إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: 32]، مفهوم الآية أنَّ الإِثْمَ منه ما فيه كِبَائِرُ، وفيه ما هو صَغَائِرُ،

فهذا دليل على التَّفْريقِ.

؟ ما هي الْكَبِيرَةُ؟

• اختلفت عبارات السَّلَفِ والعُلَمَاءِ في بيان معنى الْكَبِيرَةِ على أقوالٍ كثيرةٍ، فذكر العلماءُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -

صلى الله عليه وسلم- وَمَنْ بعدهم في تعريفها عدَّةُ أمورٍ، منها:

✓ أَنَّ الْكَبِيرَةَ: مَا رُتِبَ عَلَيْهِ غَضَبٌ أَوْ لَعْنَةٌ، أَوْ نَارٌ، أَوْ تُبْرِئُ مِنْ صَاحِبِهَا، أَوْ رُتِبَ عَلَيْهِ حَدٌّ مِنْ

الْحُدُودِ فِي الدُّنْيَا.

✓ وقيل: مَا رُتِبَ عَلَيْهِ وَعِيدٌ خَاصٌّ، وهذا فيه تَوْسُّعٌ.

□ وبعضهم قال: الْكِبَائِرُ سَبْعٌ.

□ وبعضهم قال: إِلَى السَّبْعِينَ أَقْرَبَ مِنْهَا إِلَى السَّبْعِ.

والذي قال: الكبائر سبع؛ أخذها من قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ». قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّخَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»^{١١٤}.

؟ فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لما قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» هل معنى هذا أن الكبائر سبع؟

• الجواب: لا، بل هي إلى السبعين أو أكثر من السبعين، فكل ما رُتِبَ عليه حدٌّ في الدنيا ووعيد في الآخرة؛ فإنه من الكبائر.

• ومن الكبائر ممَّا لم يُذكر في السَّبْعِ: السرقة، فهي من الكبائر، وكذلك الزِّنا لم يُذكر في الحديث وهو من الكبائر، وكذلك شرب الخمر لم يُذكر في الحديث وهو من الكبائر، والغيبة لم تُذكر في الحديث وهي من الكبائر، والنَميمة كذلك، فالنَّمَام يُعَذَّب في قبره، وكذلك الذي لا يستنزه من البول عندما يبول، فلا يُبالي إذا قطر على ثوبه، ولا يتبرأ منه ولا يستنزه منه فإنه يُعَذَّب في قبره، وهذا دليل على أن هذا الفعل من الكبائر، كذلك من يبخل بالزكاة فإن هذا من الكبائر.

والكبائر كثيرة، وقد أُلِفَتْ فيها مؤلَّفات، منها:

◀ كتاب الكبائر للذهبي.

◀ ومن الكتب المعاصرة كتاب "تطهير المجتمعات من الدُّنَس والكبائر والموبقات" للشيخ أحمد بن حجر

البنعلي آل بوطامي -رحمه الله- وهذا كتاب جيد، جمع فيه عددًا من الكبائر، وذكر أدلتها، وحذَّر المسلمين من الوقوع فيها.

• والصَّغِيرَة: هي كل ما عدا الكبيرة، وهي ما لم يثبت فيها وعيدٌ خاصٌّ من حدٍّ في الدنيا أو وعيدٍ في الآخرة.

؟ هل معنى هذا أن المؤمن يتساهل في الصَّغائر؟

• الجواب: لا، لا يجوز التَّساهل في الصَّغائر، فإنَّهم كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث عبد الله بن مسعود: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الدُّنُوبِ».

محقرات: جمع محقَّر -أو محقَّرة- يعني الذنب الذي يحتقره فيراه خفيفًا وحقيرًا وليس كبيرًا.

• فقال النبي -صلى الله عليه وسلم: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الدُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الدُّنُوبِ»، ثُمَّ ضَرَبَ لَذَلِكَ

النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً فقال: «كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنٍ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بَعُودٍ وَجَاءَ ذَا بَعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الدُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تَهْلِكُهَا»^{١١٥}، فهذه النَّارُ الشَّديدة أحرقت وأنضجت الطعام.

معنى هذا: أن الإنسان يُذنب ذنبًا وهو لا يشعر، ويقول: هذا خفيف، وهذا بسيط، أو هذا حقير. ولا يدري أن الله يُحصي عليه كلَّ شيء!

^{١١٤} متفق عليه عن أبي هريرة

^{١١٥} مسند أحمد (22216)

- ولهذا يجب على المؤمن أن يحذر من الكبائر ومن الصغائر، «فَإِنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكُونَهُ»^{١١٦} كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم.

هل الإصرار على الصغيرة يُصيرها كبيرة؟

- قال بعض العلماء: إن الإصرار على الصغيرة يُصيرها كبيرة، ولكن الظاهر من الأدلة -والله تعالى أعلم- أنَّ الصغيرة تبقى صغيرة، والإصرار عليها ذنب آخر، وتكرار الذنب، لكن لا يرتفع حكم كونها صغيرة، بل تبقى صغيرة، فالإصرار عليها لا يُصيرها كبيرة، وإنما يزيد الإثم بالتكرار وبالبقاء على هذه الصغيرة.
- فالواجب على المسلم أن يحذر من الإصرار على الذنوب، قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

هل المؤمن لا يرتكب كبيرة أو لا يُذنب؟

- لا نقول: إن المؤمن من شأنه ألا يُذنب أو أنه لا يرتكب كبيرة؛ بل الذنوب تقع من المؤمن، قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^{١١٧}.
- ولكن -أيها الإخوة الكرام- المؤمن من شأنه أنه يُبادر إلى التوبة، فإذا وقع في الذنب يُبادر إلى الإقلاع، وإلى الندم، وإلى التوبة، ويعزم ألا يعود.
- فهذه هي التوبة: يندم، ويُقلع عن الذنب، ويعزم ألا يعود إليه، وإذا كان متعلِّقًا بحقٍ يردُّ الحقوق إلى أصحابها، مع الإخلاص والصِّدق في هذا. فهذه هي التوبة النصوح، ويعمل الأعمال الصالحة حتى تُكفِّر عنه الذنوب التي سلفت.
- فيا إخواني الكرام! يجب علينا أن نستغفر الله ونتوب إليه دائماً، فإننا نقع في الذنوب ونحن لا نشعر، نقع في ذنوب خفية في القلب، فقد يقع في قلوبنا شيء مثل: قلة التوكل، أو الجزع، أو الطمع، أو قد يقع في قلب أحدٍ الحسد، أو يغفل قلبه على أحدٍ من المسلمين، أو لا يكون سليم الصدر تجاهه، أو يظنُّ ظنَّ السوء، فهذه ذنوب خفية، وقد يغترُّ بعمله، وقد يُرائي وهو لا يشعر، والله -عزَّ وجلَّ- يقول: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: 6].

وهناك ذنوب تقع باللسان، وقد لا يشعر الإنسان بها، ولهذا وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا فقال: «وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ!»^{١١٨}.

هل تعرف الحصادة التي تحصد الزرع؟

- كانوا يحصدون الزرع بأيديهم وبالحصادات، فهذا اللسان يتكلم في اليوم والليل بكلام كثير جداً في التعاملات، وفي الأهل، وفي الجيران، وفي الناس، وفي الأصدقاء، فما عدد هذه الكلمات؟

^{١١٦} البخاري (3708) ومسلم (1552)

^{١١٧} رواه أحمد في المسند (12801) والترمذي في سنن (2436).

^{١١٨} رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه

الله أعلم! فهي كثيرة جدًا، وكثيرٌ من هذه الكلمات قد تكون غير موزونة، وفي غير محلِّها، وقد تكون آثمة، ولهذا يُكَبُّ الإنسان على وجهه في النَّارِ بسبب لسانه، **«وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ!»**.

- الجوارح أيضًا قد يقع منها ما قد يقع، كالضَّربِ، والمشي إلى الشَّيءِ المحرَّم، أو الحركة باليد، حتى الجوارح - نسأل الله أن يعوف عنا- والأشياء التي نطلمها ونبحث عنها، فالإنسان يُحاسب نفسه ويستغفر ربَّه، ويُجِدِّد التَّوبة، والله يتوب على مَنْ يشاء.
- قال: **(وَأَهْلُ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّارِ، لَا يُخْلَدُونَ؛ إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوحِدُونَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ).**

؟ إذا مات المسلم وهو مرتكبٌ للكبيرة وباقي عليها ولم يتب منها، ولقي الله على هذه الكبيرة. ما حكمه؟

- هذه المسألة اختلفت فيها الطوائف، والقول الحقُّ هو ما ذكره الطَّحاوي -رحمه الله- أنهم لا يُخْلَدُونَ في النَّارِ، وأنَّهم تحت مشيئة الله، إن شاء الله -عزَّ وجلَّ- عذبهم بسبب ذنوبهم وكبائرهم، وإن عذبوا لا يُخْلَدُونَ في النَّارِ، وإن شاء الله -عزَّ وجلَّ- عفا عنهم من أوَّل وهلة **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** [النساء: 116].

- هذا البحث وهذا النَّظَرُ وهذه الدِّراسة في مسألة مُرتكبِ الكبيرة إذا مات عليها من غير توبة، إمَّا إذا مات وقد تاب؛ فكلُّ الطوائف متَّفقة على أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يقبل توبة التَّائبين، فلم يختلف في ذلك لا الخوارج ولا المعتزلة ولا غيرهم، ولكن البحث عندما تكون المسألة في حال المسلم إذا لقي الله على كبيرة ولم يتب منها.
- ولذا قال: **(إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوحِدُونَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ)**، وهذا هو المذهب الحقُّ، وهذا مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، وهذا ما دلَّ عليه القرآن **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** [النساء: 116]، المغفرة تكون لمن فعل ما دون الشِّرك، أمَّا مَنْ لقي الله وهو مشرك فهذا لا يُغفر له، وهذا مخلَّد في النَّار -نسأل الله العافية والسلامة- وهذا يدلُّك على خطر الشِّركِ، **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾**.

- أمَّا ما دون الشِّرك -يعني الذُّنوب- ككبائر الذُّنوب، فهذه تحت المشيئة **﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾**. إذن هناك مَنْ يُغفر له، وهناك مَنْ لا يُغفر له؛ لأنَّ هذا معلق بمشيئة الله -سبحانه وتعالى- فإن شاء عفا عنهم بفضله ورحمته، وإن شاء عذبهم بعدله، و **﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾** [الكهف: 49]، وإن عذبوا فإنَّهم لا يُخْلَدُونَ في النَّار.

- مرَّ معنا حديث عبادة بن الصامت، وهو ممَّن بايع وشهد العقبة الثانية، قال: "بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعُقَبَةِ الْأُولَى عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا..." إلى آخره. قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: **«فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ»**، يعني: الحدود، فإذا أصاب حدًّا مثل السرقة والزنا فأقيم عليه الحد، قال: **«وَمَنْ أَصَابَ**

شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهُ» أي: لم يعاقب «فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ»^{١١٩}

وهذا الحديث في البخاري ومسلم، وغيرهما.

وهذا يدلُّ على ما قاله أهل السُّنة والجماعة من أنَّ أهل الكبائر تحت مشيئة الله، ويدلُّ على هذا أحاديث الشُّفاعة، وهي كثيرة جدًّا، فجاءت الأحاديث عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يشقِّعه في قوم دخلوا النَّارَ، فيخرجهم الله -عزَّ وجلَّ- من النَّارِ بشفاعة النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- فيدخلون الجنَّةَ، وهذا يدلُّ على أنَّ أهل الكبائر منهم مَنْ يدخل النَّارَ.

● المخالفون من أهل البدع -الخوارج والمعتزلة- يقولون عن أهل الكبائر: إنَّهم مخلَّدون في النَّارِ. فيُسوُّون بينهم وبين الكفار، فحكمهم مثل حكم الكفار عند الخوارج والمعتزلة، وهذا ضلال عظيم، الله -عزَّ وجلَّ- يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 35]، فكيف يُساوى بين الموحد وبين الكافر المجوس والمشرِك الوثني، والتَّصراني المكذِّب للنَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم-؟! لا والله! ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28].

● هناك قول فاسد للمرجئة، يقولون: يجوز أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يُدخل جميع أفراد أُمَّة محمد الجنَّة ولا يُدخلهم النَّار إطلاقًا، وذلك من قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 116]، فهذا دليل على أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يجوز له أن يتجاوز عن جميع الأُمَّة.

ونحن من باب التَّنبيه على هذا الغلط نقول: إنَّ الأحاديث صحَّت عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- في أنَّه رأى أقوامًا من أُمَّة محمد في النَّار. فكيف يُقال هذا!

فمن باب النَّظر إلى قدرة الله فإنَّ الله على كلِّ شيء قديرٌ، ولكن من باب النَّظر في النُّصوص وفيما أخبر الله، وبما أخبر رسوله -صلى الله عليه وسلم- فلا يكون خبرُ الرَّسولِ إلَّا حقًّا وصدقًا وواقعًا كما أخبر -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- فهو قد رأى أقوامًا من أهل الكبائر يُعذَّبون في النَّار، فكيف يُزعم أنَّه من الجائز أن يتجاوز عنهم ويغفر لهم؟!

هذا معناه عدم قبول هذه الأحاديث، وعدم الإيمان بما أخبر به النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- من أنَّ جماعةً من هذه الأُمَّة يدخلون النَّارَ.

● ولهذا فإنَّ هذا القول من أغلاط المُرجئة، وهذا القول مشهورٌ عند بعض الأشاعرة أيضًا. وفي مقابل قول الخوارج والمعتزلة يأتي هذا القول الفاسد أيضًا.

فالمقصود أنَّ القول الحق: أنَّ أهل الكبائر المرتكبون للذنوب من أهل التَّوحيد من أهل الإسلام إذا ماتوا من غير توبة فإنَّهم تحت مشيئة الله، إن شاء الله عذبهم وإن شاء عفا عنهم، وإن عذبوا فإنَّهم لا يُخلَّدون في النَّار؛ بل يكون مآلهم إلى الجنَّة.

^{١١٩} البخاري ومسلم

أَمَّا مَنْ مَاتَ عَلَى الشِّرْكِ وَلَقِيَ اللَّهَ مُشْرِكًا، أَوْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ وَلَقِيَ اللَّهَ كَافِرًا؛ فَإِنَّهُ خَالِدٌ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: 72].

قال: (بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللَّهَ عَارِفِينَ مُؤْمِنِينَ).

التعبير بقوله (عَارِفِينَ) هذا فيه شيء من النظر، ولو قال: "بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللَّهَ مُوَحِّدِينَ" لكان أنسب، يعني: سالمين من الشِّرْكِ؛ لأنَّ الله قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 116]، فإذا سَلِمَ من الشِّرْكِ فقد لحقَ بالجزء الثاني من الآية وهو ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ [النساء: 116]، يعني ما دُونَ الشِّرْكِ، والذي سَلِمَ من الشِّرْكِ لا يُقال عنه "عارف"، وإنَّما يُقال عنه "موحِّد"، فالتعبير بالتَّوْحِيد هنا أولى؛ لأنَّ التَّوْحِيد يُقابل الشِّرْكَ، وعلى كلِّ حال هذا مراد المؤلف -رحمه الله.

قال: (وَهُمْ فِي مَشِيئَتِهِ وَحُكْمِهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 116]، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ - بِقَدْرِ جُنَايَتِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ).

لابدَّ أن نقول هذا، إذا عَذَّبُوا بعدلِ الله -عزَّ وجلَّ- مقابل ذنوبهم فإنَّهم لا يُخَلَّدون في النَّار وإن طال مكثهم فيها -نسأل الله أن يُعيننا وإياكم وسائر المسلمين من النَّار.

فأهل السُّنَّة يعتقدون أنَّهم حتى لو عَذَّبَ مرتكب الكبيرة بالنَّار بسبب كبريته فإنَّه لا يُخَلَّد في النَّار.

قال: (ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ، وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ).

لأنَّ الشَّافِعِينَ يوم القيامة أعظمهم محمد -صلى الله عليه وسلم- فهو الشَّافِع المشفَّع في المحشَّر، ثم الأنبياء -عليهم الصَّلَاة والسَّلَام- يشفَّعون، والصَّالِحون من عباد الله يشفَّعون، والشُّهداء يشفَّعون، والملائكة يشفَّعون، والأفراط -جمع قَرَط وهو الذي مات دون البلوغ- يشفع لوالديه؛ فكل هؤلاء ثبت في النُّصوص أنَّهم يشفعون لمن أذن الله -عزَّ وجلَّ-.

والشَّفَاعَةُ لابدَّ فيها من شرطين:

(١) إِذْنُ اللَّهِ لِلشَّافِعِ أَنْ يَشْفَعَ.

(٢) رِضَا اللَّهِ عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ.

لأنَّه لا يُمكن لأحد أن يتجرَّأ على الله وأن يبدأ بالشَّفَاعَةَ قبل أن يأذن الله له، ولا يمكن لأحد أن يشفع لأحد إلا وقد رضي الله قوله وعمله، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28]، وقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255].

ولهذا فإذا أردنا الحصول على شفاعَةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فإنَّنا نبذل الأسباب التي بيَّنها الرسول -صلى الله عليه وسلم- لنا.

ما هي الأسباب لحصول الشَّفَاعَةِ؟

★ التَّوْحِيد، قال -عليه الصَّلَاة والسَّلَام-: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»^{١٢٠}، هذا من حديث أبي هريرة في الصحيح، وقال: «فَمَنْ نَازِلَةٌ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ لَا

^{١٢٠} صحيح البخاري (98).

يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^{١٢١} ، فهذا هو شرطُ نيل الشَّفاعة، أمَّا مَنْ لقي الله مشرِّكًا فإنَّه لا تنفعه شفاعَةُ الشَّافعين، قال تعالى عن الكفار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ*قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ*وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمُسْكِينَ*وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ*وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ*حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ*فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدرثر: 42-48]، فَمَنْ لقي الله مشرِّكًا وكافرًا فإنَّه لا يُشْفَعُ فيه، ولا تنفعه شفاعَةُ الشَّافعين.

❖ **وَمِنْ أَسْبَابِ نَيْلِ شَفَاعَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اتِّبَاعُهُ وَإِيمَانُ بِهِ، وَالْعَمَلُ بِسُنَّتِهِ، وَكَثْرَةُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ، وَإِجَابَةُ الْمُؤَذِّنِ.** فالأذان كلُّ كلماته توحيد، ثم الصَّلَاةُ على النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وسؤالُ الله له الوسيلة، وغير ذلك ممَّا ورد.

أمَّا مَنْ يَأْتِي إلى أصحابِ القبور، أو يَأْتِي إلى قَبْرِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويستغيث به ويطلب منه الشَّفاعة فقد خالفَ الكتابَ والسُّنَّةَ، وعصى رسولَ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وخالفَ طريقةَ الصَّحابة -رضي الله عنهم.

فعلى كل مسلم أن يحذر من هذه المسالك، لا تأتي إلى عبادة تفعلها إلا بما دَلَّكَ عليه الرَّسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وبما أمرك الله به، والله -عَزَّوَجَلَّ- لم يأمرك أن تذهب إلى صاحب قبر. فانتبه إلى هذا! لأنَّ الدَّهَابَ إلى أصحابِ القبور وطلب الشَّفاعة منهم هذا من الشِّرْك، فاطلب الشَّفاعة ممَّن يملكها، وهو الله -سبحانه وتعالى.

❖ قال: **(ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ، وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ)** ، هذا فيمَن دخل النَّارَ، يُخْرِجون من النَّارِ ثم يخلون الجنَّةَ، وهناك أسباب لرفع العقوبة ومحوها عن المسلم، فالمسلم إذا ارتكب الذُّنوب هناك أسباب تمحو هذه الذُّنوب:

❖ **السَّبَبُ الأوَّل:** وهو أعظم الأسباب: التَّوْبَةُ الماحية، التَّوْبَةُ الصَّادِقة، التَّوْبَةُ النَّصوح.

❖ **السَّبَبُ الثَّانِي:** الاستغفار.

❖ **السَّبَبُ الثَّلَاث:** الإكثار من الحسنات والأعمال الصَّالحات، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114]، ولهذا قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»^{١٢٢} ، هذه تمحو الذنوب عنك، فأكثر من العمل الصالح لو ارتكبت ذنبًا.

❖ **السَّبَبُ الرَّابِع:** المصائب المكفِّرة، فإذا أصيبَ المسلم بمصيبة فإنَّها تُكفِّرُ خطاياهُ كما قال النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وذلك إذا صبر واحتسب.

❖ **السَّبَبُ الخَامِس:** دعاء المؤمنين، إذا دعا المؤمن وقال: ربنا اغفر لنا وإخواننا، وللمسلمين والمسلمات، اللهم اغفر لأخي...، وهكذا.

❖ **السَّبَبُ السَّادِس:** الصَّدقة عن الميت، فإنَّها تنفعه كما أخبر النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

^{١٢١} أخرجه البخاري (6304)، وأحمد (8959) مختصرًا، ومسلم (199)، والترمذي (3602)، وابن ماجه (4307) واللفظ له ^{١٢٢} مسند أحمد (20882)، سنن الترمذي (1906)، وحسنه الألباني.

- ★ **السَّبَب السَّابِع:** ما يصيب المؤمن من أهوال القبر، والأهوال التي تكون يوم القيامة، وضمة القبر، وفتنة القبر؛ كل هذه من الأسباب التي يرفع الله بها أثر الذنب عن المؤمن إذا أصاب شيئاً.
- ★ **السَّبَب الثَّامِن:** الشَّفاعة التي بيَّنها الله -عزَّ وجلَّ- في كتابه، وهي لا تكون إلا بإذنه ولئن رضي قوله وعمله.

★ **السَّبَب التَّاسِع:** عفو أرحم الرَّاحمين، فالله -عزَّ وجلَّ- يعفو ويغفر، ولهذا قال: ﴿وَيَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 116]، فنسأل الله أن يغفر لنا ولجميع إخواننا المسلمين.

- قال: (ثُمَّ يَبْعَثُهُم إِلَى جَنَّتِهِ)، جاء في الحديث: «آخر أهل الجنة خروجاً من النار ودخولاً إلى الجنة، رجل طال مكثه في النار، فيخرجون منها وقد صاروا فحمًا، ثُمَّ يُلْقُونَ عن نهر يُقَال له نهر الحياة، فينبتوب كما تنبت الحبة من حمل السيل، ثم يدخلون الجنة»^{١٢٣}، هؤلاء الموحِّدون الذين دخلوا النَّارَ، فيكون مآلهم إلى الجنة كما صحت بذلك الأخبار عن النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-.
- قال الطَّحاوي -رحمه الله-: (وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَلَّى أَهْلَ مَعْرِفَتِهِ). نلاحظ هنا أنَّ المؤلف كرَّرَ لفظ "المعرفة" فقال: (فالعارف، وأهل المعرفة، والعارفون) والأولى أنَّا نُعَبِّرَ بالتَّعْبِيرَاتِ الشَّرْعِيَّةَ، فالتَّوْحِيدَ ليس هو المعرفة فقط، فلا بدَّ من العلم، ولذلك لو قال: "أهل طاعته" أو "أهل توحيده وعبادته" ونحو ذلك؛ لكان أولى.
- قال: (وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَلَّى أَهْلَ مَعْرِفَتِهِ)، يعني أهل الإيمان: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 68]، ﴿إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196]، فَمِنَ تَوَلَّى الله للمؤمن -حتى لو كان مذنبًا- أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- إذا قَدَّرَ أن يُعَذِّبَ فإنه يُعَذِّبُهُ بِقَدْرِ ذَنْبِهِ، ثم يكون مآله إلى الجنة.
- قال: (وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلٍ نُكْرَتِهِ)، يعني: الكفَّار المنكرين له، أو المكذِّبين له ولسوله -صلى الله عليه وسلم-.
- وقوله: (فِي الدَّارَيْنِ) يعني: في الدنيا وفي الآخرة.
- ففي الدُّنْيَا قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: 35]، ولهذا المسلم في الدنيا حتى لو كان عاصيًا له أحكام ليست مثل أحكام الكافر، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ»^{١٢٤}، فليس هو في الدُّنْيَا كالكفَّار حتى لو كان عاصيًا.
- وفي الآخرة كذلك، إذا قَدَّرَ أن الله يُعَذِّبُهُ فإنه لا يكون كالكفار.
- قال: (وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلٍ نُكْرَتِهِ)، أي: المنكرين المكذِّبين؛ لأنَّ الله مَيَّزَ بين أهل الطاعة والمعصية، وأهل الكفر والإيمان، فليس المؤمنون كالكافرين، وليس المجرمون كالمجرمين ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ *

^{١٢٣} مسلم (184) ولفظه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يُدْخِلُ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُولُ انظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قُلُوبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا حُمًّا قَدْ امْتَحَسُوا فَيُلْقُونَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ أَوْ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ إِلَى جَانِبِ السَّبِيلِ أَلَمْ تَرَوْهَا كَيْفَ تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً
^{١٢٤} صحيح البخاري (391).

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:35]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: 21]، وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28].

فهذا من الأدلة على أَنَّ الموحِّدين المرتكبين للذنوب لا يُخلَّدون في النَّار، وهذا فيه ردُّ على طوائف الخوارج والمعتزلة، فبعض الخوارج يقول: إن الله قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 116]، هذا في التَّائب. نقول: لا، الله فرَّق بينهما، والتَّائب حتى من الشِّرْكِ يُغْفَرُ له إن تاب قبل أن يموت، فبعض الصَّحابة كانوا مشركين، ثم آمنوا وتابوا، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: 5]، فلمَّا فرَّق هنا علِّم أنَّ المراد به: مَنْ لقي الله على هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ يعني: إذا لقي الله هكذا، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾، يعني: إذا لقي الله بما دون ذلك وسَلِمَ من الشِّرْكِ ولكِنَّه عنده ذنوب فهذا تحت المشيئة.

فَمَنْ زعم من الخوارج أنَّ المراد بالآية التَّوبة والتَّائب فقد غلط، فلا يُفرَّق بين مَنْ كان مشرِّكاً وبين مَنْ كان دون الشِّرْكِ؛ بل كل مَنْ تابَ فالله يتوب عليه حتى لو كان مشرِّكاً. ولهذا فآية التَّائبين في قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53]، ما فرَّق بين الذُّنوب، فهذا في التَّائبين، أما آية اللِّسَاء فهي فيمَنْ لقي الله ومات على غير توبة.

ثم قال: (الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِهِ وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وَلَايَتِهِ). فالإسلام والإيمان ولَاية، فَمَنْ كان مؤمناً كان وليّاً لله -كما تقدم- ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62]، فإذا كان عنده إيمان ولو قليل، وإسلام ولو قليل؛ فهذه ولَاية، أمَّا الكفار فليس عندهم من هذه الولاية شيء إطلاقاً، فليس عندهم إيمان، وليس عندهم إسلام فهم (الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِهِ وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وَلَايَتِهِ).

ثم ختم الكلام بهذا الدعاء: (اللَّهُمَّ يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ثَبِّتْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى نَلْقَاكَ بِهِ). وهذا من أجمل الدعاء، ومن أحسن الكلام، وهذا من معنى قوله -صلى الله عليه وسلم: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^{١٢٥}، فأهل العلم، وأهل الإيمان، طلاب العلم، وعموم المؤمنين، وعموم المسلمين؛ يجب أن يكون عندهم خوف من الله -سبحانه وتعالى- على دينهم وعلى إيمانهم، وأن يجمعوا بين الخوف والرجاء، وأن يخافوا أن يُسلَبَ عنهم الدِّين، فكم من شخصٍ أصبح مؤمناً ثم أمسى كافراً -نسأل الله العافية والسلامة- لا يقول الإنسان أنا حافظٌ للقرآن، أنا درست العلم، أنا فاهم كذا وكذا...، لا، فهناك مَنْ انسلَخَ عن الدين ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [المائدة: 27]، نسأل الله العافية والسلامة.

^{١٢٥} رواه الترمذي: 2140، وأحمد: 12128، وصححه الألباني فيمشكاة المصابيح: 102.

- فالمؤمن يحرص على سلامة دينه، ويسأل الله الثبات، ولهذا قال: **(اللَّهُمَّ يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ثَبِّتْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى نَلْقَاكَ بِهِ).**

واليوم ترون الضلالات والفتن والشبهات والشهوات تحيط بالإنسان، فهو بحاجة إلى تثبيت الله -عز وجل- حتى يلقي الله -عز وجل- على الإسلام **«يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»** ، وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: 102]، يعني: اثبتوا على الإسلام حتى إذا جاءكم الموت تموتون على الدين وعلى الإسلام.

- فالمؤمن يجمع بين الخوف والرجاء، يخاف أن يُسَلَبَ عنه الدين فيثبت عليه ويتمسك به، ويرجو فضل الله إذا ثبت على السنة وعلى طريقة الطائفة المنصورة الذين قال عنهم النبي -صلى الله عليه وسلم: **«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»**^{١٢٦} ، فهناك أناس خالفوا من أهل البدع، وأهل الكفر، وأهل الشرك، وهناك من خذلوا.

؟ ما معنى خذلوا؟

- انتبه للفظ **«لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ»** ، يعني: كان منهم ثم تركهم، وانقلب على عقبيه، ونكص على عقبيه، فكان على الحق ويعرفه، ولكنّه خذل أهل الحق -فنسأل الله الثبات- وأن نستمر على طريقة أهل السنة والجماعة، وأن نكون ممن اختارهم الله -عز وجل- لاتباع سبيل السلف الصالح -نسأل الله أن يجعلنا وإياكم وسائر المسلمين من هؤلاء.

فيجب أن نلجأ إلى الله، وأن نتضرع إلى الله -سبحانه وتعالى- حتى ننجوا، أمّا مَنْ آمَنَ وتساهل فإنه على خطرٍ. □ نلخص الدرس في دقيقتين أو ثلاث دقائق باختصار شديد، فتقدّم معنا:

- تعريف الإيمان لغةً واصطلاحاً، وكذلك الأدلة عليه.
- دخول العمل في معنى الإيمان.
- بيان مراتب الموحّدين، أمّا مراتب الدين لم نذكرها، وهي ثلاث: الإسلام، والإيمان، والإحسان -كما في حديث جبريل.
- المراد بأهل القبلة.
- عدم خروج العصاة الموحّدين من الإيمان، وعدم تخليدهم في النيران، وأنهم تحت المشيئة.
- تعريف الكبيرة، والفرق بينها وبين الصغيرة، وخطر الصغائر.
- أسباب رفع ومحو العقوبة عن الموحّد.

- فهذا هو الكلام على الإيمان، فالكلام عنه مهمٌ وعظيم، ويمكنك أن تراجع كتاب الإيمان من صحيح البخاري فإنك ستجد فيه خيراً عظيماً، وهناك مقامات عظيمة للإيمان: زينة الإيمان، حلاوة الإيمان، طعم الإيمان، ذوق الإيمان، تبوء الإيمان، كتب الإيمان في القلب؛ كل هذه المقامات مذكورة في كلام الله، وكلام الرسول -صلى الله عليه وسلم.

^{١٢٦} مسلم (1920)

الدرس التاسع



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{قال أبو جعفر الطحاوي الورّاق -رحمه الله تعالى: (وَنَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَعَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ).}

• قوله: (وَنَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ) ، يعني: الإمام إذا صَلَّى بنا ولو كان فَاجِرًا فَإِنَّ

الصَّلَاةَ خَلْفَهُ تَصِيحٌ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ. لماذا؟

لأنَّ الصَّلَاةَ عملٌ بَرٍّ وإحسان وطاعة، فإذا فعلها وُلَّاهُ الْأُمُورَ وَصَلُّوا بِالنَّاسِ وَأَمَّوْا النَّاسَ؛ فَالصَّلَاةُ خلفهم صحيحة ولو كان فيهم نَقَصٌ أو جَوْرٌ، وهذا دلَّت عليه السُّنَّةُ، ودلَّ عليه إجماع أهل السُّنَّةِ والجماعة، وإمامة الصَّلَاةَ كانت مع إمامة الحكم، حيث إِنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- كان هو إمام المسلمين وكان يُصَلِّي بالمسلمين، ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان، ثم علي، ثم الحسن، ثم معاوية، وهكذا كان الأمر، فكان هؤلاء هم الخُلفاء والحكَّام، ثم الملوك كانوا يصلُّون بالنَّاسِ، فَالصَّلَاةُ خلف إمام المسلمين حقٌّ بَرًّا حتى لو قَدِرَ أَنْ فِيهِ فَجُورٌ، مثل: بعض الملوك الذين فيهم مَعَاصِي وَفَسَقٌ أو ظُلْمٌ، ولهذا ثبت عن عبد الله بن عمرو عن أنس بن مالك أنهم صَلُّوا خلف الحجاج بن يوسف الثقفي، وهذا في صحيح البخاري، وفي صحيح البخاري أيضًا قال -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يُصَلُّونَ لَكُمْ فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَإِنْ أَخْطَأُوا فَلَكُمْ

وَعَلَيْهِمْ»^{١٢٧} ، يعني: الخطأ عليهم وليس عليكم، فالنقص الذي فيهم والجور الذي فيهم والتقصير الذي فيهم لا ينالكم منه شيء في صلاتكم وعبادتكم.

هل الأصل في المسلم من أهل القبلة السّلامة، أم العدالة؟

- نقول: العدالة تحتاج إلى تركية، أمّا السّلامة فهي الأصل حتى يأتي جرحٌ وما يُخالف الأصل، فإذا وُجد في المسلم فسقٌ أو جورٌ وصلّى بالنّاس، كأن يكون هو إمام المسلمين كالأمير، أو نائب الأمير، كلّفه الحاكم بإمرة بلده وصلّى بالنّاس إمامًا، نقول: الصّلاة خلفه صحيحة.
- وكذلك في زمن عثمان بن عفّان -رضي الله عنه- كما في صحيح البخاري لما حُوصِر من قبل الظّلمة الذي جاؤوا يدعون أنّهم يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر وكانوا مجموعة كبيرة، فحاصروا عثمان في بيته، ومنعوه أن يخرج إلى المسجد ليُصلّي بالنّاس، وصار أحد هؤلاء من أهل الفتنة يُصلّي بالنّاس، فجاء رجلٌ يسأل عثمان بن عفّان -رضي الله عنه- فقال: " إِنَّكَ إِمَامٌ عَامَّةٌ وَنَزَلَ بِكَ مَا نَرَى وَيُصَلِّي لَنَا إِمَامٌ فِتْنَةٌ وَنَتَحَرَّجُ".
- فقال عثمان بن عفّان -رضي الله عنه: " الصّلاة أحسن ما يعمل النّاس فإذا أحسن النّاس فأحسن معهم وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم"^{١٢٨}.
- انظر لعدل عثمان وفقهه -رضي الله عنه- وهذا يدلّك على صحّة الصّلاة خلف من تولى حتّى لو كان فيه جورٌ أو ظلمٌ، لكن لا ينبغي ولا يجوز أن يُقدّم للمسلمين النّاقص والذي فيه جور، بل يُقدّم الأفضل، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم: «يَوْمُ الْقَوْمِ أَقْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمَهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمَهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمَهُمْ سَلَمًا وَفِي رَوَايَةٍ فَأكْبَرَهُمْ سِنًا»^{١٢٩} ، هذا التّرتيب الذي ربّبه النبي -صلى الله عليه وسلم- فإذا لم يعمل به وحصلت المخالفة فالصّلاة صحيحة، لا ندع الجمعة، ولا ندع صلاة الجماعة لأجل نقص في الإمام؛ لأنّ هذا تعطيل لشعيرة من شعائر الدّين، وهذا من علامة أهلالبدع، فأهل البدع هم الذين يتركون الجُمع والجماعة؛ لأجل أنّ الإمام فيه نقص أو عيب، بخلاف أهل السُّنّة والجماعة، فأهل السُّنّة والجماعة يرون إقامة الجُمع والجماعات والجهاد والأعياد والحج مع أمراء المسلمين، أبرارًا كانوا أو فجّارًا، وهذه مسألة إجماع، ولهذا تجد بعض المفتونين من أهل البدع من الخوارج وغيرهم يعتزلون الجمعة والجماعة لنقص في الإمام، أو لسوء ظنّهم، أو لأنّهم يرونه على غير طريقتهم؛ فيعتزلون الجُمع والجماعات، وهذا ليس بمنهج أهل السُّنّة والجماعة، ولا منهج الصّحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم.
- تقدّم أنّ أوّل الأمر في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن بعده كان إمام المسلمين -الحاكم- هو إمام الصّلاة والذي يخطب بالنّاس، لكن بعد ذلك في الدّولة العبّاسية صار الذي يؤمّ النّاس يُعيّن من قبل الخليفة والحاكم، فصارت الإمامة والخطابة للعلماء ومن يختارهم وليّ الأمر، حتى في هذه الحالة قد يختار

^{١٢٧} البخاري (662)

^{١٢٨} البخاري (663)

^{١٢٩} مسلم (2373) عن أبي مسعود الأنصاري

ولي الأمر من فيه نقص، فحينئذ تصح الصلاة خلفه، قال: (وَنَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ)، ما دام أنه لم يخرج من الإسلام فالأصل صحة الصلاة؛ لأن الصلاة مصلحة عظيمة، وخير كبير، واجتماع المسلمين على هذا الأمر لا يمكن أن ندفعه لأجل نقص في الإمام، فهذا الأمر أمرهم جدًّا، وهو لزوم الجماعة والإمام.

● فمن لزوم جماعة المسلمين: أن تشهد الجمع والجماعات مع أمراء المسلمين وأئمة المسلمين أبرارًا كانوا أو فُجَّارًا، إِلَّا إِذَا كَانَ خَارِجًا عَنِ الْإِسْلَامِ -نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ- مثل: مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ وَيُعْلِنْ شِرْكَهَ وَيَسْجُدْ لغير الله، ويذبح لغير الله، ويطوف بالأضرحة، ويستغيث بالأموال، فهذا لا تصح الصلاة خلفه، ولا تُقبل الصلاة خلفه، ولا ينبغي أن يُقرَّ على الإمامة؛ بل يجب أن يُنصح حتى يتوب إلى الله -عزَّ وجلَّ- وإن لم يتب ويعتدل فإنَّ أمره يُرفع إلى مَنْ عنده الشأن، وعنده القدرة على تعيين مَنْ هو خير منه.

● ولكن إذا وجد مسجد إمامه عدل، ومسجد آخر إمامه مُبتدع أو ظالم أو فاسق، وهما بقرب الإنسان؛ فنقول: الأفضل والأولى أن يصلي خلف العدل، لكن إن لم يوجد إِلَّا هَذَا الْفَاسِقِ أو الظالم أو الجائر ولم يوجد مسجد غيره فلا بأس؛ بل لا يترك الصلاة خلفه حتى لا يتعطل عن الجمعة وعن الجماعة، هذا في حال إذا لم يوجد غيره.

● أمَّا إذا وجد غيره فيصلي خلف الأفضل مع استمراره في النصيحة ومحاولة إصلاح وضع الإمام، أو أن يُعيَّن مَنْ هو خير منه من قبل المسؤولين، ومن قبل مَنْ لديه الشأن في هذا الأمر، حسب الحال وحسب البلدان، وحسب المسؤوليات؛ لأنَّ بعض البلدان تكون المسؤولية عند التاجر مثل البلاد غير الإسلامية، فالتاجر المنفق هو المسؤول عن المركز أو المسجد، فيجب عليه أن يُعيَّن الأفضل والأعلى حسب ما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- فَيُرفَعُ الأمرُ إليه، فإن لم يستجب فلا نترك الجمعة والجماعة، ونصلي خلفه. أمَّا في البلدان الإسلامية فهناك جهات مسؤولة عن المساجد وعن الأئمة، فَيُرفَعُ إليهم حتى يُعيَّن الأعلى والأفضل.

● قال: (وَعَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ).

هذه مسألة أخرى، وهي صلاة الجنازة على المسلم إذا مات ولو كان فاسقًا، ولو كان فاجرًا فإننا نصلي عليه، فالمسلم له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين، أمَّا إذا خرج عن الإسلام -نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ- فإنه لا يصلي عليه، لكن مسألة الردة لا يحكم فيها الإنسان بمفرده، لابد أن يرجع إلى أهل الاختصاص، فإن كثيرًا من الناس يتعجل في هذه الأمور، وربما يقع في ورطات، وربما يخرج الإنسان من الملة وهو ليس كذلك، فلابد من الرجوع إلى قواعد أهل السنة والجماعة، وإلى أهل العلم والبصيرة، أمَّا كلُّ أحد يحكم على الآخرين برأيه وبِعقله، فهذا وإن كانت نيته طيبة فهذا يكون فيه فتن، ويكون فيه لغط، وربما يقتتلون في المسجد بسبب مثل هذه الأحكام التي لم تصدر عن أهل العلم والبصيرة، وأهل الشأن.

● فالحكم بالردة أمر خطير جدًّا، لا يجوز للإنسان أن يتعجل فيه، لابد أن يكون فيه على بصيرة، وعلى رجوع لأهل العلم وأهل الفتوى وأهل القضاء؛ حتى يتبين الأمر.

أما مجرد شخص بمفرده يحكم فإن هذا مظنة الفتنة له ولمن علم بشأنه؛ لأنه قد يقول لهم: لا تصلُّوا على هذا....، ويقتل مع أولياء الجنازة وأهلها، فيحدث ما لا تُحمد عُقباؤه، ولهذا فإن هذه من المسائل العظيمة التي يجب الرجوع فيها لأهل القضاء وأهل الفتوى وأهل العلم، فلا يجوز للإنسان أن يستعجل فيها ويتسرع بغير حق.

• ويُنَبِّه إلى أمر! أن قاتل نفسه والمحاربين لله ولرسوله وقُطَاعِ الطُّرُق، والبُغَاة، والخوارج، وأصحاب الجنايات العظيمة؛ ذكر بعض الفقهاء -رحمة الله عليهم- أنه ينبغي لأهل العلم والفضل أن يتركوا الصَّلَاة عليهم إذا ماتوا من باب زَجْرٍ غَيْرِهِمْ عَنْ فعلتهم، لكن لا تُتْرَك الصَّلَاة عليهم مطلقاً، فيصلِّي عليهم طائفة من المسلمين، ولا يجوز ألا يُصلِّي عليهم؛ لأن هذه الأشياء التي ذُكِرَتْ أمثلتها لم تخرجهم من الملة، فهم مسلمون ويُصلَّى عليهم، لكن ثبت في السنة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ترك الصلاة على قاتل نفسه، رجل قتل نفسه بمشاقص حرَّ بها يده حتى مات، فترك الصلاة عليه -صلى الله عليه وسلم- ولكن صلَّى عليه بعض الصحابة، وهكذا الذي كان عليه دينٌ وقد مات، فقال -صلى الله عليه وسلم-: «**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**»^{١٣٠}، وهذا يدلُّ على خَطَرِ الدِّينِ وشأنه في الدِّين.

• فالمقصود: أن الصَّلَاة على من مات من المسلمين من أهل القبلة من عقيدة أهل السنة والجماعة، ولذا لا نترك الصَّلَاة عليه؛ لأنه مثلاً فاسق معروف بشرب الخمر، أو معروف بالربِّيا، نقول: نصلي حتى لو فعل هذه الموبقات، يُصلَّى عليه، ولا نترك الصَّلَاة على المسلم ما دام مسلماً، فهذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة.

؟ بالنسبة للقاتل الذي قتل مسلماً، وفي حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»^{١٣١}، فالذي يَتَصَدَّى لِقَتْلِ مُسْلِمٍ، فإذا مات هل يُصلَّى عليه أو لا؟

• القاتل ارتكب كبيرةً من أعظم كبائر الذُّنُوبِ بَعْدَ الشِّرْكِ بالله، وتقدَّم ذكر الكبائر، وأنَّ القتل من أعظم الكبائر، وقد قال الله -عزَّ وجلَّ- في شأنه: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93]، وثبت في السُّنَّةِ الوعيد الشديد فيمن يقتل مسلماً بغير حقٍّ، ومع هذا فإنه قد أجمع أهل العلم وأهل السُّنَّةِ والجماعة على أنَّ القتل وإن كان جريمة عظيمة إلا أنه لا يُخرج صاحبه من مِلَّةِ الإسلام.

• وأما قوله -صلى الله عليه وسلم-: «**سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»، فالمراد به الكفردون الكفر، أي: الكفر الأصغر الذي لا يُخرج من الملة؛ لأنَّ الأدلَّةَ الأخرى دلَّت على عدم خروجه من الملة، مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 178].

✱ فالعافي: هم أولياء الدَّم.

✱ والمعفو عنه: هو القاتل.

^{١٣٠} صحيح البخاري (2176) و"صحيح مسلم" (1619) من حديث أبي هريرة
^{١٣١} رواه البخاري (رقم/48)، ومسلم (64).

❖ والمقتول سمّاه الله أخًا للقاتل، قال: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فَأَنْبَتَ لَهُ الْأُخُوَّةَ مَعَ وُجُودِ الْقَتْلِ.

- وهكذا قال في الطائفتين: ﴿وَأَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [آل عمران: 122] ثم قال في موضع آخر: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: 10]، وغير ذلك من الأدلة وقد تقدّم ذكرها في موضعها عند الكلام عن الكبائر وأنها لا تخرج من الملة، فبالتالي عرفنا أن قوله -صلى الله عليه وسلم: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ» أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُخْرِجٍ مِنَ الْمِلَّةِ، ولكن مثل ما تقدّم أن الإمام والحاكم وشيخ البلد والقاضي ونحوهم من أهل العلم والفضل لا يُصَلُّونَ عليه من باب التعزير والزجر لغيره حتى لا يفعل فعلته، وإنما يُصَلِّي عليه طائفة من المسلمين.

هل يُسْتَنَى الزَّنا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثَبَتَ أَنَّهُ صَلَّى عَلَى الْغَامِديَّةِ بَعْدَ أَنْ رُجِمَتْ؟

- الزَّنا-نسأل الله أن يُعافينا وإياكم وجميع المسلمين- من الجرائم الكبيرة، ومن كبائر الذنوب، وذكرنا قاتل نفسه أو الذي يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فسادًا، والخوارج، ورؤوس أهل البدع ونحوهم؛ هؤلاء هم الذين ذكرهم العلماء بناء على ما وَرَدَ في السُّنَّةِ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ خَلْفَ قَاتِلِ نَفْسِهِ لِلإِمَامِ ونحوه، وليس لعموم المسلمين.
- أمَّا الْغَامِديَّةُ^{١٣٢}-رحمها الله ورضي عنها- فإنَّها قد أُقِيمَ عليها الحدُّ، والحدود كَقَارَاتٍ لِأَصْحَابِهَا، وقد تقدّم معنا حديث عبادة بن الصَّامِتِ في بيعة النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِلْمُسْلِمِينَ، حيث قال: «فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَرَّهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَمَرَهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ»^{١٣٣}، فمن أقيم عليه الحدُّ ممَّن ارتكب هذه الأمور فإنَّ إقامة الحدِّ تمحو أثر الذَّنْبِ، فهو كمن لم يُذنب.

ما حُكِمَ الصَّلَاةُ خَلْفَ مَنْ كَانَتْ عَقِيدَتُهُ باطلة؟ ، هل نُصَلِّي خلفه كالأحمدية أو القادرية أو

الشيعة؟.

- هَذِهِ الطَّوَائِفُ الَّتِي ذَكَرْتَهَا تَخْتَلِفُ، وبعضها أجمع علماء الإسلام على خروجها عن الدين، فالأحمدية -وهم القاديانية- اتَّفَقَ علماء الإسلام على أنَّهم ليسوا مُسلمين، وبالتالي لا تَصِحُّ الصَّلَاةُ خَلْفَهُمْ.

^{١٣٢} روى مسلم (1695) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بَرِيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهَّرْنِي فَقَالَ وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ قَالَ فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهَّرْنِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ قَالَ فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهَّرْنِي فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ الرَّابِعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَطَهَّرَكَ فَقَالَ مِنَ الزَّانِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبِي جُنُودٍ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُجْنُونٍ فَقَالَ أَشْرَبَ خُمْرًا فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَ فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خُمَرٍ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَنْبِتَ فَقَالَ نَعَمْ فَأَمَرَ بِهِ فَرَجِمَ فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ قَائِلٌ يَقُولُ لَقَدْ هَلَكَ لَقَدْ أَخَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ وَقَائِلٌ يَقُولُ مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلُ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ ثُمَّ قَالَ اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ قَالَ فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ جُلُوسٌ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ فَقَالُوا غَفَرَ اللَّهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ قَالَ ثُمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِيزٍ مِنَ الْأُرْدُنِّ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهَّرْنِي فَقَالَ وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَقَالَتْ أَرَأَيْكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ وَمَا ذَلِكَ قَالَتْ إِنَّهَا خُبَلِي مِنَ الزَّانِي فَقَالَ أَنْتِ قَالَتْ نَعَمْ فَقَالَ لَهَا حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكَ قَالَ فَكَفَلَهَا رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ قَالَ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ قَدْ وَضَعْتَ الْغَامِديَّةَ فَقَالَ إِذَا لَا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيْسَ لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ إِلَيَّ رِضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ فَرَجَمَهَا

^{١٣٣} مسلم (1709)

• وأما القادرية -وهي طريقة صوفية- فهم أهل بدع، ومنهم من هو أهل غلو وشرك واستغاثة بالأموات، ودعاء للأولياء من دون الله، واعتقاد أنهم يعلمون الغيب، فمن كان على هذه الطريقة فلا تصح الصلاة خلفه، لأنه وقع في عقائد شركية مخالفة لأصل الدين، ومناقضة لما في الكتاب والسنة ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:65]، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [البجن:18]، وهم يدعون مع الله غيره، ويعتقدون أنه يعلم الغيب.

• أما من لم يكن على هذه المرتبة ولم يبلغ هذا الغلو الذي هو الشرك الأكبر والكفر الأكبر، وإنما في بعض البدع وقع دون أن يصل إلى هذا؛ فهو يعتبر من الذين وقعوا في البدع، فيُنصَح لعلَّ الله يتوب عليه ويقطع عن هذه الأمور.

والأول أيضًا يُنصَح، لكن لا تصح الصلاة خلفه، فكلهم يُنصَحون، حتى الأحمديَّة يُنصَحون لعلهم يتوبون ويرجعون للإسلام، لكن فرق بين من وقع في بدعة ومن وقع في شرك أكبر.

{(وَلَا نُنْزِلُ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا، وَلَا نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ، وَلَا بِشِرْكٍ، وَلَا بِنِفَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى).}

• يقول الطحاوي -رحمه الله: (وَلَا نُنْزِلُ أَحَدًا مِنْهُمْ)، الكلام هنا عن أهل القبلة، إذا رجعت إلى النص السابق يقول: (وَنَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ)، ثم قال: (وَلَا نُنْزِلُ أَحَدًا مِنْهُمْ). إذن المراد هم أهل القبلة، وليس عموم الكفار، فأهل القبلة هم من أظهروا الإسلام، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاتِنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ فَلَا تُخْفَرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ»^{١٣٤}، هكذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

• الحكم بأن هذا في الجنة وهذا في النار من قبيل الغيب، فالرجل مهما بلغ من الصلاح، ومهما بلغ من التقوى، ومهما بلغ من الفضل؛ لا يجوز لنا أن نحكم بالأمور الغيبية عليه أنه في الجنة، ولكن نرجوا له الجنة، ونُحَسِّنُ الظَّنَّ بالله -عزَّ وجلَّ- أن يُكْرِمَنَا وَيُكْرِمَهُ بِالْجَنَّةِ. وكذلك العكس، فمن ظهر منه الفجور والمعاصي والإصرار عليها حتى مات؛ فهذا لا يجوز لنا أن نحكم عليه بأنه في النار، فلا نحكم على أحد من المسلمين مهما عمل من المعاصي لا نحكم عليه بالنار، لأننا ما ندري، لأن الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 116]، فما لنا إلا الظاهر، والله يتولى السرائر.

• لكن من شهد له الكتاب والسنة بالجنة فنشهد له بالجنة، فالعشرة المبشرون بالجنة: "أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ وَسَعِيدُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ"^{١٣٥}، هؤلاء العشرة شهد لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالجنة، وغيرهم كذلك شهد لهم النبي بالجنة، كأهل بدر، وكانوا ثلاث مائة وبضعة عشر،

^{١٣٤} البخاري (384)
^{١٣٥} مسند أحمد (1608)

وكذلك مَنْ بايع تحت شجرة الرضوان، وكانوا ألفاً وخمسمائة، ومن الصحابة الذين شُهِدَ لهم بالجنة في الأحاديث: عبد الله بن مسعود، وأبو هريرة، وبلال بن رباح ^{١٣٦}، وثابت بن قيس بن شماس، وأمّهات المؤمنين كلهنَّ في الجنة (خديجة، وعائشة،...)، إلى آخره، وعبد الله بن سلام، وعكاشة بن محصن ^{١٣٧}، وهناك آخرون.

فالمقصود: أنَّ هؤلاء معيّنون في الأحاديث، فنعيّتهم، وهذا معنى قوله: **(وَلَا نُزِّلُ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا)**.

قال: **(وَلَا نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ، وَلَا بِشِرْكٍ، وَلَا بِنِفَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ**

تَعَالَى)، هذا في الدنيا، فلا نقول عن شخصٍ إنّه كافر، أو نقول عن شخص عنه إنّه مُشركٌ، أو شخص نقول

عنه إنّه منافق؛ فهذا لا يجوز إلّا إذا ظهر منهم ما يدلُّ على هذا، كأن يظهر باللسان أو بالكتابة، أمّا ما في

قلوبهم -المقاصد والنيّات- فلا نعلمها، هناك قرائن محتققة أحياناً، فترى الرَّجل يميل إلى بعض مَنْ عُرفوا

بالنِّفاق والعداء للإسلام، يميل إليهم، ويضحك معهم، وربّما يجالسهم؛ فما تأتي تقول هو منافق إلا بشيءٍ

صريح ظهر منه، ما يكفي الظَّن، وفي هذا الحديث المشهور لما قال بعض الصّحابة للنبي -صلى الله عليه

وسلم: يا رسول الله إننا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم: «أليس يشهد أن

لا إله إلا الله، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» ^{١٣٨}.

وكذلك ما أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: "إِنَّ أَنَاسًا كَانُوا

يُؤْخَذُونَ -يعني: يحاسبون- بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا

نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَنَّا وَقَرَّبَنَاهُ وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ اللَّهُ

يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنَّهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ ^{١٣٩}، انتهى

كلامه -رضي الله عنه.

فهذا كلام عظيمٌ، وهذا هو ما عليه أهل السُّنَّة قاطبة، أنّهم لا يعملون بالظُّنون، وإنّما يعملون بما أظهر

الناس، فيحكمون عليهم بالظّاهر، والله يتولى السّرائر، مثلما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «وَحِسَابُهُمْ

عَلَى اللَّهِ تَعَالَى» وذلك في قوله: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ

اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ،

وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى» ^{١٤٠}.

فعمّر -رضي الله عنه قال: "إِنَّ أَنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ -يعني: يحاسبون- بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ"، فما عاد ينزل وحي بعد النّبي -صلى الله عليه وسلم- إلى قيام الساعة،

^{١٣٦} روى البخاري (1149)، ومسلم (2458) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: (يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ ذَكَرَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ) قَالَ: " مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي : أَنِّي لَمْ أَطْهَرْ طَهُورًا ، فِي سَاعَةٍ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطَّهُورِ مَا كَتَبَ لِي أَنْ أَصَلِّيَ " .

^{١٣٧} البخاري (6175) قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَضَتْ عَلَى الْأُمِّمِ فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْأُمَّةُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ النَّفَرُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْعَشِيرَةُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْخُمْسَةُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُ وَحْدَهُ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قُلْتُ يَا جَبْرِيلُ هَؤُلَاءِ أُمَّتِي قَالَ لَا وَلَكِنْ أَنْظُرِي إِلَى الْأَفْقِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قَالَ هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قَدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ قُلْتُ وَلَمْ قَالَ كَانُوا لَا يَكْتُمُونَ وَلَا يَسْتَرْفُونَ وَلَا يَنْتَفِرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقَامَ إِلَيْهِ عَكَاشَةُ بْنُ مَحْصَنٍ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ اللَّهُ أَجْعَلُهُ مِنْهُمْ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ قَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ

^{١٣٨} البخاري (1119)

^{١٣٩} البخاري (2460)

^{١٤٠} رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

حتى عيسى بن مريم إذا نزل لن يُوحى إليه، فهذا الوحي انقطع، والشريعة تَمَّتْ وكُمُلَتْ، فرسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم- هو خاتم النَّبِيِّينَ والمرسلين، فلا نبي بعده، ولا رسول بعده. والأعمال والأقوال توزن بالكتاب والسُّنة، لأن هذا هو ميزان الحقِّ والقسطِ.

• قال عمر: "وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمْنَاهُ وَقَرَّبَنَاهُ وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنَهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ". فالعبرة بما ظهر منه.

هذا الأمر يدعوك أيها المسلم إلى أنك ما تتعجل في الحكم على الآخرين إلا بما ظهر وبما فيه بينة شرعية، وهذا هو الذي أمرنا الله -عزَّ وجلَّ- به في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]، ومثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 94].

• فالمقاصد والنِّيَّات لا يعلمها إلا الله -عزَّ وجلَّ- فالمسلم يجب أن يكون مُتَحَرِّيًا للحقِّ والعدل، وألا يحكم على النَّاسِ بِالظُّنُونِ والأهواء، وإنما يحكم عليهم بما ظهر منهم، وهذا معنى قوله: (وَلَا نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ، وَلَا بِشِرْكٍ، وَلَا بِنِفَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى).

• أمَّا مسألة الشَّهادة للمعيَّن بالجنَّة إذا مات فقد تقدَّم الكلام فيها، ولكن للسَّلف فيها ثلاثة أقوال:

◀ **القول الأول:** أنه لا يُشْهَد إلا للأنبياء. وهذا منقول عن بعض المتقدمين، وهذا قول ضعيف.

◀ **القول الثاني:** يُشْهَد لمن شهد له الكتاب والسُّنة، وهذا هو قول أكثر أهل العلم، وهو الأقرب.

◀ **القول الثالث:** يُشْهَد بالاستفاضة، فمن استفاض عند أهل العلم والخير والعدل والتقوى والصَّلاح

أنَّه من أهل الفضل والخير فيُشْهَد له بالجنَّة، ومن كان عكس ذلك فيُشْهَد له بالنَّار. ولكن هذا

القول فيه شيء لأنَّ الحجَّة التي اعتمدوا عليها حديث في البخاري أنَّه مُرَّ بجنَّاة على النبي -صلى الله

عليه وسلم- فأتوا عليها خيرًا فقال -عليه الصلاة والسلام: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ»، فمرَّ بجنَّاة

فأتوا عليها شرًّا، فقال: «وَجَبَتْ»، فلمَّا سأله، قال: «مَنْ أَتَيْنِيكُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ

أَتَيْنِيكُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^{١٤١}.

والخطاب هنا للصَّحابة وهم خير القرون، ومن تبعهم وكان على طريقتهم فهذا القول ينزل على هؤلاء، أمَّا من

كان دونهم مثل أهل الفسق وأهل الفجور فلا يُعْتَبَرُ بشهادتهم ولا يُستفادُ منه شيء.

مثال ذلك: هناك مجموعة من الخمَّارين يبيعون الخمر-نسأل الله العافية- فمات واحدٌ من هؤلاء الخمَّارين

فقالوا: هذا طيب يُرَخِّصُ لنا السَّعْرَ ويُخَفِّضُه. فأتوا عليه خيرًا، هل هذه الشَّهادة تنفعه؟

الجواب: لا تنفعه؛ لأنَّ هؤلاء شهادتهم مجروحة.

^{١٤١} أخرجه البخاري (1367)، ومسلم (949)

فالخطابُ في الحديثِ للصَّحابةِ وَمَنْ كَانَ على طريقتهم مِنْ أئمةِ العلمِ وأئمةِ السُّنَّةِ وأئمةِ الفضلِ والتَّوحيدِ، فهذا هو المراد.

فالمقصود يا إخوان: أَنَّ الكلامَ على المعَيَّنِ مِنْ أَهْلِ القِبلةِ والحكمِ عليه بالجنة. أمَّا الحكمُ عليه بالنَّارِ فقد تقدَّم أيضًا أَنَّهُ لَا يُحَكَّمُ عليه بالنَّارِ.

- أمَّا مَنْ كَانَ خارجَ أَهْلِ القِبلةِ، مثل النَّصارى واليهود والمجوس والملاحدة اللادينيين، هؤلاء يُحَكَّمُ عليهم بالنَّارِ، فكل مَنْ بلغته دعوة النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- ولم يدخل في دين الإسلام فهو من الكفَّار وهو في النَّارِ، قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: 64-66]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 6]، فالله -عزَّ وجلَّ- حكم عليهم، فالشَّرطُ هنا أَنْ تبلغه الدَّعوة.
- أمَّا مَنْ لم تبلغه الدَّعوة كأهلِ الفترةِ والهَرَمِ أو المجنون، أو الصَّبي الذي يموت دون البلوغ ولم يبلغه الإسلام، أو مَنْ كَانَ دون ذلك وهو الطِّفل؛ فهؤلاء أرجح الأقوال أَنَّهُمْ يُمْتَحَنُونَ يومَ القيامةِ ويُخْتَبَرُونَ، لكن في الظَّاهر أَنَّهُمْ مُلْحَقُونَ بالكفَّار، فحكم في الظَّاهر أَنَّهُمْ يُدْفَنُونَ في مقابر الكفَّار ويُعاملون معاملة الكفَّار، لا يرثون أهل الإسلام ولا يرثهم المسلمون، فيعاملون معاملة الكفَّار، صبيان الكفَّار، أو صبيان النَّصارى، أو الهَرَمِ من النَّصارى، أو المجنون من النَّصارى، أو اليهود، أو المجوس، ونحو ذلك.
- فنقول: الكفَّار في النَّارِ كما قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: 64]، ما استثنى أحد.
- فلا نقول: إِنَّ الكفَّار ليسوا في النَّارِ.
- ولا نقول: لا ندري أَهم في النَّارِ أم لا.
- لا، إِنَّمَا ندري ونعلم، فالله علَّمنا وأخبرنا، الله الذي خلق الخلق أخبرنا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: 64]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البينة: 6]، كيف نقول أَنَّهُمْ ليسوا في نار جهنم؟ نخالف القرآن؟! أو نناقض القرآن؟! فهذا كلام باطل!
- وللأسف بعضُ المفتونين يحاول أن يسوِّقَ للآراءِ الإلحاديةِ الباطلةِ هذه، فيجبُ علينا أن نلزمَ غررَ القرآنِ والسُّنةِ ولا نتعدَّى القرآنَ والسُّنةَ، ولا نبالي بكلامِ الأعداءِ.
- هذا ما يتعلق بقوله: (وَلَا تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ، وَلَا بِشُرْكِ، وَلَا بِنِفَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى)، فالله -عزَّ وجلَّ- أمرنا أن نحكمَ بالظَّاهرِ واللهُ يتولَّى السَّرائِرَ.
- وأمَّا اتِّبَاعُ الظَّنِّ والظُّنونِ فلا يجوزُ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12]، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ

عَنْهُ مَسْئُولًا [الإسراء: 36]، هذا ما يتعلق بهذه الجملة: (وَلَا تُزِلُّ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا، وَلَا تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ كُفْرًا، وَلَا بِشْرًا، وَلَا بِنِقَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى).

؟ حديث «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» ^{١٤٢}، هل يفهم منه أن مَنْ قالها وهو يحتضر أن يشهد له بالجنة؟.

• هذه بشاره خير يُفْرَحُ له بهذه الخاتمة الحسنة، ولكن لا تشهد له بالجنة بعينه، ولا يجوز ذلك، لأن هذا أمرٌ غيبٌ.

• وأمّا معنى الحديث: أنه يُرَجَى له الجنة، فكلُّ مسلمٍ حتى ولو لم يقل عند احتضاره هذه الكلمة لومات وهو فراشه نائم، أو مات بغير ذلك من الأسباب فإنه يُرَجَى له الجنة إذا كان من أهل الطاعة والخير.

؟ إذا رُؤِيَ هذا الشخص في المنام أنه في حال طيب فهل يُحكم له بالجنة؟.

• الرؤى مبشرة، تسرُّ ولا تضرُّ.

{قال المؤلف -رحمه الله تعالى: (وَلَا نَرَى السَّيْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ)}.

• هذه الجملة مهمة جدًا (وَلَا نَرَى السَّيْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

السيف: هو القتل، لأنه سلاح يستعمل في القتل.

والمعنى: لا نرى القتل لأحد من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- ولا نرى السيف حتى على أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-.

فهذه مسألتان:

□ **المسألة الأولى:** المسلم الواحد، فله حرمة وله حقٌّ، ولا يجوز أن يُقتل ولا يُعتدى عليه لا في دمه ولا في

ماله ولا في عرضه، قال -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا» ^{١٤٣}، فالؤمن له حرمة عظيمة إذا قال "لا إله إلا الله"

ودخل دين الإسلام فإنه يُعَصَّم ماله ودمه، وحسابه على الله -عزَّ وجلَّ- ويجب عليه أن يلتزم بشعائر

الإسلام، لكن إذا حصل منه تقصير يُعامل بحسب التقصير وبحسب العمل الذي عمَّله، لكن لا يجوز

أن يُقتل وأن يُعتدى على دمه، فحرمة المسلم عند الله عظيمة جدًا، والنُّصوص في هذا كثيرة جدًا في

بيان حرمة دم المسلم، قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا

وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93].

• هنا قال: (إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ)، فهناك أناس من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- من أهل القبلة

ويجب في حقهم أن يُقتلوا بالشرع المطهر، وقد جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيانهم، قال -

^{١٤٢} مسند أحمد (21553)، سنن أبي داود (2711).

^{١٤٣} التاريخ الكبير للبخاري، مسند أحمد (20162).

عليه الصَّلَاة والسَّلَام: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثِ الثَّيْبِ الزَّانِي ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمَفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^{١٤٤}.

★ الأول: الثيب الزاني. من هو الثيب الزاني؟

الثيب الزاني: هو المحصن الذي سبق أن وطأ زوجته في نكاحٍ صحيحٍ، وهما عاقلان بالغان حُرَّان، فإذا زنى فحينئذٍ فإنه ارتكب حُدًّا، وعقوبته الرجم حتى الموت، ويُطبَّق هذا الحدُّ عن طريق المحكمة الشرعيَّة، وعن طريق وليِّ أمر المسلمين، الأحكام الشرعيَّة هذا شأنها كلها، فلا تُطبَّق بالأهواء ولا بأحدِ النَّاسِ وأفرادهم، فلا يُفتات على وليِّ الأمر، ولتطبيق هذا الحد شروطٌ وضوابطٌ عظيمةٌ مذكورة في حدِّ الزَّنا، فهذا الثيب الزاني.

★ الثاني: النفس بالنفس: وهو أنَّ المسلم إذا اعتدى على مسلمٍ آخرٍ فقتله، فإنَّ لأهل الدَّم الحق أن يقتصُّوا من القاتل، وحينئذٍ يُقتل القاتل قصاصًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ: الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى﴾ [البقرة: 178]، وقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45].

★ الثالث: التَّارِكُ لِدِينِهِ الْمَفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ.

التَّارِكُ لِدِينِهِ هو: المرتد عن الإسلام والتَّارِكُ له، فمن دخل في دين الإسلام ثم تركه وارتدَّ عنه فهو مرتد، قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^{١٤٥}، والتَّارِكُ لِدِينِهِ فارق الجماعة، فيكون المَفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ حينئذٍ وصفًا كاشفًا.

وقد يكون المعنى أنَّه وصفٌ مؤسَّسٌ لمعنى وهو أنَّ التَّارِكُ لِدِينِهِ يُقتل، والمفارق للجماعة مثل البغاة وقطَّاع الطُّرُق المحاربون لله ورسوله، قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ: ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ: فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 33، 34]، فهؤلاء بيَّن الله عقوبتهم، ومنه القتل أو الصَّلب، والصَّلب من القتل ولكنَّه عقوبة أعظم، فرتَّب جزاءهم على حسب جرائمهم، فمنهم مَنْ يُنفى.

وكذلك البغاة يُقاتلون، قال تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: 9].

وكذلك الخوارج يُقاتلون، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»^{١٤٦}، وهؤلاء الخوارج يجب قطع دابرهم وقتلهم، وإلا استفحل الشُّرْعُ على المسلمين، لأنَّ حفظَ بيضة الإسلام، وحفظَ بلاد الإسلام لا يتمُّ هذا إلا بقطع دابر هؤلاء بقتلهم، فهؤلاء يستثنون.

^{١٤٤} صحيح مسلم (3182).

^{١٤٥} صحيح البخاري (6439).

^{١٤٦} أخرجه البخاري (6930)، ومسلم (1066).

• هذا معنى مَنْ وجب عليه السَّيْف، ومعنى قوله: **(وَلَا نَرَى السَّيْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ)**.

□ **المسألة الثانية:** هو الخروج على أمة الإسلام والمسلمين، وعلى ولاية الأمور، وهذا سيأتي في الجملة

التي بعدها، لكنَّ علماء السلف الذين يكتبون العقيدة دائماً يعبرون بهذا **(وَلَا نَرَى السَّيْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)**، وهو الخروج على ولاية أمور المسلمين، فهذه عقيدة عند أهل السنة والجماعة، لأنَّ الخروج على ولاية أمور المسلمين باطل ومحرم، ولا يراه أحد من علماء أهل السنة إطلاقاً، فيعبرون بالسَّيْف على الخروج.

• والخروج بالفعل يكون بحمل السلاح وحمل السَّيْف، لأنَّ السَّيْف سلاح، فكانت الأسلحة في ذلك الوقت كانت السُّيُوف والرِّمَاح والسِّهَام، والآن الأسلحة تختلف، فحمل السلاح هو سلُّ للسَّيْف على أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- فإذا حمل السلاح فإنه يقتل برَّها وفاجرها، ولا يفي لذي عهدٍ بعهد؛ فهو يرى السَّيْف على أمة محمد، ولهذا فإنَّ هؤلاء هم الخوارج ومن شابههم.

• ولكن انتبه أنَّ الخروج بالفعل بحمل السلاح يسبقه خروج قولي، وخروج فكري، وخروج عقدي؛ بأن ينشر الآراء الفاسدة التي تتضمن تغيير عقيدة المسلم، فيأتي عندك وأنت سليم الصِّدْر تجاه المسلمين، وقلبك فيه المحبة للمسلمين عامتهم رعاة ورعية، وتودُّ لهم الخير؛ فيأتيك ويقول لك: هذا فعل كذا، هذا قال كذا، هذه المسألة كذا وكذا...؛ حتى يجعلك تقتنع بأرائك افلاسدة، فحينئذٍ يصبح في قلبك غل على المسلمين، وبعد ذلك ينقلك إلى المرحلة الثانية وهي حمل السلاح.

فيبدأ أولاً بنشر الأفكار السيئة والعقائد الفاسدة، والمرحلة الثانية إذا كان الرجل يحمل العقائد الفاسدة صار مهياً لأن يخرج على جماعة المسلمين، لأنَّه لا يراهم مسلمين أصلاً بسبب هذه العقائد الخبيثة.

• فالمقصود: أنَّ التَّحريض والفتوى بغير حقِّ كلها يعدُّ من الخروج القولي الذي يسبق الخروج الفعلي، فما خرجت طائفة على ذي سلطانٍ تقاتله إلا قبلَ خروجها كان هناك تهيجٌ وتحريضٌ، وكان هناك آراء فاسدة؛ حتى حملت هؤلاء على القتال -نسأل الله العافية والسلامة- فلا نرى الخروج على ولاية أمور المسلمين.

• ويدخل في هذا تنفيذُ الحدود الشرعية، فتنفيذُ الحدود الشرعية يكون مرجعه إلى وليِّ الأمر، فهو الذي يُنفذُ الحدود، فلا يجوز أن يُنفذَ الحدود أحاد الرعية، الحدود الشرعية إنما تكون عند وليِّ الأمر، ولا يجوز

الافتيات عليه، قال تعالى: **﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾** [النور: 2] هنا الحد: الجلد،

وقوله: **﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا﴾** [المائدة: 38]، الحد هنا: القطع. ونحو ذلك من الحدود الشرعية، فلا

يجوز لأحد أن ينفذها، وإلا لعمت الفوضى، وهذا يسمى الافتيات على ولاية الأمور، وإنَّما يجب الرجوع إلى القضاء الشرعي، ثم حكم وأمر وليِّ الأمر، وبعد ذلك ينفذ الحكم حسب توجيه ولي الأمر ولا يفتات عليه، إذا قصر فيتحمل هو الإثم، ولكن لا يبدأ الرعية بإقامة الحدود.

• بعضهم يقول: إنَّ عبد الرحمن بن مهدي يقول: "لورأيتُ جهميًّا على الجسر لكسرتُ عنقه، أولرميته أو

لقتلته"، فمراده هو التحذير من الجهميَّة، وفي الرواية الأخرى قال: "لو كان لي من الأمر شيء ورأيتُ جهميًّا

لفعلت كذا وكذا، فهو يُبين أنَّ هذا هو الواجب على ولي الأمر، ولكنَّه لم يقل أنَّه يفعل ذلك بنفسه، ولهذا لم يَقم عبد الرحمن بن مهدي ولا أحد من أئمَّة الإسلام بتنفيذ الحدود كما يدعو إلى ذلك بعض من غلِطَ في هذه المسائل وظنَّ خطأً بأهل العلم.

كذلك من الأشياء التي يجب التَّنبيه عليها ويدخل في هذا **المعنى (وَلَا نَرَى السَّيْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)**، ما يدعو إليه الخوارج اليوم بما يسمونه بـ"سنة الاغتيالات"، فيريدون نشر أن يُغتال النَّاس ويُغدر بهم ويُفتك بهم بالتَّفجير وبالقتل غيلةً وغدرًا ومكرًا؛ حتى سمعنا في بعض البلدان الإسلاميَّة: أنَّ المسلم يخرج من صلاة العشاء فيأتي مَنْ يقتله، أو يخرج من صلاة الفجر فيأتي من يقتله! فهؤلاء هم الخوارج، والاغتيالات ليست سنَّة في الشَّريعة الإسلاميَّة.

أمَّا كعب بن الأشرف كان يهودي، وهو رئيس اليهود، وكان يهجو النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- ونقضَ العهد الذي كان بينه وبين النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- والذي أصدر الحكم بقتله هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إمام المسلمين، فهذه الأمور كلها مجتمعة، ولا يصح أن تقيسوا عليها ما تفعلونه بالمسلمين أو بالمعاهدين، فكلُّ هذا من الإنحراف الفكري الذي يُروِّج إليه هؤلاء الغلاة المنحرفون.

فنحن نحذِّر من هذه الضَّلالات، وما قلناها إلا لأنَّها منتشرة في بعض البلدان من هؤلاء الجُهلة الذين ظنُّوا أنَّهم ينصرون الدِّين وهم ينصرون أعداء الدِّين، فلا للإسلام نصروا، ولا للأعداء كسروا؛ فهذه من الجرائم العظيمة، وهو أنَّهم يقيسوا أفعالهم على ما حصل في زمن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- عاهد اليهود فغدروا ونكثوا العهد.

إذن ولي الأمر هو الذي يتصرف وليس أنت يا فرد، فما قام أحدٌ من الصَّحابة دون أمر النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- أبدًا، فكيف أنت تفعل الأمور دون أمر ولي أمر المسلمين!

أمَّا التنظيمات المجهولة والمختفية، وتدَّعون أنَّ رئيسكم هو أمير المسلمين!

لا، هو ليس أميرًا، أنتم أمَّرتموه وهو مختفٍ، وهذا ليس له شأن، فهؤلاء لا عبرة بهم، إنَّما يكون الإمام ظاهرًا شاهرًا له نفوذ وشوكة، أمَّا مَنْ تتبعونهم من الخلايا الإجماريَّة فهؤلاء لا عبرة بهم ولا يجوز لك أن تعتقد هذه الأفكار؛ بل المسلمون لهم حرمة، والمصلُّون لهم حرمة، والمعاهدون لهم حرمة، فمَنْ وقع في هذا فلينبُ إلى الله.

وهؤلاء الخوارج عندهم شبهات أخرى، فهم يرون السَّيف على أُمَّة محمد -صلى الله عليه وسلم- ويأتون بشبهات يغرون بها السُّدَّج، مثل شبهة "التَّترُس"، يقولون: نقتل العسكري المسلم أو الجندي المسلم، لأنَّ العدو تترس به.

والتَّترُس مسألة قديمة وقعت لما كان جيش الكفَّار يأخذ بعض الأسارى ويربِّطهم في مقدِّمة السَّفينَة أو في مقدِّمة الجيش حتى لا يرمي المسلمون عليهم شيئًا، لأنَّ الأسارى مربوطون في مقدِّمة جيش الكفَّار، فيتحرَّج بعض جنود المسلمين من رمي السَّلاح على الكفَّار لئلا يصيب إخوانهم الأسارى، فالكفار اتَّخذوا بعض المسلمين ترسًا يحمون به أنفسهم.

- فيقيسون هذا على أوضاعٍ أخرى للمسلمين في بلدان المسلمين، ويقىسونه على قتل المعاهدين عزّل وما عندهم سلاح ويسمّون هذا تترسًا، فهذه شبهة شيطانيّة رَوَّجها الخوارج اليوم حتى يغرّوا الناس. وكذلك شبهة "دفع الصّائل"، إذا أرسل ولي الأمر الجنود يقبضون على هؤلاء المجرمين، قالوا: يجوز أن تقتل المسلم لأجل دفع الصّائل.
- وهذا خطأ، إنّما دفع الصّائل إذا لم يكن ولي الأمر أمر بالقبض عليه، وإلا لكان للسُّراق أن يقولوا هذا وللصوص وقُطّاع الطُّرق، وكل مجرم يقول أنا أدفع الصّائل.
- ولهذا أجمع العلماء وحكاه ابن المنذروا بن حجر وغيرهم على أنّ الصّائل يُدفع إلا إذا كان من قبيل وليّ الأمر، فإذا جاءك المسؤول الأمني فتسلّم نفسك إذا كنت من أهل الجناية، وتوضّح لهم الأمر وتدافع عن نفسك، أمّا أن يجعلوا أحكام ولي الأمر مثل أحكام الصّائل فهذه طريقة الخوارج، فولي الأمر ليس صائلاً، ولي الأمر مُلزم بحفظ الأمر، ومُلزم أن يستتبّ الأمن في بلاد الإسلام، ومن وسائل ذلك القبض على كلّ من عنده إجرام أو نيّة إفساد، فهذا ليس صائلاً بإجماع العلماء، وقد حكى هذا الإجماع جماعات غير ابن المنذرو وغير ابن حجر، فلماذا يجب علينا أن ننتبه لهذه الشُّبهات التي يروجها الغلاة، ونلزم هذه الطريقة (وَلَا نَرَى السَّيْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ) ، وهو مذكور في الحديث، وقد تقدم شرحه.

وصلّى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس العاشر



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{قال أبو جعفر الورّاق الطّحاوي -رحمه الله تعالى: (وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَيْمَتِنَا وَوَلَاةِ أُمُورِنَا وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَرِيضَةً؛ مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ).}

• يقول الطّحاوي -رحمه الله: (وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَيْمَتِنَا وَوَلَاةِ أُمُورِنَا وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَرِيضَةً؛ مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ).

• قوله: (وَلَا نَرَى)، الإشارة هنا بالنون إلى عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، ليست هذه عقيدة شخص واحدٍ أو عالمٍ واحدٍ؛ بل هذه عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، أطبقوا عليها واتَّفَقوا عليها.

• قال: (وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَيْمَتِنَا وَوَلَاةِ أُمُورِنَا).

الخروج: مُصطلح شرعي وَرَدَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- للتحذير ممَّن يخرج على المسلمين، وقد ذكر النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- التحذير من البدع إجمالاً، والتحذير من أهل البدع إجمالاً؛ لكن على وجه الخصوص ذَكَرَ طائفة الخوارج، ووصفهم بالخروج في أحاديث كثيرة، منها قوله -صلى الله عليه وسلم: «يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ»^{١٤٧}، فقوله: «يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ»، وأوَّل مَنْ خَرَجَ عَلَى

^{١٤٧} البخاري (6931) ومسلم (1064) عن أبي سعيد الخدري.

المسلمين وسلَّ السَّيف هم الخارجون على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وكفَّروه واستحلُّوا قتاله وقتال الصَّحابة والمسلمين، فهؤلاء هم أوَّل الخوارج خُروجًا، ثمَّ تبعهم أقوام، ولا يزالون إلى قيام السَّاعة كما حذَّر النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- من هذه الطَّائفة.

- لهذا يجب على المسلمين عُمومًا الحذر أشدَّ الحذر من هذا المذهب، ويجب على طلبة العلم وأهل العلم أن يُحذِّروا المسلمين من هذا المسلك، ومن هذا المنهج، ومن هذه الطَّائفة، بأيِّ اسمٍ كانت وبأيِّ صفةٍ كانت، وفي أيِّ زمنٍ كانوا، وفي أيِّ مكانٍ كانوا، إذا ركبوا مذهب الخوارج وصاروا على طريقتهم؛ فيجب التحذير منهم.
 - الخروج: هو مُصطلح شرعيٌّ ولفظ شرعيٌّ. معناه: التَّمرد والعِصيان، وعدم الانسياق لأمرٍ ولى الأمر، وأن يرى الإنسان أن لا بيعه له، أي: لولي الأمر، وأنه لا يسمع ولا يُطيع له؛ بل يرى أشدَّ من ذلك، وهو أن ولي الأمر هذا كافر، ويستحلُّ دمه وقتاله. هذا هو الخروج الفعلي.
- الخروج نوعان:

❖ **خروج قولي:** ويكون قبل الخروج الفعلي؛ لأنَّه ما خرجت طائفة إلا وقد كان لها تهيئة بالأفكار السيئة وبالعقائد الباطلة، وبالتَّحريض وإيغار الصُّدور، حتى خرجوا على جماعة المسلمين وإمامهم، ولذا يجب الحذر من مبادئ الخُروج ومبادئ الفتن، فإنَّها تكون أوَّل الأمر في صورة خلافٍ وفي صورة نزاعٍ، وفي صورة آراءٍ.

❖ **خروج فعلي:** أن تكبر هذه الآراء وتنمو، وينفخ فيها الشَّيطان، وشيطان الإنس أيضًا ينفخ فيها حتى يسلُّون السَّيف، ويخرجون على الأئمة، ويستحلُّون الدِّماء.

لهذا يجب علينا أن نبثَّ عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في إخواننا المسلمين حفاظًا على ديننا ودينهم، حتى لا تقع فيما وقع فيه الخوارج الأوَّلون.

❓ ما هي عاقبة الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه؟

- قال فيهم النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم: «شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ»^{١٤٨}، هذه عاقبتهم، قُتِلُوا وقُطِعَ دابِرهَم، وصاروا شرَّ قتلَى، مع أنهم في ظاهر الأمر يُريدون الجهاد، ويريدون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويريدون نصرة الدين ونُصرة الحق.
- ولهذا فإنَّ هذا أصلٌ عظيمٌ يجب العناية به، وهي مسألة الحذر كل الحذر من مذهب الخوارج وفروعه ومبادئه وأسبابه، وهذا يتطلب منك -يا طالب العلم- أن تدرس صفات الخوارج، وآراءهم وعقائدهم الفاسدة، أن تدرس ذلك على الوجه الصَّحيح حتى تعرِّف الباطل فتجتنبه.
- قال: (وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَمَّتِنَا وَوَلَاةٍ أُمُورِنَا).
- (أُئِمَّتِنَا)، جميع: إمامنا.

^{١٤٨} أخرجه الترمذي (3000) واللفظ له، وأحمد (22262) وصححه الترمذي في صحيح الترمذي.

والأئمة: هم ولاة الأمور، يُسَمَّى: "إمامًا" أَوْ يُسَمَّى: "وليًا لأمر"، أَوْ يُسَمَّى: "رئيسًا"، أَوْ يُسَمَّى: "مَلِكًا"، أَوْ يُسَمَّى: "خليفةً"، أَوْ يُسَمَّى: "السُّلطان"، أَوْ يُسَمَّى: "الحاكم"، أَوْ غير ذلك من المسمَّيات، فالمقصود أنَّ هذه الإمامة حُكْمٌ شرعيٌّ وقدريٌّ؛ لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- هو الذي يُؤتي الملكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُ الملكَ مَنْ يَشَاءُ.

فهذا الحكم الشرعي؛ لأنَّه واجب من واجبات الدِّين أن يجتمع المسلمون، وإلا صارت فوضى، ذهب ربحهم، وذهبت قوَّتُهم بالفوضى والافتراق، فوجود الإمام رحمة من الله -سبحانه وتعالى- وظلٌّ للعباد، فهو حُكْمٌ شرعيٌّ وحُكْمٌ قدريٌّ.

وَمَنْ أُوتِيَ هذا الحُكْم على شؤون النَّاس يندرج تحته أمور الدِّين، مثل: إقام الصلاة، وإيتاء الزَّكاة، وكذلك الحج، كذلك شؤون المسلمين كالعدل بينهم والحُكْم بينهم بكتاب الله وَشَرعِهِ، كذلك القضاء، ونصب القضاة، والجسبة والاحتساب، واستيفاء الحقوق، إقامة الحدود، وحماية الثُّغور، وغير ذلك من الأمور التي تندرج تحت واجبات الإمام.

فهذا الإمام -أو السُّلطان- يَصِحُّ بثلاثة أشياء عند أهل السُّنَّة والجماعة:

★ **الأول: اختيار أهل الحل والعقد:** أن يجتمع أهلُ الحل والعقد ويختاروا شخصًا، فإذا اجتمعوا عليه -وهم أهل الشُّوكة والغلبة- تمَّ الأمر له، فصار خليفة -أو إمامًا، أو حاكمًا، أو سلطانًا- الأسماء ما تهم، فالمقصود واحد.

★ **الثاني: ولاية العهد:** أن يليَ بالعهد إلى مَنْ يختاره ولي الأمر، ثم إذا تُوفِّيَ الحاكمُ تمَّت البيعة لوليِّ العهد.

★ **الثالثة: أن تكون بالغلبة والقهر:** فإذا غلب النَّاس وتغلَّب عليهم، وصارت له الشُّوكة عليهم؛ فهذا يكون إمامًا.

• أمَّا المعدوم فليس بإمام، والغائب فليس بإمام، والمختفي أيضًا ليس بإمام، فالإمام إنَّما يكون معه الشُّوكة والغلبة، وبه تتمُّ المصالح ويقوم شؤون الدين والدنيا. هذا هو الإمام.

ولهذا فإنَّ من عبارات العلماء، الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- يقول:

"الأئمة مُجمِعُونَ من كلّ مذهب على أنَّ مَنْ تغلَّب على بلدٍ أو بلدان؛ له حُكْمُ الإمام في جميع الأشياء".

ولولا هذا ما استقامت الدُّنيا؛ لأنَّ الناس مُنذُ زمنٍ طويلٍ قبلَ الإمامِ أحمد إلى يومنا هذا ما اجتمعوا على إمامٍ واحدٍ، ولا يعرفون أنَّ أحدًا من العلماء ذكر أنَّ شيئًا من الأحكام لا يصح إلا بالإمام الأعظم"، يقصد: أنَّ كلَّ الدول الإسلامية كانت دولةً واحدةً في عهد النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- وفي عهد أبي بكرٍ وعمرٍ وعثمانٍ، ثُمَّ حدثت الفرقة، ثم اجتمعوا في عهدِ الحَسَنِ أو مُعاوية -رضي الله عنهما- ثم دولة "أُمِّيَّة" كانت تحت إمامٍ واحدٍ، ثم لما زالت دولة "بني أُمِّيَّة" كانت الدولة العباسيَّة، وهنا فرع للدولة الأمويَّة في الأندلس؛ فصار تعدد الدول منذ عهد قديم.

• ثم أواسط الدولة العباسيَّة ضعفت وقلَّ سلطانها وقوَّتُها، فصار تعدُّد الدول في نفس الدَّولة العباسية، فصار العسكرهم الذين يحكمون، والخليفة صوري، خصوصًا في آخر الخلافة العباسية ازداد الأمر، حتى صارت الدُّول أكثر وأكثر، واستمرَّ هذا إلى يومنا هذا.

؟ **فهل يُقال إنه لا تصح بيعة؟**

- لا، كُلٌّ مَنْ تَغَلَّبَ عَلَى نَاحِيَةٍ فَلَهُ حُكْمُ الْإِمَامِ، وهذا أَمْرٌ أَجْمَعَ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ وَفُقَهَاءُ الْمُسْلِمِينَ. إذن هذا مقصودُ قوله: (أُثْمِتْنَا)، فالإمام الذي يُسَمَّعُ لَهُ وَيُطَاعُ، ولا يجوز الخروج عليه، هو: الإمام الظاهر، والإمام الذي له الشُّوْكَةُ والغلبة الذي اجتمع عليه النَّاسُ، وليس رؤساء العَصَابَاتِ والتَّنْظِيمَاتِ الذي يَفْرُونَ من هنا وهناك ويخْتَفُونَ عَنِ النَّاسِ، أو المعدومين، فهؤلاء ليسوا أئمةً، ولا يصحُّ لهم حكم الإمامة والولاية، فهذا نردُّ به على الدَّوَاعِشِ وأمثالهم الذين يعقدون التَّيَعُّدَ للمختفي والهابِثِ والذي لا شوكة له، فهؤلاء فتنوا النَّاسَ وآذوا المسلمين، فيجب الحذر منهم؛ لأنَّهم على طريقة الخوارج -نسأل الله جل وعلا أن يهدي ضالَّ المسلمين، وأن يحفظ المسلمين من شرور هؤلاء الأشرار.
 - قال: (وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَمَّتِنَا وَوَلَاةٍ أُمُورِنَا). لماذا؟ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59]، أولوا الأمر هنا هم الأمراء، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، فالأمراء هم ولادة الأمر: لأنَّهم يَلُونُ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهَا فِي جَمِيعِ شُؤُنِ الْحَيَاةِ، فِي الْحُدُودِ وَإِقَامَتِهَا، فِي الْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ، فِي حِفْظِ الْمَصَالِحِ، فِي تَأْمِينِ السُّبُلِ، فِي بَثِّ الْأَمْنِ، فِي إِقَامَةِ الْجُمُعِ وَالْجَمَاعَاتِ وَالْأَعْيَادِ وَالْحَجِّ، وَحِمَايَةِ الْحُدُودِ، وَالِدِّفَاعِ عَنِ الْخُرُمَاتِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ. ولهذا فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ: إِنَّ الْمُرَادَ بِأُولِي الْأَمْرِ هُمُ الْعُلَمَاءُ!
 - نقول: العلماء يُطَاعُونَ فِي الْفَتَوَى وَفِي أُمُورِ الدِّينِ، أَمَّا فِي الْأُمُورِ الْآخَرَى فَالْعَالَمُ مَا لَهُ سُلْطَانٌ عَلَيْكَ فِي أُمُورِكَ الْآخَرَى، فَالْعَالَمُ يُفْتِيكَ فَقَطْ وَلَا يُلْزِمُكَ، حَتَّى الْفَتَوَى غَيْرُ مُلْزِمَةٍ، الْقَاضِي هُوَ الَّذِي لَهُ حَقُّ الْإِلْزَامِ، وَالْقَاضِي إِنَّمَا صَارَ قَاضِيًا بِتَنْصِيبِ الْإِمَامِ لَهُ، فَانْتَبِهْ لِهَذِهِ الْمَسَائِلِ الْمُهِّمَّةِ وَلَا تَغْلُظْ فِيهَا.
- ومن الأدلة أيضًا: قوله -صلى الله عليه وسلم- لما وعظ الصَّحَابَةَ موعظةً بليغةً، فذرفت عيونهم، ووجلت قلوبهم، فقالوا: كأنَّهَا مَوْعِظَةٌ مَوْدِعَةٌ فَأَوْصِنَا، قال: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بِعَدِيٍّ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا»^{١٤٩}.
- وقال أيضًا -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما في حديث ابن عباس في الصَّحِيحِينَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ قَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^{١٥٠}، وفي اللفظ الآخر في الصَّحِيحِينَ أيضًا: «مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^{١٥١}، وقال -صلى الله عليه وسلم-: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»^{١٥٢}.
- وقال -صلى الله عليه وسلم-: «سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ»، يعني: يكون من هؤلاء الأمراء أمور من المعروف، ويكون من هؤلاء الأمراء أمور من المنكرات، قال: «فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِيًّا وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» ، يعني: إذا رأيت المنكر وعرفت أنَّه منكر بَرَّتَ ذِمَّتَكَ، وإذا

^{١٤٩} أخرجه أبو داود (4607) واللفظ له، وأحمد (17185) وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

^{١٥٠} صحيح البخاري (6558) مسلم (3444).

^{١٥١} صحيح البخاري (6557) مسلم (3445)، واللفظ للبخاري.

^{١٥٢} صحيح مسلم (3429).

أنكرته بقلبك ولسانك عند استطاعتك، كأن تُنكر على أهل بيتك أو من تحت يديك أو من تحت سلطانك وولايتك إذا كنت صاحب مدرسة أو صاحب دكان أو شركة؛ فهذا تحت سلطانك، فإذا أنكرت المنكر فقد سلّمت، أمّا الذي يرضى بالمنكر ويتابع هو الذي يؤاخذ.

□ ثم قال الصحابة للنبي -صلى الله عليه وسلم: "أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟"، يعني: هؤلاء الذين حصل منهم المنكرات. قال: «لَا مَا صَلَّوْا»^{١٥٣}.

□ وفي حديث عادة بن الصّامت -رضي الله عنه- قال: "دَعَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَايَعَنَا، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَهُ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ"^{١٥٤}، هذا الحديث في الصحيحين.

فهذه الأحاديث كلها -أيها الإخوة الكرام- تدلّ على أنّه يجب طاعة ولاة الأمور في غير معصية الله، وأنّه لا يجوز مقاتلتهم، ولا يجوز منازعتهم.

□ وفي اللفظ الآخر: "أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟"^{١٥٥}. فجاء لفظ "المقاتلة"، وجاء لفظ "المنازعة"، وجاء لفظ "المنابذة"، وجاء لفظ "الخروج"؛ كلها نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عنها، ما استثنى إلا صورة واحدة وهي «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»، وأضاف العلماء على هذا شرطين عظيمين:

◀ **الأول: الاستطاعة:** لأن الله -عز وجل- يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16]، ويقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، وفي الحديث: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»^{١٥٦}، كل هذه النصوص الشرعية تدلّ على أنّه لا يجوز أن تفعل شيئاً وإن كان واجباً بالشرع إذا ترتّب عليه أمرٌ أخطر وأفسد، فإن لم يكن عندك قدرة وما عند المسلمين القدرة فما عليهم إلا الصبر.

◀ **الثاني: وجود البديل الصّالح الذي تجتمع عليه الكلمة.**

؟ أمّا إذا كان عندهم قدرة، ولم تجتمع الشروط -وهي الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان- ثم أراحوه وتفرّقت كلمتهم وتقاتلوا فيما بينهم؛ هل حصلوا خيراً أم شراً؟

- يُريدون خيراً، لكنهم حصلوا شراً، فما تحقّق لهم الخير الذي يريدونه، بل تحقّق القتال زيادة، وتحقّق الشرّ زيادة، فهذا لا تأمر به الشريعة.
- ولهذا فإنّ أغلب النصوص الشرعية في التحذير من القتال والخروج.

^{١٥٣} صحيح مسلم (3451)

^{١٥٤} صحيح البخاري (6559).

^{١٥٥} صحيح مسلم (3453).

^{١٥٦} مسند أحمد (22178)، سنن ابن ماجه (2333).

ولاحظ أمرًا مهمًا! لم يُعبر الشَّرع بكلمة "الثَّورة" فلم يقل: "ثوروا عليهم"، ف "الثورة" مُصطلح غير شرعي، وإنَّما التَّعبيرات الواردة والألفاظ الواردة علينا أن نلتزم بها؛ لأنَّ مَنْ التزم بألفاظ الشَّرع سَلِم. أمَّا هذه الثَّورات فهي جاهليَّة، وليس هناك لفظ شرعي يقول: تظاهروا عليه، أو ظاهروه، أو اخرجوا في الشَّوارع؛ لا.

- الأنصارُ خيرٌ منَّا وخير من الأجيال كلها؛ لأنَّهم صَحَبوا النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- وهم بعد المهاجرين في الرُّتبة والفضل، ومفضلهم وتقدُّمهم وثناء الله عليهم في القرآن قال لهم النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَهُ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»^{١٥٧}، وهم الأنصار، فما بالك بما بعدهم!
 - بل جاء في الحديث في صحيح مسلم أنَّ صحابيًا سأل النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- وقال: رأيت إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقَّهم ولا يعطوننا حقَّنَا؟ فأعرض عنه النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- فأعاد، فأعرض عنه النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم-، فأعاد، فقال النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم: «تَوَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ»^{١٥٨}، الحقوق التي لوليِّ الأمر أدُّوها، وإذا منعوكم حقَّكم اسألوا الله -عزَّ وجلَّ- هذا، ما قال: اخرجوا، أو نابذوهم أو قاتلوهم، فانتبه!
 - فالمطالبة بالحقوق تكون بحسب ما أرشد إليه النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- وليس بحسب أهوائنا، وليس بحسب التَّقليد للغربيين.
 - إذا قُدِّرَ أن وقع الحاكم في أمرٍ محرَّم شرعًا عليه؛ فإنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- علَّمنا كيف نفعل، ونحن لا مناص لنا ولا محيد عن توجيهات النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- ونحن نُعرض عن أهل الأهواء، وأهل الآراء، أو المقلِّدة للغرب والشرق، أو المقلِّدة للفتن، نُعرض عنهم، ونتبع كلام النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- حتى تخرج أرواحنا ونحن على السُّنَّة، نسأل الله أن يثبتنا وإياكم وإخواننا المسلمين على السُّنَّة.
- ؟ فيقول -صلى الله عليه وسلم: «تَوَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ» ، هذا في الحقوق.**
- وهل معناه أن نقطع باب الإصلاح؟**
- نقول: لا، الإصلاح موجود، ويكون بإقام الصَّلَاة، وإيتاء الزَّكَاة، والصَّبْر، والمكاتبَة، والمناصحة الشَّفهيَّة إذا تيسَّرت مع وليِّ الأمر، فيُكَاتَب ويُناصَح ويُبلَّغ بالأمر، فيُبلَّغ بالأدلة، ويُبلَّغ بوجوه الحق حتى يقتنع، أو يبلغه العالم المقرب منه فتبرأ ذمَّة النَّاس.
 - أمَّا أن يُقال لهم: اخرجوا عليه، أو ثوروا عليه، أو نابذوه، أو قاتلوهم؛ فكل هذا غلطٌ.
 - يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عبارة عظيمة وهي في كتاب منهاج السُّنَّة النبويَّة في الرَّد على الرَّاغبة والقدريَّة، يقول: «وَقَلَّ مَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ ذِي سُلْطَانٍ إِلَّا كَانَ مَا تَوَلَّدَ عَلَى فِعْلِهِ مِنَ الشَّرِّ أَكْثَرَ مِمَّا تَوَلَّدَ مِنَ الْخَيْرِ»، هذه عبارة طيِّبة، وهذا هو الواقع على مرِّ الأزمان.

^{١٥٧}مسلم (24159)

^{١٥٨} أخرجه البخاري (3603)، ومسلم (1843) واللفظ له.

- قال: "وَقَلَّ مَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ ذِي سُلْطَانٍ إِلَّا كَانَ مَا تَوَلَّدَ عَلَى فِعْلِهِ مِنَ الشَّرِّ أَعْظَمَ مِمَّا تَوَلَّدَ مِنَ الْخَيْرِ. كَالَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى يَزِيدَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَابُنِ الْأَشْعَثِ الَّذِي خَرَجَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بِالْعِرَاقِ، وَكَابُنِ الْمُهَلَّبِ الَّذِي خَرَجَ عَلَى ابْنِهِ بِخُرَاسَانَ، وَكَأَبِي مُسْلِمٍ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ الَّذِي خَرَجَ عَلَيْهِمْ بِخُرَاسَانَ أَيْضًا، وَكَالَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى الْمُنْصُورِ بِالْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ، وَأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ. وَغَايَةُ هَؤُلَاءِ إِمَّا أَنْ يَغْلِبُوا وَإِمَّا أَنْ يَغْلِبُوا، ثُمَّ يَزُولُ مُلْكُهُمْ فَلَا يَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةٌ: فَإِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَلِيٍّ وَأَبَا مُسْلِمٍ هُمَا اللَّذَانِ قَتَلَا خَلْقًا كَثِيرًا، وَكِلَاهُمَا قَتَلَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْمُنْصُورُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْحَرَّةِ وَابْنُ الْأَشْعَثِ وَابْنُ الْمُهَلَّبِ وَغَيْرُهُمْ فَهَزَمُوا وَهَزِمَ أَصْحَابُهُمْ، فَلَا أَقَامُوا دِينًا وَلَا أَبْقَوْا دُنْيَا. وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَأْمُرُ بِأَمْرٍ لَا يَخْصُلُ بِهِ صَلَاحُ الدِّينِ وَلَا صَلَاحُ الدُّنْيَا"^{١٥٩}.

؟ انتبه! هذا ما حدث وسمّوه "الرّبيع العربي" وهو ليس بربيع كما ترون، إنّما هو خريفٌ وعقوبةٌ وجحيمٌ على مَنْ وقعت في ديارهم ومساكنهم -نسأل الله جل وعلا أن يصلح أحوال المسلمين في كلّ مكان- هؤلاء الذين حرّضوهم ما جنى المسلمون منهم؟ وماذا حصل المسلمون في تلك الدّيار؟

- الملايين المملّينة هُجِرَتْ وخرجت من بيوتها، ناهيك عن المقتولين، ناهيك عن الذي تقطّعت بهم السُّبُل وماتوا في الصّحاري والبراري والقيافي وغرقوا في البحار؛ كلّ هذا بسبب أنّ أولئك حرّضوا النّاس ودعوهم للثّورة، وزعموا أنّ الثّورات حقٌّ، وأنّها دينٌ، وأنّها من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؛ وكلّ هذا تزوير في الدّين، وهذه طريقة العلماء أماننا الآن، وكلّ كتب السّلف تقول هذا: **(وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَيْمَتِنَا وَوَلَاةَ أُمُورِنَا وَإِنْ جَاوَزُوا)،** جاورا: أي: ظلّموا.

؟ قوله: (وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ)، فالدّعاء على السُّلْطَانِ لَا يُحَقِّقُ خَيْرًا، وَإِنَّمَا يُغَيِّرُ النُّفُوسَ، إِذَا جَلَسْتَ أَنْتَ مَعَ النَّاسِ وَقُلْتَ: اللَّهُمَّ أَهْلَكَ فَلَانًا، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِهِ. ماذا يحدث في قلوبهم؟

- الثّفرة منه، خصوصًا إذا كنت أنت صاحب خير وإمام، وفيك دين؛ فإذا صرّت تدعو عليه صار في قلوبهم ثفرة عن السُّلْطَانِ، فلوزال هذا السُّلْطَانُ وزالت الإمامة؛ أنت في نفسك تخاف في بيتك، ما تأمن على نفسك، لأنّ السُّلْطَانِ ظِلٌّ، فالدّعاء عليه تنفير.
- ولكن لو قلت: اللهمّ اهده، اللهمّ أصلحه، اللهمّ افتح على قلبه، اللهمّ نور بصيرته، اللهمّ هبّ له الأعوان النّاصحين، وأبعد عنه أعوان الشّرّ، ونحو ذلك؛ لكان هذا خيرًا له، والله -عزّ وجلّ- على كلّ شيء قدير، ولا تياس من روح الله، فالسّحرة الذين كانوا مع فرعون في الصّباح كانوا كفّارًا فجّارًا، وفي المساء صاروا أتقياء أبرارًا -رضي الله عنهم- وهم في الجنّة الآن، أخبرنا الله بذلك في القرآن. هذا دليل على أنّ المؤمن لا يياس من روح الله.

- والدّعاء للحاكم من النّصيحة، لقول النّبيّ -صلى الله عليه وسلم: «الدّينُ النّصيحةُ»، وذكر من حقوق النّصيحة قال: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»^{١٦٠}، فالدّعاء لهم بالهداية والصّلاح من

^{١٥٩} منهاج السنة النبوية/ الفصل الثاني في أن مذهب الإمامية واجب الاتباع ص: 529.

^{١٦٠} صحيح مسلم (85).

علامة الخير، وهذا من النصيحة لهم، ومن أسباب اجتماع كلمة المسلمين، ومن أسباب تأليف القلوب، أما الدعاء عليهم فهذا خروج عن الصراط، وهو تأليب وزيادة في الشر، ولا يحصل المسلم بهذا الدعاء خيراً؛ بل هذا من أسباب الخروج، ومن أسباب الفتن -نسأل الله العافية والسلامة.

• هذا الشيخ صالح الفوزان -حفظه الله- لما علق على هذا الموضوع في شرح العقيدة الطحاوية قال: **"لا يجوز الدعاء عليهم، لأن هذا خروج معنوي، مثل الخروج عليهم بالسلاح، وكونه دعا عليه لكونه لا يرى ولايته، فالواجب الدعاء لهم بالهدى والصلاح، لا الدعاء عليهم، فهذا أصل من أصول أهل السنة، فإذا رأيت أحداً يدعوا على ولاية الأمور فاعلم أنه ضال في عقيدته، وليس على منهج السلف، وبعض الناس يظن أن هذا من الغيرة والغضب لله، ولكنه في غير محله، لأنهم إذا زالوا حصلت المفاسد".**

• ثم ذكر كلام الفضيل والأئمة، فقال عنه: **"لو أن لي دعوة مستجابة ما صيرتها إلا في الإمام"** ^{١٦١} -رحمة الله عليهم- فهؤلاء هم أطباء القلوب، وعلماء السلف هم قدوتنا، فرحمة الله عليهم. هذا معنى قوله: **(وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ)**.

• قال: **(وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ)**، هذا تأكيد لما سبق من عدم الخروج.

• قال: **(وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةً؛ مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ)**، إذا أمروك بمعصية فلا تسمع لهم، ولا تطع في تلك المعصية، وتسمع لهم وتطيع في غير المعصية.

• قال: **(وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ)**، هذا تأكيد لقوله **(وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ)**.

• يقول ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية: **"وَأَمَّا لُزُومُ طَاعَتِهِمْ وَإِنْ جَارُوا ، فَلِأَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ طَاعَتِهِمْ مِنَ الْمَفَاسِدِ أَضْعَافُ مَا يَحْصُلُ مِنْ جَوْرِهِمْ"**، نحن نعرف أن فيه جوراً، ولكن لو خرج عليهم لحصلت المفاسد العظيمة.

• قال: **"بَلْ فِي الصَّبْرِ عَلَى جَوْرِهِمْ تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ"** يعني أنت الآن لما تصبر على حاكم جائر ليس هذا رضى بجوره، لأن قول النبي -صلى الله عليه وسلم: **«فَلْيَصْبِرْ»** ^{١٦٢}، **«فَاصْبِرُوا»** ^{١٦٣} دليل على عدم الرضى بالجور، وعدم الرضى بالمنكر، فأهل السنة لا يأمرهم المسلم بأن يرضى بالمنكرات أو يرضى بالجور، لا والله، فلا ترضى بالجور؛ بل إذا رضيت به فأنت آثم وأنت معهم شريك في الإثم، وإنما تصبر.

• ولهذا قال: **"بَلْ فِي الصَّبْرِ عَلَى جَوْرِهِمْ تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ"**، مثل البلوى التي تصيبك، لو شوكة أصابتك في يدك أو قدمك، أو جرح، أو مرض، ماذا يحدث لك إذا صبرت؟

تكفير للسيئات ومحو للذنوب، هكذا إذا صبرت على جور الحاكم الظالم.

• قال: **"وَمُضَاعَفَةُ الْأُجُورِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا سَلَطَهُمْ عَلَيْنَا إِلَّا لِفَسَادِ أَعْمَالِنَا ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَعَلَيْنَا الْاجْتِهَادُ فِي الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ وَإِصْلَاحِ الْعَمَلِ"**.

^{١٦١} الحلية لأبي نعيم (91/8)

^{١٦٢} سبق تخريجه رقم (4).

^{١٦٣} سبق تخريجه رقم (10).

الله أكبر! هذه طريقة العلماء، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]، حتى الحاكم الجائر يُعتبر مصيبة، إذا جار عليك أو ظلمك فأنت تلجأ إلى الله وتُنيب وتستغفر وتدعو الله -عز وجل- أن يُفرج عنك وعن المسلمين، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِغُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129]، معناها: أن ما تؤي هذا الظالم على هؤلاء إلا لوجود الظلم فيهم.

• وختم فقال: "فَإِذَا أَرَادَ الرَّعِيَّةُ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ظُلْمِ الْأَمِيرِ الظَّالِمِ ، فَلْيَتَرَكُوا الظُّلْمَ"^{١٦٤} ، فهذه عبارات مهمة جدًا يجب أن يفهمها إخواننا الذين غلطوا في هذه المقامات، واستثارتهم بعض الأوضاع، أو بعض المنكرات، أو بعض الأشياء؛ فلا بد أن يلزم طريقة أهل السنة، ولا تحمله الغيرة والعاطفة الدنيئة على الخروج عن الصراط المستقيم -نسأل الله جلّ وعلا أن يهدي ضالّ المسلمين.

فالخروج على ولاية الأمور إذا جاورا هذا من المنكرات العظيمة، ومن ركوب مذهب الخوارج.

• ثم إن الله -عز وجل- قال: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83].

على كلّ حال؛ فالخروج -كما تقدّم- على ولاية الأمر وعلى المسلمين إذا نظرت في عاقبته اتضح لكم أنّه باطل، فانظر إلى كل من خرج على المسلمين في كلّ مكان، ماذا حدث منهم؟ حدث سفك الدماء، وإفساد في الأرض، وإزاحة الأمن عن الناس، وتعطيل المساجد، وتعطيل الخيرات -نعوذ بالله.

فهذا دلّ الشرع على بطلانه، ودلّ العقل أيضًا على بطلان هذه التصرفات، نسأل الله -جلّ وعلا- أن يحفظنا، وأن يُعيذنا من مضلات الفتن.

• والخروج -كما تقدّم- يكون بالرأي قبل أن يكون بالفعل، والنبيّ -صلى الله عليه وسلم- قال للصّحابة لما استأذنه وقالوا: "أفلا ننازدهم؟"، "أفلا ننازعهم؟". قال: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»^{١٦٥} ، فهذا نصّ صريح، فكيف نعانّد النبيّ -صلى الله عليه وسلم.

• فالنبيّ -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا» ، والفسق ليس كفرًا، فالفسق دون الكفر، وهو أفصح من نطق بالضاد -صلى الله عليه وسلم- وهو أفصح العرب وأنصحهم وأبينهم وأبلغهم -صلوات الله وسلامه عليه- وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم كما وصفه الله في سورة التوبة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، وهو القائل -صلى الله عليه وسلم-: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ، وَأَخَذَ مَالَكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»^{١٦٦} ، وهذا في صحيح مسلم، وهو

^{١٦٤} شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص: 542

^{١٦٥} سبق تخريجه رقم (8).

^{١٦٦} صحيح مسلم (3441).

لا يأمر بالشَّرِّ، وإنَّما يأمر بالخير الغالب، وإن حصلَ بعض الأضرار، لكن الخير في السَّمْع والطَّاعة في غير معصية.

هذا مهم جدًا، وهو تقريرُ تحريم الخروج على ولاية الأمور، وأنَّ هذا هو مذهب أهل السُّنَّة ألا يُخْرَج على ولاية الأمور إذا جاروا.

- ومن هنا أطلب من الإخوة والمشاهدين الكرام أن ينظروا في سِير علماء الأُمَّة المشهود لهم بالإمامة، مثال على ذلك: الإمام أحمد بن حنبل، وإذا نزلت قرنين فابن قدامة -صاحب المغني- والنَّووي، وإذا نزلت في القرن السَّابع والثَّامن فابن تيمية، ثم ابن القيم، ثم ابن كثير، ثم ابن رجب؛ هؤلاء العلماء مَنْ حُكِّمَهم؟ كيف حال حُكَّام زمانهم؟ هل كانوا على التَّمَام والكمال أم كان فيهم نقص؟
 - فبعض الحكام كان فيه بدع، وبعضهم كان يؤيِّد أهل وحدة الوجود، وبعضهم عنده ضلالات كثيرة؛ فبعض هؤلاء الحُكَّام في القرن الثَّامن والتَّاسع كانت لهم تلك الضَّلالات؛ فهل هؤلاء العلماء الذين سَمَّيَهم -وهم مشهود لهم بالإمامة- هل أَلْفُوا في التَّحْرِيز على ولاية الأمور؟ هل أَلْفُوا في وجوب الخروج على الحاكم فلان بن فلان؟
 - النَّظَر في سِير العلماء الصَّادقين المشهود لهم بالإمامة يدُلُّك يا طالب العلم على الطَّرِيقَة التي سَلَكَها هؤلاء، وهم قد شَهِدَ لهم القاضي والدَّاني بالإمامة والتَّقوى والصِّدْق والدِّيَّانة، وأنَّهم ليسوا أهل تَزَلُّف ولا مُدَاهَنَة، فَرَضِيَ اللهُ عنهم وأرضاهم، ونَسَأَلُ الله -جلَّ وعلا- أن يجعلنا وإياكم على طريقتهم.
 - فمن الخروج على ولي الأمر: نزع البيعة، فيقول: لا بيعَة في عنقي لفلان.
 - أو يقول: يا أهل البلد الفلاني ما لفلان بيعة -وهو حاكمهم وأميرهم- فهذا من الأشياء التي يجب الحذر منها لقوله -صلى الله عليه وسلم: «وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^{١٦٧}.
- {وَتَتَّبِعِ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ، وَتَجْتَنِبِ الشُّذُوزَ، وَالْخِلَافَ، وَالْفُرْقَةَ. وَتُحِبُّ أَهْلَ الْعَدْلِ وَالْأَمَانَةِ، وَتَبْغُضُ أَهْلَ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ. وَتَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ؛ فِيمَا اشْتَبَهَ عَلَيْنَا عِلْمُهُ}.
- هذه ثلاث جمل مهمّة (وَتَتَّبِعِ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ، وَتَجْتَنِبِ الشُّذُوزَ، وَالْخِلَافَ، وَالْفُرْقَةَ).
 - هذا أصلٌ عظيم جدًا لقوله -صلى الله عليه وسلم: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ»^{١٦٨}، فنتمسك بسُنَّةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- ونترك البدع والمحدثات، «وَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^{١٦٩}، وقال: «وَأَيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^{١٧٠}.
 - فنَتَّبِعِ السُّنَّةَ ونترك البدعة، ونتمسك بالجماعة، فالمراد بالجماعة: جماعة المسلمين، فنجتمع مع المسلمين، ونكون مع ولاية الأمور في السَّمْع والطَّاعة في غير معصية الله -عزَّ وجلَّ- ونلزم الحق، ونلزم طريقة أهل السُّنَّة من الصَّحابة والتَّابعين، فهذه هي الجماعة.

^{١٦٧} صحيح مسلم (3447).

^{١٦٨} مسند أحمد (16813)، سنن ابن ماجه (42)، سنن أبي داود (3993).

^{١٦٩} صحيح البخاري / باب البيوع، مسلم (1718).

^{١٧٠} مسند أحمد (16813)، سنن ابن ماجه (42)، سنن أبي داود (3993).

إذن الجماعة يُراد بها: جماعة السُّلطان، وبعض العلماء يُعبر عنها بـ "جماعة الأبدان" فنسمع ونطيع في غير المعصية، ونكون مع الجماعة، فنشهد الجُمع والجماعات، ونسمع ونطيع لولي الأمر، ولا نخرج على ولي الأمر؛ فهذا لزوم الجماعة والإمام.

- وأيضًا من لزوم الجماعة: أن توافق الحقَّ، وهو ما كانت عليه الطائفة المنصورة، فتوافق ما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - فكل ما كان من الحقِّ فهو الجماعة، فما وافق الحقَّ فهو الجماعة، وهذه تسمَّى جماعة الدِّين، فتلتزم الدِّين الحقَّ، وتلتزم المنهج الحقَّ، منهج الصَّحابة والتَّابعين. الجماعة يُراد بها:

❖ جماعة الأبدان.

❖ جماعة الدين.

○ فجماعة الأبدان: السَّمع والطَّاعة لِمَن وَلَّاهُ اللهُ أمر المسلمين، وعدم الخروج عليه، وعدم مشاقته، وشقِّ العصا، والتَّمردُّ عليه ونحو ذلك.

○ وجماعة الدِّين: أن تلتزم الحقَّ، وطريقة الصَّحابة لهذه الطائفة التي قال فيها النبي - صلى الله عليه وسلم - «لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»^{١٧١}، وفي لفظ آخر قال: «هم الجماعة».

- لو قُدِّرَ أَنَّ السُّلطان على بدعة، فنحن نلزم الجماعة بالسَّمع والطَّاعة في غير معصية، ولا نوافق على بدعته؛ بل نتبع الجماعة فيما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم -.

لو قُدِّرَ أَنَّ شخصًا في بلد غير مسلم، كالبلاد التي فيها أقلِّيَّات مسلمة، كيف يكون لزوم الجماعة؟ لزوم الجماعة بأن يلزم المنهج الحق، منهج أهل السُّنة والجماعة والطائفة المنصورة، وأمَّا السُّلطان في بلده فليس بمسلم، فلزوم الجماعة في حقِّه بلزوم منهج أهل السُّنة والجماعة. أمَّا إذا كان في بلدٍ مسلمٍ له حاكم مسلم فيلزم الجماعة بالسَّمع والطَّاعة للحاكم - وهذه جماعة الأبدان أو السُّلطان - ويلزم الحقَّ - وهو جماعة الدِّين - فيلتزم طريقة أهل السُّنة والجماعة الذين ساروا على منهج السَّلف الصَّالح.

- قال: (وَجَتَنِبُ الشُّذُوزَ، وَالْخِلَافَ، وَالْفُرْقَةَ) ، لَأَنَّ مَنْ شَدَّ شَدَّ فِي النَّارِ، وَالشُّذُوزَ دَائِمًا دَلِيلٌ عَلَى الضَّلَالِ،

فلا تشدَّ عن جماعة الحقِّ، ولا تشدَّ عن أهل السُّنة والجماعة، ولا تشدَّ عن منهج أهل السُّنة كالخرافيين وأهل البدع، وأهل العقائد الفاسدة؛ فهذا شذوذٌ وخروجٌ عن منهج النبي - صلى الله عليه وسلم - والصَّحابة.

- كذلك في مسائل الفقه لا تشدَّ، وتبحث عن الشاذِّ الذي لا دليل عليه ولا حُجَّة له، فبعض النَّاسِ يبحث عن الأشياء الشاذَّة ويتتبع الرُّخصَ من غير دليل ولا حُجَّة، فهذا ضلالٌ، مَنْ شَدَّ شَدَّ فِي النَّارِ، ومع الأسف بعض الإعلاميين يبحث عن الشُّذَّاذ ويجمعهم ويخرجهم في القنوات، لأنَّ الشُّذَّاذ هؤلاء يُعجبونهم، ولو كان ليس

^{١٧١} صحيح البخاري (3392)، صحيح مسلم (3551).

معه دراسة ولم يتلقى العلم، فبعضهم معه شهادة ضعيفة، ولم يُكمل حتى المتوسط أو الثانوي؛ فيقدمونه في الإعلام لأنه أخذ بقولٍ يعجب هواهم، فأنت أيُّها المسلم تحذر من هؤلاء الشُّذَّاذ.

- أمَّا الخلاف فكذلك نجنبه، والمراد بالخلاف هنا: هو اختلاف العقيدة، وأيضًا مخالفة الحق إذا ثبت النصُّ الشرعيُّ، فلا يجوز للمسلم أن يُعاند كلام النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- ويُخالف الآيات. مثل رجل لا يطمئن في الصَّلَاة، فينقر الصَّلَاة نقر الغراب، ويقول: فيه قول عند المذهب الفلاني، فأنا أَسْتَعِجِل في الصَّلَاة لأنه لا تشترط الطمأنينة. فنقول: هذا مُصَادِم للنَّصِّ التَّبَوِي.

فالخلاف نوعان:

- ★ **النَّوعُ الأوَّلُ:** خلافٌ في العقيدة، وهو خروجٌ عن منهج أهل السُّنَّة، وهذا محذور.
- ★ **النَّوعُ الثَّانِي:** خلافٌ غير السَّائغ الذي لا دليل عليه.

- **أمَّا الخلاف السَّائغ:** فهو الخلاف النَّابع عن اجتهادٍ في فهم النَّصِّ فهذا يقع بين العلماء، فهذا يرى القول الفلاني، وهذا يرى غيره، وهذا قد يكون بعدم ثبوت النَّصِّ، أو الخلاف في ثبوته، أو عدم فهمه، أو عدم بلوغه النَّاسخ أو نحو ذلك؛ فهذا الخلاف يُرفع به الملام عن الأئمة. والصَّواب أنَّه ليس كلُّ خلافٍ يُعذَر فيه، فَمَنْ يُخالف الدِّين الإسلامي ولم يُسلم، أو مَنْ خالف منهج أهل السُّنَّة فهذا ليس بمعذور!

- الحقُّ واضحٌ، ويجب على المؤمن اتِّباع القرآن والسُّنَّة ولزوم الحق، لكن الذي يُعذَر ما كان خلافه سائغ، وما كان محلَّ اجتهادٍ في فهم النَّصِّ، أو في ثبوت النَّصِّ، وكما قال العلماء: "لا تَقُلْ في مَسْأَلَةٍ لَيْسَ لَكَ فِيهَا إِمَامٌ مِنْ أئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ"، فلا تبتدع وتَشُدَّ عنهم، فالذي يَتَّبِع الهوى ويُخالف منهج أهل السُّنَّة، ويُخالف الوحي، ويُخالف القرآن، ويُخالف الحديث الصَّحيح؛ هذا لا حُجَّةَ له، وغيرُ معذور، والمعذور هو الذي له دليله واجتهاده وغلَط، أو أخذ بهذا الاجتهاد وهو قريب وقد سُبِقَ.

من الشُّذُوذ أيضًا: ترك الجمعة والجماعة مع المسلمين، فبعض النَّاس يترك الصَّلَاة مع المسلمين ويصلي وحده، فهذا أيضًا من الشُّذُوذ -نسأل الله العافية والسلامة.

- ويجب على المسلم أن يعرف أنَّ هذه الجمل التي سبقت وأنَّ اتِّباع السُّنَّة والجماعة، وترك الخلاف والشُّذُوذ والفرقة هو من أسباب اجتماع المسلمين، فبعض النَّاس يظنُّ أنَّ هذا يُفَرِّق المسلمين؛ لا؛ بل لا يجتمع المسلمون إلا على سنَّة محمد -صلى الله عليه وسلم- وعلى جماعة أهل السُّنَّة والجماعة، فهذا هو سبب الاجتماع، ولا يمكن أن يكون الاجتماع إذا اتبع كلُّ هواه ومذهبه.

- ولهذا بعض النَّاس يقول: لا بدَّ من التَّعَدُّدِيَّة، ولا بدَّ من إقرار الأحزاب في البلاد.

نقول: لا، يجب على كل جماعة، وكل طائفة أن ترجع إلى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- وأن تتَّبِع النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- وَمَنْ غَلِطَ مِنْهُمْ يُرَدُّ إِلَى الْحَقِّ، وإلَّا حدثت الفرقة وحدث الخلاف، ثم حدث الخروج. وصلى الله على نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الحادي عشر



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{قال المصنف -رحمه الله وإيانا: (وَنُحِبُّ أَهْلَ الْعَدْلِ وَالْأَمَانَةِ، وَنَبْغُضُ أَهْلَ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَنَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ؛ فِيمَا اشْتَبَهَ عَلَيْنَا عِلْمُهُ).}

• يقول الطحاوي -رحمه الله: (وَنُحِبُّ أَهْلَ الْعَدْلِ وَالْأَمَانَةِ، وَنَبْغُضُ أَهْلَ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ).

أي: مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ. وَالْحُبُّ يَكُونُ مِنْهُ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ، فَالْإِنْسَانُ يُحِبُّ وَالِدِيهِ وَيُحِبُّ أَوْلَادَهُ، وَيُحِبُّ زَوْجَتَهُ، وَيُحِبُّ صَدِيقَهُ؛ هَذَا الْحُبُّ حُبٌّ طَبِيعِيٌّ، وَالْكَلَامُ هُنَا فِي الْحَبِّ الدِّينِيِّ -حُبِّ الْعِبَادَةِ- وَأَعْظَمُهُ: حُبُّ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَهَذَا غَايَةُ الْعِبَادَةِ.

مع ذلِّ عابده هما قُطْبَانِ

وعبادَةُ الرحمن غَايَةُ حُبِّهِ

ما دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وعليهما فلكُ العبادَةِ دائِرٌ

فَقَوْلُهُ: (وَعَلَيْهِمَا فَلَكَ الْعِبَادَةُ دَائِرٌ)، يَعْنِي: عَلَى الْحَبِّ فِي اللَّهِ، وَعَلَى الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَعَلَى رَجَاءِ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ما دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وعليهما فلكُ العبادَةِ دائِرٌ

هذه من القصيدة النونية لابن القيم -رحمه الله.

● فمن لوازم الإيمان: أن يُحِبَّ في الله، وأن يُبَغِضَ في الله، أمّا لو كان يُحِبُّ أعداء الله، ويُبَغِضُ من يُحِبُّهم الله؛ فهذا ليس بمؤمن، فإنَّ المؤمن يُحِبُّ في الله ويُبَغِضُ في الله؛ لأنَّ هذا من آثار الإيمان بالله -عزَّ وجلَّ- فإذا آمنت وأسلمت وقمت بأمر الإسلام، وقمت بأمر الإيمان؛ فكل من قام بهذه الأمور أحببته؛ لأنَّ هذا ممّا يحبه خالقنا ومعبودنا وربنا وإلهنا، وهو الله -سبحانه وتعالى.

وكل من ترك الإسلام، وترك الطاعات، وقام بالفجور والعصيان والكفر والفُسُوق؛ نبغضه لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يُبَغِضُ هؤلاء.

وهناك من يجتمع فيه الأمران: يُحِبُّ من وجه ويُبَغِضُ من وجه.

فصار النَّاسُ ثلاثة أقسام:

❖ **القسم الأول:** مَنْ يُحِبُّ محبَّةً كاملةً: وهم الأنبياء والرُّسل وعباد الله المؤمنون الصَّالحون من الصَّحابة والتَّابعين، وأشباه ذلك.

❖ **القسم الثاني:** مَنْ يُبَغِضُ من كل وجه: وهم الشَّياطين، والكفَّار من اليهود والنَّصارى والمجوس والمشركين، والملاحدة، والمنافقين؛ فهؤلاء يُبَغِضُونَ من كلِّ وجه.

❖ **القسم الثالث:** مَنْ يُحِبُّونَ من وجه ويُبَغِضُونَ من وجه: وهو المسلم الذي فَعَلَ المَعاصِي، فيُحِبُّ من جهةٍ إسلامه، ويُبَغِضُ من جهةٍ ما فَعَلَهُ من المَعاصِي.

● فالحبُّ في الله من علامة الإيمان ومن دليل الإيمان، فلا بُدَّ منه، هذا من عقيدة أهل السُنَّة والجماعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]، أي: المحبَّة. وقال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]، وأخبر أنَّه يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، فنحن نُحِبُّ مَنْ أَحَبَّهُ الله.

والله -عزَّ وجلَّ- لا يُحِبُّ الخائنين، ولا يُحِبُّ المفسدين، ولا المستكبرين، فنحن لا نَحِبُّهم؛ لأنَّ الله لا يحبهم.

● وفي الحديث قال -صلى الله عليه وسلم-: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»^{١٧٢}، إذن حُبُّ الله عِبَادَةً، وَحُبُّ الرَّسُولِ -صلى الله عليه وسلم- كذلك؛ لأنه أعظم الخلق فضلاً على الناس برسالته ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، لكنَّ محبتنا للرَّسُولِ -صلى الله عليه وسلم- لا تقتدي أن نعبد، وإنَّما نعبدُ اللهَ، فنحب مَنْ أَرْسَلَهُ اللهُ، وهو أفضل خلق الله -صلى الله عليه وسلم- وبارك عليه.

قال: «وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءُ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ»، هذا هو الحب في الله -وهو القسم الثاني.

قال: «وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ».

فإذا وَجِدَتْ هَذِهِ الثَّلَاثُ وَجَدَ الْعَبْدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ.

● حُبُّ الْمُؤْمِنِينَ وَالصَّالِحِينَ وَالْمُتَّقِينَ إذا لم يُوجَد في قَلْبِ الْمُسْلِمِ دَلٌّ هَذَا عَلَى ضَعْفِ إِسْلَامِهِ، وإذا وَجَدَ في قَلْبِهِ حُبُّ الْفُسَّاقِ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخُمُورَ وَيَزْنُونَ وَيَسْرِقُونَ وَيَأْكُلُونَ الرِّبَا ويعصون الله ورسوله؛ دَلٌّ هَذَا عَلَى

^{١٧٢} البخاري (16) ومسلم (43)

ضعف إيمانه، فالحبُّ ليسَ لأجلِ الدُّنيا كما يصنع كثيرٌ منَ النَّاسِ، إذا حصَّلَ أمورًا دنيويَّةً أحبَّ هذا الشَّخصَ، وإذا لم يُحصِلْ أبغضه، كما قال عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما: "وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُوَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا" ^{١٧٣}، وقال ابن مسعود: "مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنْعَ لِلَّهِ: فَقَدْ تَوَسَّطَ الْإِيمَانَ" ^{١٧٤}

ولهذا فإنَّ أوثق عرى الإيمان: الحبُّ في الله والبغضُ في الله؛ فيجب على أهل الإيمان أن يكونوا هكذا.

- أمَّا المشركون فإنَّهم يُحبُّون مُعبداًتهم، يُحِبُّونَ غَيْرَ اللَّهِ -عزَّ وجلَّ- أعظم من حُبِّ الله، كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 165]، فهؤلاء الكفار اتَّخذوا هذه الأصنام وهذه المعبودات وأصحاب القبور، أو الجن، أو من يستغيثون بهم؛ اتَّخذونهم أنداداً مع الله، ثمَّ أحبُّونهم كحبِّ الله، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فهذا الحب حبُّ شريكٍ؛ لأنَّهم عبدوهم، وصرفوا لهم خالص الحق الذي هو لله.

؟ ماذا يحدث يوم القيامة؟

- قصَّ الله علينا ماذا يحدث، وأخبرنا به، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: 6]، الله أكبر! هؤلاء أخسر الناس صفقاً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: 5-6]، وفي سورة العنكبوت قال الله -عزَّ وجلَّ- فيما قصَّ من خبر إبراهيم مع محاججته لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 17]؛ لأنها محبَّةٌ شريكية، فتذهب وتزول وتنقلب عداوات وحسرات -نسأل الله العافية والسلامة- وهكذا الذين يُحِبُّون النَّاسَ لأجلِ الدُّنيا تنقلبُ أمورهم إلى عداوة يومَ القيامة؛ لأنَّهم لا يأمرُونهم بمعروف، ولا ينهايُونهم عن مُنكرٍ، ولا ينصَحُونهم لأجلِ الدُّنيا، يَخْشَى أَنْ يَغْضَبَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ أَوِ الْأَمِيرُ أَوِ التَّاجِرُ أَوِ الْغَنِيُّ أَوِ الْمَدِيرُ أَوِ الْوَزِيرُ؛ فينافقه ويكذب عليه ويتصنَّع له، ويتَّخذُه صديقاً.

- وبعض الناس يتَّخذ شخصاً صديقاً ولا يُريد أن يُكذِّرَ خَاطِرُه فلا يقول له: قُمْ صَلِّ، أَوْ زَكِّ، أَوْ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تفعل هذه المعصية؛ بل يَسْكُتُ عَنِ الْبَاطِلِ حَتَّى لَا تَتَكَدَّرَ الْخُلَّةُ وَالصَّدَاقَةُ بِزَعْمِهِ، فهؤلاء حالهم ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]، تنقلب تلك الخُلَّةُ وتلك الصداقة إلى عداوة، يقول له: أنت تراني في الدُّنيا أفعل كذا ولا تهاني؟! فيتَّخذُه عدوًّا يومَ القيامة!

فأهلُ السُّنة والجماعة مسلمون يُحِبُّونَ أَهْلَ الْعَدْلِ وَالْأَمَانَةِ.

^{١٧٣} خَرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

^{١٧٤} خَرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ.

العدل: هو القيام بالقسط، الذي يعدل في أهله وفي أولاده، وبين زوجاته، في النفقة، وفي المبيت، وفي العشرة، فالعدل واجب بين الزوجات وبين الأولاد.

- ولا يجوز الجور والظلم، لا في بيتك، ولا في مدرستك، ولا في أي مكان، وإذا كنت قاضياً أو حاكماً لا يجوز لك أن تظلم، ويجب أن تكون من أهل الأمانة؛ فتحفظ الأمانة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]، فإذا قمت بالأمانات يحبك المؤمنون، فتكون أهلاً لأن تُحبَّ في الله، وإذا خنت الأمانة سَقَطَتْ عَدَالَتُكَ، وَوَجَبَ بُغْضُكَ لوجود الخيانة -نسأل الله العافية والسلامة- قال: (وَبَغْضُ أَهْلِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ)، والجور: عكس العدل.

• قال: (وَنَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ؛ فِيمَا اشْتَبَهَ عَلَيْنَا عِلْمُهُ).

هذه مسألة أيضاً عظيمة جداً؛ لأنَّ الواجب على المؤمن أن يردَّ الأمر إلى الله -سبحانه وتعالى- وألَّا يَتَكَلَّمَ بغير علمٍ، فَمِنْ أعظم المحرِّمات: القول على الله بغير علم.

- ◀ والقول على الله بغير علم يدخل فيه أمورٌ متعددة، مثل: الكلام في أسماء الله وصفاته بالباطل، كالذي يُنكرها، أو يسمي الله بما لم يُسمَّ به نفسه، أو يحرفها، أو غير ذلك.
- ◀ ومن القول على الله بغير علم: الكلام في الغيب، بأن يُنكر بعض الغيبات التي جاءت في الكتاب والسنة.

- ◀ ومن الكلام على الله بغير علم: الدخول فيما اشتبه وما أخفى الله علينا علمه، فالذي أخفاه الله -عزَّ وجلَّ- علينا لا يجوز لنا أن نتكلم فيه بغير علم، وبغير دليل، وبغير برهان، وبغير وحي؛ فيجب أن نسكت ونقول: الله أعلم.

؟ إذا قال لك واحد: كيف يكون شكل الصراط يوم القيامة؟ كيف شكل الميزان؟ هل هو مثل هذا؟

- نقول: الله أعلم، هذا أمر أخفاه الله عنا، الكيفيات أخفاها الله عنا، أمَّا ما وَرَدَ فنؤمن به.

؟ إذا قال آخر: كيف فاكهة أهل الجنة؟ أي مثل هذا؟ أي كذا؟ يتكلم عن الكيفيات!

- نقول: هي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هي خيرٌ من كل ما في الدنيا، لكن كيفيتها، الله يعلمها، فلا ندخل في المشتبهات.

؟ إذا قال واحد: متى الساعة؟ أي تاريخ؟ أي سنة؟

- نقول: الله أعلم، أخفى الله عنا علم الساعة.

؟ وهكذا إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟

- نقول: الله أعلم، الكيفيات لا نعلمها.

؟ كيف استوى على العرش؟

- نقول: الله أعلم، لا يجو الكلام في الأمور التي أخفاها الله عنا.

؟ أمَّا هل ربُّنا استوى على العرش؟

- نقول: نعم ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:5]، فنقول مثلما قال الله -عزَّ وجلَّ- في القرآن، لكنَّ الكيفيات مُخفاة عنَّا.

فلا يجوز الكلام فيما اشتبه علينا بغير علم.

؟ هناك أمور بيَّنة في القرآن وواضحة في السُّنة، ولكن أحياناً الإنسان لم يدرسها ولم يُتقنها، فما

الواجب عليه؟

- الواجب عليه أن يتعلمها، وإذا سُئل وهو لا يعلم يقول: "لا أدري، الله أعلم"؛ فلا يجوز أن يتكلم بغير علم، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:33]. وهذا من أعظم المحرمات. وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:36].

ولهذا قال -عزَّ وجلَّ- لنبيه -صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:86]، فلا تتكلَّف، إذا قلت: هذا السَّائِلُ مسكين ويحتاج إلى جواب، وأنا رحمته فلا بدَّ أن أُجيب!

- فنقول: ارحم نفسك أولاً، ارحم نفسك أنت؛ لأنَّك إذا أُجبتَ بغيرِ عِلْمٍ هَلَكْتَ وأهلكته، واستحققت العقوبة الشَّديدة، فالذي يتكلم بغيرِ عِلْمٍ مُستحقٌّ للعقوبة حتَّى لو أصاب، فالواجب على المؤمن ألاَّ يتكلم بغيرِ عِلْمٍ، وأن يردَّ الأمورَ إلى الله -سبحانه وتعالى- ويقول: الله أعلم؛ لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- هُوَ أَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وهو الذي شرَّع الشَّرائع وخلق الخلائق.

في سورة الكهف قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:19]، وقال: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف:22]، فلا تتكلم بغير علم.

- ولهذا كان السَّلَف الصَّالح من الصَّحابة -رضي الله عنهم- لا يَسْتعجلون في الفتوى، ولا يُفتون بغيرِ عِلْمٍ؛ بل كانوا يتدافعون الفتوى، كلُّ يردُّها إلى غيره لعلَّه أعلم ولعلَّه أتقن، وهذا الأمر العظيم يخفى على بعض النَّاس فيستعجل ويريد أن يُفتي ويتسابق إلى الفتوى، ما يدري أنَّها خَطيرة جدًّا، ولهذا قال بعضهم: "أجراكم على الفتوى أجراكم على النار"، فلا تتجرأ على الفتوى بغير علم، فالإفتاء خطير. ابن مسعود -رضي الله عنه- جاءه قوم يَسْتَفْتُونَهُ في امرأة ماتَ عنها زوجها قبل الدُّخول. ماذا عليها وما حُكْمُها؟

جلس ابن مسعود شهراً كاملاً يقول: أنظروني حتى أنظر في المسألة!

ثم أفتى في هذه المسألة بأنَّ عليها العِدَّة ولها الميراث، ولها مهر مثيلاتها من النساء، ثم قال: "إن كنتُ أصبْتُ فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان".

فَسَمِعَهُ أَحَدُ الصَّحابة وقال: "لقد حكم فيها النَّبي -صلى الله عليه وسلم- بِمِثْلِ مَا حَكَمْتُ". فقال: "الحمد لله" رضي الله عن ابن مسعود.

فبعض الناس يَسْتَعْجِل ولا يَتَأَنَّى، وهذا خطير جدًا.

ولهذا فإنَّ من الكلمات العظيمة عند العلماء أن يقول: "لا أدري".

- جاء أناسٌ إلى الإمام مالك بن أنسٍ -رحمة الله عليه- يسألونه عن مسائل، قيل: أربعين مسألة، وقيل: أكثر من ذلك، فكان يقول: "لا أدري" فُسِّلَ المسألة الثانية فقال: "لا أدري"، فُسِّلَ المسألة الثالثة فقال: "لا أدري"،

قالوا: سبحان الله! نأتيك من بعيد وتقول: "لا أدري"؟!

قال: "ارجع إليهم وقل لهم: مالك بن أنس لا يدري".

بعض علماء السلف يقول: "لا أدري؛ ما أبردها على قلبي"، يعني: باردةً وسهلةً، ما فيها تكلف، لكن إذا تقحمت

المسألة وأنت لا تُتَقَنُّ حقيقتها دخلت في ورطات الأمور، أمّا إذا كنت تعلم ضابط العلم وضابط المسألة؛

فتكلم بالعلم وبالوحي من كتاب الله ومن سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-

فالتكلف في الفتوى والتجرو على الفتوى خطير جدًا حتى في تفسير القرآن.

- بعض الناس يريد أن يُفسِّر القرآن برأيه ويقول: أنا أتوقع أنَّ المعنى كذا، وأتوقع أن الآية كذا!

يا أخي هذا الأمر لا تتكلم به، إذا كان عندك علمٌ من كتاب الله وسنة رسوله، ومن كلام الصحابة والمفسرين؛ فتكلم، وإذا ما كان عندك علمٌ فأمسك.

ولهذا تجد بعض الناس يتكلم في الحروف المقطعة، ويقول: إنَّ لها دلالات، فإذا جمعت الأرقام فإنه يخرج

كذا، وإذا حسبت عدد السور وعدد الحروف فيكون كذا، وإذا ضربت هذا على هذا، وقسمت هذا على هذا

يكون كذا!

سبحان الله! افتراءات يفترونها، وأشياء يدعونها، وكلها مخالفة لما عليه سلف الأمة -رحمة الله عليهم-

- لو تنظر في حال أبي بكر؛ كان يخاف من الفتوى ويتهيب منها، وعمر يقول: "اتهموا الرأي في الدين، لورأيتني

يوم أبي جندل وأنا أجادل الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأبا بكر..."^{١٧٥}، في قصة صلح الحديبية، فهذه عبرة

لنا، فإذا كان عمر يحذرنا من هذا، فكيف بنا!

وينقل عن أبي بكر قوله: "أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، أَوْ أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِنْ أَنَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟"^{١٧٦}،

رضي الله عنهم وأرضاهم، فهؤلاء هم قدوة المسلمين.

- قال: (وَنَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ)، ولا ندخل في الأمور بغير علم، لا في تفسير القرآن، ولا فيما اشتبه علينا علمه لقلة

علمنا، ولا فيما أخفاه الله -عز وجل- عنا، فنمسيك، وهذا هو الواجب على أهل الإسلام، وهذه طريقة أهل

السنة والجماعة أنهم لا يتكلفون، ولهذا لما تكلف المعتزلة والجهمية والأشاعرة وغيرهم في مسائل الأسماء

والصفات ضلُّوا عن سواء السبيل، فتكلموا بغير علم وقعدوا قواعد باطلة، فكل هذا من الغلط العظيم.

(وَنَرَى الْمَسْحَ عَلَى الْخَفَيْنِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرَ كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ.)

^{١٧٥} اتَّهَمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَرُدُّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَأْيِي اجْتِهَادًا، وَاللَّهُ مَا أَلُو عَنْ الْحَقِّ وَذَلِكَ يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَالْكَفَّارُ بَيْنَ يَدَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلَ مَكَّةَ فَقَالَ اكْتُبُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالُوا إِنَّا قَدْ صَدَقْنَاكَ بِمَا تَقُولُ وَلَكِنْ تَكْتَبُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ قَالَ فَرَضِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَيْتَ عَلَيْهِمْ حَتَّى قَالَ يَا عُمَرُ تَرَانِي قَدْ رَضِيتُ وَتَأْبَى قَالَ فَرَضِيتُ

^{١٧٦} (1) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (136/6).

وَالْحَجُّ وَالْجِهَادُ فَرَضَانِ مَاضِيَانِ مَعَ أُولَى الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ -بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ - إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ) .

- يقول: (وَنَرَى الْمَسْحَ عَلَى الْخَفَيْنِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ) ، هذه مسألة المسح على الخفين متواترة عن النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:6] ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ منصوب عطفاً على ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾، فتدخل في الغسل، وقُرئت قراءةً صحيحة ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالكسر، فیدخل في المسح ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾، ولكن في السُّنَّة تَوَاتَرَتْ تَوَاتُرُ قَطْعِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- ورواه الجمع الكثير مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ مَسَحَ عَلَى الْخَفَيْنِ فِي السَّفَرِ وَفِي الْحَضَرِ، ففي حديث الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَهْوَيْتُ لِأَنْزِعَ خُفَّيْهِ: «دَعْنِي فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ فَمَسَحَ عَلَيْهِمَا»^{١٧٧} -صلى الله عليه وسلم.

والخف: ما كان من جلدٍ.

والجورب: ما كان من قطنٍ أو صوفٍ ونحوه؛ وكلاهما حكمهما واحدٌ، فالمسح على الخفين سُنَّةٌ ثابتة عن نبينا -صلى الله عليه وسلم-.

؟ لماذا أدخل الطحاوي هذه المسألة ضمن المتن مع أنَّها مسألة فقهية؟

- لأنَّه اشتهر عن المبتدعة -خصوصاً الرافضة- إنكار المسح على الخفين، ومخالفة سُنَّةِ النبي -صلى الله عليه وسلم- الثَّابِتة، فلا يرون المسح على الخفين، ويقولون: المسح على الرجلين. وهذا لا شكَّ أَنَّهُ مغالطة عظيمة وترك للحق، والعدول عنه إلى الباطل -نسأل الله العافية والسلامة. ولهذا نصَّ العلماء في العقيدة على هذه المسألة؛ لأنَّها من المسائل التي خالف فيها الرافضة حتى صارت شعاراً لهم. والمسح على الخفين يكون في السَّفَرِ وفي الحضر، فلورأينا شخصاً قال: أنا لا أريد المسح على الخفين تورعاً! نقول: تورعك هذا تورعٌ بارد لا خير فيه، عليك بسُنَّةِ النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وَالْحَجُّ وَالْجِهَادُ فَرَضَانِ مَاضِيَانِ مَعَ أُولَى الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ -بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ - إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، لَا يُبْطَلُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يَنْقُضُهُمَا).

- الحج ركنٌ من أركان الإسلام، وهو الرُّكنُ الخامس، ويجبُ في العُمْرِ مَرَّةً واحدةً، وهكذا العُمْرة تجبُ مَرَّةً واحدةً، لكن وليَّ الأمر عليه أن يُقيمَ الحجَّ كلَّ سنةٍ للنَّاسِ، يُنظِّمَ شُؤْنَ الحجِّ وَيُرَتِّبَ أُمُورَهُ، ويبعث أميراً للحجِّ، ويتحرى متى دخلَ الشَّهر، ومتى الوقوف بعرفة، ومتى يُدفعون من مِنى إلى عرفات، ومتى يُدفعون من عرفاتٍ إلى مُزدلفة ثم إلى مِنى، فأُمُورُ الحجِّ تحتاج إلى ترتيبٍ، فنحن نكونُ مع أميرِ المسلمين في الحجِّ وأمراء الحجِّ، وأوَّلُ أميرٍ للحجِّ هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تَوَلَّى شُؤْنَ الحجِّ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ، ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عمر، ثُمَّ عثمان، إلى يومنا هذا والحجُّ عليه أمير -والحمد لله.

^{١٧٧} البخاري: (203)

ولا ينقطع الحج إطلاقاً إلى قيام الساعة، لو قُدِّرَ أنَّ أميراً ظالماً ضالاً خبيثاً المعتقِدِ قال: لا حجَّ عليكم أيُّها المسلمون، هل يُلتفت إلى كلامه؟

- قال: (لَا يُبْطِلُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يَنْقُضُهُمَا) ، ولكن نحجُّ مع أمير الحجِّ سواء كان برّاً أو فاجراً؛ لأنَّ هذا الفجور لا يضر، ففجوره على نفسه، لكن تقوم هذه الشَّعيرة من شعائر الإسلام وتثبت والحمد لله. وهكذا الجهادُ، فالجهاد من أعظم شعائر الإسلام كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «وَذَرُوهُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ»^{١٧٨} ، فالجهاد في سبيل الله -وهو قتال العدو في سبيل الله- ينقسم إلى قسمين:
(١) جهاد دفع.
(٢) جهاد طلب.

- فالجهاد يكون مع أمراء المسلمين وقوَّادهم؛ لأنَّه لا يجوز أن يُجاهد بدون إذن ولي الأمر؛ لأنَّه إذا جاهد بدون إذن ولي الأمر صارت فوضى، فالجهاد إنَّما يكون مع ولاة أمور المسلمين، ولهذا قال: (وَالْحَجُّ وَالْجِهَادُ فَرَضَانِ مَاضِيَانِ مَعَ أُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

- أمَّا إذا قال قائل: أنا سأقاتل هنا، أو قال آخر: أنا سأقاتل هنا، أو سأقدم هنا، وقال آخر: أنا سأأخر! فما فيه شيء يضبطهم، فتصير فوضى عارمة، ويذهبون لُقْمَةً سَائِغَةً للعدوِّ، وتضعف شوكتهم، وتتفرق كلمتهم، ويُسلِّط عليهم العدو، فلا يجوز أن يغزو المسلمون إلا بإذن وليِّ الأمر، وهذا دليله في القرآن قوله: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ ائْتِنَا بآيَةٍ نَكُنَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [البقرة: 246]، وقال: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59]، فهذه كلُّها أدلَّة من القرآن.

- أمَّا أدلَّة السُّنَّة: قوله -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيَتَّقَى بِهِ»^{١٧٩} . وسنَّة الجهاد بدأها النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- وهي مُستمرة، ولم يُقاتل المسلمون من عهد النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- وعهد الصَّحابة بدون إذن وليِّ الأمر إطلاقاً.

- قوله: (إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، لَا يُبْطِلُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يَنْقُضُهُمَا). يقال: إنَّ أصحابَ الفرقة القاديانيَّة -التي تسمَّى الأحمدية- وهي فرقة كافرة خارجة عن الإسلام؛ لأنَّه ادَّعى أنَّه المهدي، ثم ادَّعى النبوة، وعندهم عقائد كُفريَّة كثيرة، فمن الأشياء التي أتى بها "ميرزا القادياني": إسقاط شريعة الجهاد.

هل الجهاد يسقط بإسقاط هؤلاء الطَّواغيت؟

^{١٧٨}واه أحمد : 5 / 231، والترمذي (2616) وصححه ؛ والنسائي في الكبرى (11394)، وابن ماجه (3973)، والطبراني في الكبير: 130، 131/ 266)، والحاكم : 2 / 412، 413، وصححه على شرطيهما، ووافقه الذهبي .
^{١٧٩}مسلم (1841).

- لا، الجهادُ شريعةٌ ماضيةٌ إلى قيام الساعة، لكن يكون مع ولادة أمور المسلمين، وليس مع التنظيمات الظالمة والإرهابية والعصابات، فالجهادُ يكون مع ولادة أمور المسلمين برّهم وفاجرهم، فحتى لو كان عنده فُجورٌ نصبرُ عليه؛ لأنَّ فُجوره على نفسه، أمّا الجهادُ فيبقى.

هل معنى قوله: (إلى قيام الساعة) أنه في كل يوم لابد من الجهاد؟

- الجواب: لا، قد يكون هناك جهادٌ وقتالٌ وقد يكون هناك صلحٌ، والدليل على هذا أنَّ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- صالَحَ الكُفَّارَ في صلحِ الحُدَيْبِيَّةِ، وعاهد اليهود في المدينة، وهذا التَّوقف عن القتال للكفار للأسباب، فيُصالحهم؛ بل قد يعطيهم مالاً للضرورة لدفع شرِّهم. فالجهاد له ضوابطٌ شرعيةٌ، وله شروطٌ، وله قواعدٌ معروفة عند العلماء.
- شروطٌ في إقامة الجهادِ نفسه.
- وشروطٌ في المجاهد الذي يُقاتل وصفته.
- وقد تسقط بعض هذه الشروط في جهادِ الدَّفْعِ، فإذا هَجَمَ العدوُّ عليك ووصل إلى بيتك، فتُدافع عن حُرْمَتِكَ، وتُدافع عن نفسك، وتُدافع عن عرضك، ولكن لا بدَّ أن يكون مع ولي أمر المسلمين حتى ترتب شؤون المسلمين.
- أمّا أن يظنَّ ظانٌّ أنه لا بدَّ من القتالِ كل يوم؛ فهذا الظنُّ في غير مَحَلِّه؛ لأنه ثبت في السُّنَّة أنه قبل يوم القيامة إذا نزل عيسى بن مريم وخرج يأجوج ومأجوج، فيقول الله لعيسى: «إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرَّزَ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ»^{١٨٠}، فلا يقاتلونهم، ويتحرَّزون منهم، وهذا دليل على أنَّه قد يكون في بعض الأوقات يكثر الكفار، فيكون من المصلحة أن يتحرَّز المسلمون في حصنٍ، أو أن يُصالحوا الكفار على مال أو على غير ذلك، وقد ذكر الفقهاء في كتب الجهاد التفاصيل في هذه المسائل العظيمة، فيجب الرجوع إليها.
- ولا يجوز لبعض الناس أن يقولوا: لا نطيع الأُمراء، ولا نخرج مع الأُمراء، ولا نقاتل مع أُمراء المسلمين، فهذا من الأغلاط العظيمة، ومن ضلالات الرافضة؛ لأن الرافضة يقولون: كل شيء يسقط حتى يخرج المهدي المنتظر فنخرج معه ونقاتل، فيسقطون شريعة الجهاد، أمّا الإسلام فلا يقولون هذا.
- فالإمام حتى لو كان فاجرًا أو فاسقًا أو ظالمًا أو ناقصًا؛ فالجهاد لا يكون إلا مع ولي الأمر كما قرأنا هنا، وهذا معنى قوله: (وَالْحَجُّ وَالْجِهَادُ فَرَضَانِ مَاضِيَانِ مَعَ أُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ -بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ- إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، لَا يُبْطَلُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يَنْقُضُهُمَا).

فلو جاء واحد وقال: نسقط الجهاد عن المسلمين ونلغيه. ما الحكم؟

- كلامه باطلٌ ومردودٌ عليه، الجهادُ باقٍ إلى قيام الساعة.

لكن أيُّ جهاد هو الباقي إلى قيام الساعة؟

- الجهادُ الشرعي الصحيح مع ولي أمر المسلمين بضوابطه الشرعية، فهذا فرض.

أما لو قيل: لا نسمع للأمير في إسقاط الجهاد، ونذهب نقاتل؛ فلا، لابد من سائس يسوس الناس، ولا بد من قائد.

وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُہَالَهُمْ سَادُوا

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ

{وَنُؤْمِنُ بِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنَا حَافِظِينَ. وَنُؤْمِنُ بِمَلِكِ الْمَوْتِ الْمُوَكَّلِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ الْعَالَمِينَ. وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا}.

• يقول المصنف: (وَنُؤْمِنُ بِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنَا حَافِظِينَ) ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار: 10-12]، وقال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 17-18]، وقال: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: 11]، وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: 80].

• والنبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرِجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ» ، فهؤلاء الكرام الكاتبين يكتبون الأعمال التي يعملها العبد نُؤْمِنُ بِهِمْ وإن لم نرهم بأعيننا، فنؤمن بأن كل ما نقوله ونتكلم به ونفعله فإنه يُكتب علينا، فيُكتب الخير والشرِّ، وهذا يدعوننا -يا إخوان- إلى الإكثار من العمل الصَّالح، ومن الذِّكرِ، ومن الكلام الطَّيِّبِ، فإننا نأمنُ بالملائكة، وإنَّ هذا ممَّا يُحَفِّظُ ولا يخفى على الله -عزَّ وجلَّ- وهو ممَّا ينفعُ المؤمن ويُنجيه من عذابِ الله، كما في نفسِ الوقتِ نخشى من الذُّنُوبِ، ونخشى من الكلام السيِّءِ، ونخشى من المعاصي، فإنَّ الملائكة يكتبون، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار: 10-12].

• قال: (وَنُؤْمِنُ بِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنَا حَافِظِينَ) ، والإيمان بالملائكة هذا ركنٌ من أركانِ الإيمان السِّتَّةِ فنحن نُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ونؤمن بالقدرِ خيره وشرِّه. فالإيمان بالملائكة هو الركنُ الثاني من أركان الإيمان، ومن أنواع الملائكة: الكرام الكاتبين، وكذلك ملك الموت، وغير ذلك. فمن أنكر الملائكة وجحدهم فقد كفر وخرج من الإسلام -نسأل الله العافية والسلامة.

• قال: (وَنُؤْمِنُ بِمَلِكِ الْمَوْتِ الْمُوَكَّلِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ الْعَالَمِينَ)، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: 11]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: 61].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: 42].

• ولهذا عند الموت تأتي ملائكة الرَّحمةِ أو ملائكة العذابِ، ثمَّ يأتي مَلَكُ الْمَوْتِ لِقَبْضِ الرُّوحِ، فيقبض روح العبدِ، ثم لا تدع الملائكة الرُّوحَ في يده؛ بل تضعها إمَّا في حنوطٍ وكفنٍ مِنَ الْجَنَّةِ، أو حنوطٍ وكفنٍ مِنَ النَّارِ- نسألُ اللهَ جلَّ وعَلا أن يُحسِنَ خاتمتنا.

والموتُ حقٌّ لا بدَّ منه، الكلُّ سيموت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر:30]، لن يبقى أحدٌ في الدُّنيا، والموتُ صِفةٌ وجوديَّةٌ، وليس صِفةً عدميَّةً؛ لأنَّ الروحَ تنتقل من حالٍ إلى حال، ولا تُعَدَمُ الرُّوحُ أو تَفْنَى، بل تذهب إلى دارِ البرزخ، والله أعلم كيف هي الروح.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85]، هذه الروح التي في جنبك بها تحيا، فإذا نام الإنسان خرجت منه.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ هذه وفاة صغرى، فإذا أراد الله له أن يستيقظ ردَّ عليه روحه، وإذا أراد الله الوفاة والموت الكامل أمسك روحه، قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:42].

؟ والروح خلقٌ من خلقِ الله -عزَّ وجلَّ- ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:16]، ولكن كيف هذه الروح؟ وما صفتها؟ وما حقيقتها؟

• نقول: الله أعلم، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85]، فالأرواح هذه تُقبض عند الموت فتخرج، وقد جاء في سُنَّةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- صِفةُ خروجِ روحِ المؤمن، وصِفةُ خروجِ روحِ الكافر والفاجر والمنافق، فالمؤمن تخرجُ رُوحُه كالقطرة تنزلُ في فيءِ السَّقاء -بسهولة- والكافر تُنزعُ رُوحُه نزعًا كما يُنزعُ السَّفود من الصُّوفِ المبلول، يعني تُنزعُ من كلِّ عرقٍ ومن كلِّ مكانٍ ليتألَّم أشدَّ الألم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام:93]، وأشدُّ ما تكون العقوبة هي عقوبة الكافر عند الموت عندما يرى الحقائق، ويُعائِن ملائكة العذاب.

• قال: ﴿وَنُؤْمِنُ بِمَلَكِ الْمَوْتِ﴾ ، ملكُ الموت هذا هو اسمه في القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة:11]، بعضهم يقول: "عزرائيل" ولكن لا دليل على ذلك، فنقول مثلما جاء: "ملك الموت" ولا نسميه عزرائيل؛ لأنَّه ما جاءت في سُنَّةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- هذه التَّسميَّة.

• إنَّ الكفار يُعَذَّبون عند الموت، ويرون الحقائق، أمَّا المؤمنون فقال الله تعالى عنهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّاتِي﴾ [الفجر:27-30]، وفي آخر سورة الواقعة ذكر الله ثلاثة أحوال للميتين: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ (94) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:88-96].

• فَمِنْ الآن أَيُّهَا المسلم، أَيُّهَا المؤمن؛ استعد لهذه اللحظات بِحُسْنِ الطاعة، وقوة الإيمان، وقراءة القرآن، والعمل الصالح والتوبة، والابتعاد عمَّا يُغضب الله -سبحانه وتعالى-.

- وممّا جاء في السنة أيضًا: قال -عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ»^{١٨١}، جسّدك الآن فيه أعضاؤك المحسوسة، ومن ضمنها البصر، فبصرك يتبع الرُّوح وهي تخرج من جسمك، الروح تخرج فالبصر يراها وهي تخرج في هذه اللحظات، ولهذا فإن أكثر الموتى يفتح عينيه عند الموت، فينظر إلى الروح وهي تخرج، ويُشرع لمن حضر المحتضر أن يغمّض عينيه بعد خروج روحه، اللهم أحسن خاتمتنا يا رَبِّ العالمين.
- فهذا الأمر نؤمن به، وبكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- عن الملائكة، فنؤمن بصفاتهم، ونؤمن بأعمالهم، وتقدّم الإشارة إلى هذا في أركان الإيمان، لكن هنا أكّد على هذه المسألة فقال: (وَنُؤْمِنُ بِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنَا حَافِظِينَ، وَنُؤْمِنُ بِمَلَكِ الْمَوْتِ الْمُوَكَّلِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ الْعَالَمِينَ).

وصلى الله على نبيينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.



^{١٨١}مسلم (920)

الدرس الثاني عشر



الحمد لله رب العالمين، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{قال المصنف -رحمه الله وإيانا: (وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا. وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ لِلْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ عَنْ: رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ، عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ).}

• يقول -رحمه الله: (وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ)، هذا معطوف على الجملة السابقة (وَنُؤْمِنُ بِمَلَكِ الْمَوْتِ)، أي: نؤمن بعذاب القبر.

• قال: (لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا. وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ لِلْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ عَنْ: رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ).

الإيمان بعذاب القبر ونعيمه هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، الإيمان بالفتنة التي تكون في القبر -وهي الاختبار- وبعدها إما نعيمٌ وإما عذابٌ إلى قيام الساعة، فهذا من عقيدة أهل السنة والجماعة، دلَّ على هذا الأمر القرآن وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأجمع على هذا أهل السنة والجماعة.

أما القرآن العظيم فقد دلَّ على وقوع عذاب القبر في مواضع كثيرة من كتاب الله، منها قول الله -جلَّ وعلا-

عن فروعهم وقومه: ﴿سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46].

إذن النار يُعرضون عليها غُدُوًّا وَعَشِيًّا هذا قبل قيام الساعة. كيف هذا؟

الله أعلم، لا يجوز أن ندخل مُتوهمين بأرائنا، ولا مُتخرصين بأهوائنا، فهذه أمور غيبية، فخير ربنا حق لا ريب فيه ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

وفي سورة الطور قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:47].

✱ قال بعض العلماء: إنَّه القتل في الدنيا.

✱ وقال بعضهم: إنَّ المراد به عذاب البرزخ.

□ وَمِنَ الْأَذَلِّ عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

❖ مَا قَصَّهَ اللَّهُ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ، فقال: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ

اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح:25]، فهذا دليل على أنهم مُباشرة بعد الغرق أُدخلوا النَّارَ، فالفاء تدل على

التعقيب بسرعة، وهذا يدل على ثبوت عذاب القبر لهؤلاء.

❖ وأيضًا في سورة إبراهيم قال الله -جلَّ وعلا: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:27]، فالتثبيت هذا في الدنيا

بأن يثبتته على الإسلام حتى يموت، وفي الآخرة في القبر عندما يُسأل: مَنْ رَبُّهُ؟ وما دينه؟ وَمَنْ نَبِيُّهُ؟.

❖ وفي سورة الرعد قال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ

مِنَ وَّاقٍ﴾ [الرعد:34].

✓ قال بعض العلماء: المقصود بقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هذا يكون في القبر إذا ماتوا.

✓ وبعضهم قال: هو بالعقوبة والقتل إذا قام الجهاد في الدنيا، ومنه قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ

يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:101].

○ المرة الأولى: إذا قام الجهاد، لما كان في غزوة بدروغيرها، فيعذبون بالقتل والأسر.

○ المرة الثانية: عذاب القبر.

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذاب جهنم.

فهذه مواضع من القرآن، وهناك مواضع أخرى دَلَّتْ على أَنَّ هناك عذاب يكون في القبر.

وإذا ثبت أَنَّ هناك عذاب للكفار في القبر، فيدل ذلك بمفهوم المخالفة على أَنَّ المؤمنين يُعَمَّمون في قبورهم

إذا ماتوا.

● أَمَّا مِنَ السُّنَّةِ فَقَدْ جَاءَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ جَدًّا عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الصَّحِيحِينَ وَفِي السَّنَنِ وَفِي

المسانيد عن عدد كبير من أصحاب النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

✱ ففي الحديث: قال -صلى الله عليه وسلم: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، مِنْ عَذَابِ

جَهَنَّمَ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَفِتْنَةِ الْمُحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ شَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ ثُمَّ يَدْعُوا لِنَفْسِهِ بِمَا بَدَأَ لَهُ»^{١٨٢}.

^{١٨٢} رواه النسائي 1293 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ 588 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ [وفي رواية: إِذَا فَرَّغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ] فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمُحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ.

★ وفي صحيح البخاري ومسلم: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ».

★ وفي الصحيح أيضًا قال -صلى الله عليه وسلم: «يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا»^{١٨٣}.

★ وفي مسند الإمام أحمد وغيره بسند صحيح ثابت من حديث البراء بن عازب -رضي الله عنهما- وهو حديث مشهور، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي -صلى الله عليه وسلم- فقعده وقعدنا حول كأن على رؤوسنا الطير، وهو يلحد له، فقال: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ؛ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنَ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ! أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ».

قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنَ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مِسْكِ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ».

قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ -يَعْنِي بِهَا- عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ؛ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِمَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ؛ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى».

قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي؛ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ».

قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنَ رُوحِهَا وَطِيمَا، وَيُفَسِّحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ».

قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ! فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ؛ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي».

غاية الفرح، وغاية السرور في نعيم القبر.

^{١٨٣} البخاري (1309)

قَالَ: «وَأَنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ».

قَالَ: «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزَعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ حَيْفَةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟! فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فُلَانٍ؛ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يَفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40]. فَيَقُولُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى. فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31] فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ؛ فَأَفْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْشَّرِّ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ! فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»^{١٨٤}.

- عَرَفَ أَنَّ الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ أَشَدَّ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي لَقِيَهُ فِي هَذَا الْقَبْرِ، وَنَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَحْسِنَ لَنَا الْخَاتِمَةَ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَنَا وَإِيَّاكُمْ وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ مَمَّنْ يَنْتَعِمُ فِي قَبْرِهِ وَلَا يُعَذَّبُ.
 - وَمِمَّا جَاءَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: "مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى «بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ»، يَعْنِي: ذَنْبٌ كَبِيرٌ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِكَبِيرٍ تَرَكَهُ، تَسَاهَلُوا حَتَّى اسْتَحَقُّوا تِلْكَ الْعُقُوبَةَ، قَالَ: «أَمَّا أَحَدُهُمَا: فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ»، وَفِي رِوَايَةٍ «لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ».
- قَالَ: «وَأَمَّا الْآخَرُ: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ» فَأَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرِ وَاحِدَةٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَنْبَسَا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.
- فَعَدَّ النَّمِيمَةَ وَالتَّزْرَهُ مِنَ الْبَوْلِ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَأَنَّهَا مُوجِبَةٌ لِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَنَّهُ مِنَ السَّهْلِ عَلَى الْإِنْسَانِ تَرْكُ هَذَا الشَّيْءِ، قَالَ: «وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»، يَعْنِي: سَهْلٌ أَنْ يَتَنَزَّطَ الْإِنْسَانُ وَيَسْتَنْجِيَ بِالْمَاءِ أَوْ بِالْأَحْجَارِ. وَكَذَلِكَ مِنَ السَّهْلِ أَنْ يَتْرَكَ النَّمِيمَةَ، وَلَكِنْ -نَسَأَلَ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ- تَسَاهَلُوا حَتَّى اسْتَحَقُّوا هَذِهِ الْعُقُوبَةَ.

^{١٨٤} مسند أحمد وصحيح أبي داود

- لكن لا يُشرع أن نَشُقَّ جريدة ونضعها في القبور، أو أن نضع وَرْدًا؛ بل هذا من الابتداع في الدين، وما فعله النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- هذا خاص به، فقال: «لَعَلَّهُ يَخَفُّ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»، فهذا خاص بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ولا يُقاس عليه غيره، وهو يُوحى إليه -صلى الله عليه وسلم-.

فلا يُشرع لأحدٍ أن يضع مثل ذلك عند القبور:

✱ **أولاً:** لأنه لا يعلم هل يُعَذَّب أو يُنَعَّم.

✱ **ثانيًا:** لأنه -صلى الله عليه وسلم- لم يفعل ذلك في جميع القبور.

✱ **ثالثًا:** الصحابة لم يفعلوا ذلك مع قبور المسلمين.

ولهذا فإنَّ مَنْ وضع هذا الشيء كالورد أو إكليل زهور؛ فهذه من عادات النَّصارى، ولا يجوز تقليدهم، وأمَّا النبي -صلى الله عليه وسلم- فهو يُوحى إليه -صلوات الله وسلامه عليه- فالأخبار عن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- في عذاب القبر ونعيمه تواترت.

- قال المصنف: (وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا)، يعني: يُعَذَّب مَنْ كَانَ مُسْتَحَقًّا للعذاب، ولا يظلم ربك أحدًا.

والتَّعِيم لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا، فهناك مَنْ يُنَعَّم، وهناك مَنْ يُعَذَّب، فَمَنْ يُنَعَّم فبفضل من الله -جلَّ وعلا- ثم بأعماله التي وفقه الله لها، فهو أهل لذلك.

وكذلك يُعَذَّب مَنْ كَانَ أَهْلًا للعذاب، يعني: مستحقٌّ للعذاب.

فعذاب القبر ونعيمه من عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي مبنية على الآيات القرآنية، وعلى الأحاديث النبوية.

وأمَّا المعتزلة العقلانيون فإنهم يُنكرون هذا بالتأويلات والتحريفات.

ولهذا نقول: مَنْ أنكر عذاب القبر ونعيمه فهو كافرٌ إن كَذَّب خبر الله وخبر رسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنَّ هذا من الجحد والتَّكذيب، فالجحد للشيعة كفر مخرج من الملة.

- أمَّا مَنْ سَلَكَ سَبِيلَ التَّأْوِيلِ والتَّحْرِيفِ للنصوص فأنكر عذاب القبر من باب تحريف النصوص، ويقول:

النصوص لا تدل عليه؛ فهذا مُبتدعٌ ضالٌّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وهذا دليلٌ على انحرافه وضلاله.

وهذه الأمور ليس مَرَدُّهَا العقل، هذه أمور غيب، فالجَنَّةُ والنَّارُ غيبٌ، وكذلك العذاب في البرزخ غيبٌ، ومن صفات المؤمنين: أنهم يؤمنون بالغيب، فما دام أَنَّ الله أخبرنا بهذا، وأخبرنا رسوله -صلى الله عليه وسلم- فنحن نُؤْمِنُ بذلك وإن لم نشهد ذلك بأعيننا.

؟ **قد يقول قائل: قد يأتي السَّيْلُ ويُخرج بعض أطراف الموتى من قُبُورِهِمْ وَتَرَى عِظَامَهُمْ. هل معنى**

هذا أنه ليس هناك عذاب؟

نقول: لا، العذاب أو التَّعِيم مَخْفِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ، قَدْ أَخْفَاهُ اللهُ عَنَّا.

- وفي الصحيح قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»^{١٨٥}.

معنى الحديث: لو كان شخص واحد في المقبرة الكبيرة يُعَذَّب في قبره ونحن نسمعه وهو يُعَذَّب لهربنا أشد الهرب، ولم نستطع أن ندفن ميتًا.

«لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ» ، فهذا من حكمة الله -عز وجل- أن يتدافن الناس، وإلا لما استطاعوا أن يدفنوا.

✓ أيضًا من الحكم: أَنَّ اللَّهَ -عز وجل- يستر على العاصي، حتى وإن عُذِّب في قبره فهو مُستتر، ولو كان يُعَذَّب وأهله يعلمون لكان هذا من أَشَدِّ الخزي عليهم.

✓ وأيضًا فَإِنَّ اللَّهَ -عز وجل- يَبْتَلِي العباد بأمور أخفاها عنهم، هل يصدقون أم يكذبون؟

- ونحن لم نبين عذاب القبر أو نعيمه على خرافة، ولم نبين عذاب القبر ونعيمه على رؤيا، ولا نبين عذاب القبر ونعيمه على تخرُّصٍ، لا؛ فنحن على حقٍّ ووحى كلام رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ

الْعَذَابِ﴾، وقد سمعتم الأحاديث التي تقدمت قبل قليل، أحاديث ثابتة مُتواترة، ثم إِنَّ الصَّحَابَةَ قد قبلوا كل ذلك آمنوا به، فنترك هذا ونتبع داعية ضلالة؟! داعية فاسد، داعية خبيث، داعية إلى الشرك، داعية إلى إنكار ما جاء في الكتاب والسنة؟! هذا نقول له: تبًّا له!

نحن لا نترك ما جاء في كتاب ربنا وسنة نبينا -صلى الله عليه وسلم- لتخرصات هؤلاء، ثم إِنَّ اللَّهَ -عز وجل- على كل شيء قدير، فالله -عز وجل- يصل للعبد وإن تفرقت أجزاؤه ، وإن أكلته السباع، أو أكلته الأسماك في البحر، فَإِنَّ اللَّهَ على كل شيء قدير، يوصل إليه من العذاب ومن النعيم ما يستحقه، والله على كل شيء قدير.

- وتعرفون قصة الرجل الذي قال لأولاده: "إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَعَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ"^{١٨٦}.

فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ، قال الله -عز وجل- لأجزائه: كن؛ فكان"، واجتمع كله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117]، فالله خلق السماوات والأرض من عدم، وخلقنا وخلق كل شيء، أيعجز عن إعادتنا؟ لا يعجز -سبحانه وتعالى.

فكيف نعترض عليه ونقول: لا يقع عذاب ولا يقع نعيم!

- ثم انظر إلى الإنسان في الدنيا الآن وهو حي ليس بميت، ينام الرجل، وينام بجانبه امرأته أو ولده أو أحد إخوانه، ثم يقوم مَدْعورًا يبكي من أمور رآها، وبعضهم يقوم يصيح ويصرخ من أشياء رآها. وهذا أماننا الآن،

^{١٨٥} مسلم (160)
^{١٨٦} البخاري (3294)

ولكن روحه أراها الله أشياء جعلته يفزع أو يبكي، أو يجوع، أو يركض؛ فهذا آية من آيات الله -عزَّ وجلَّ- لا نراها، والنوم مودة صغرى.

والله -عزَّ وجلَّ- في هذه الدنيا أَرَانَا أشياءً لو قلناها للمتقدمين ما صدقونا، فكيف ننكر أمورًا أخبرنا الله عنها في كتابه.

هذا الآن رجل في شرق الأرض يُكَلِّمُ الرجلَ في غَرْبِ الأرض ويرى وجهه ويسمع صوته، ويتحدثان كأنهما بجوار بعضهما، بينهما الصحاري والبحار والأنهار والمسافات الهائلة؛ وهو يراه أمامه ويتكلم معه، فالله على كل شيء قدير، فإذا قَدِرَ العبادُ على أشياءٍ يسيرةٍ، فما عند الله أعظم، والله على كل شيء قدير، فكيف ندخل بعقولنا نرد أخبار الله وأخبار رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

ثم اعلم أَنَّ الدُّورَ ثلاثة:

★ دار الدنيا: هي الحياة الدنيا.

★ دار البرزخ: وهي مؤقتة.

★ والدار الآخرة: وهي دار المقام.

◀ فدار الدنيا: تكون الأحكام فيها مُتعلقة بالجسد والروح تبع.

◀ والبرزخ: تكون الأحكام من عقوبة ونعيم متعلقة بالروح والجسد تبع.

◀ وفي الآخرة: يكون تمام الأمر للروح وللجسد سواء، فيصل إليهما من النعيم أو من العذاب ما يستحقه العبد.

● فندسأل الله -جلَّ وعلا- أن يجعلنا وإياكم ممَّنْ يثَنِّعُ في قبره، ونسأل الله أن يعيذنا من عذاب القبر.

فمن الضلالات العظيمة إنكار عذاب القبر أو تحريفه كما صنع المبتدعة.

وكذلك لا يجوز تصديق الخرافات، ولا المبالغات، فبعض الناس يفترى الكذب على الأموات، أو يُسيء الظَّنَّ، ومن الأغلاط التي تقع عند بعض المغسلين للموتى: أنه يقول: اسودَّ وجهه، أو ابيضَّ وجهه عند الموت، أو بعد الموت، ويجعل هذا دليلًا على العقوبة أو النعيم. وهذا غير صحيح؛ لأن هذه أمور غيبية.

فقد يبيض وجه الإنسان إذا كان مرتاحًا حتى ولو كان كافرًا، وقد يسود وجهه وهو مؤمن تقي لانقباض الدم، فينقبض الدم فيسود الوجه، وليس هذا دليلًا على سوء الخاتمة.

فهذا من الأغلاط التي تنتشر -مع الأسف- عند بعض الناس، يقول: لمَّا مات ابيضَّ وجهه. وآخر يقول: لمَّا مات اسودَّ وجهه -نسأل الله العافية.

لا، هذه أشياء ما يُستدل بها لا على نعيم ولا على عذاب، وما يُستدلُّ به هو العمل الصالح، مثل: لو قال: "لا إله إلا الله" ثم مات، أو مات وهو على عمل صالح، أو مات وهو مسلم على التقوى وعلى الطاعة، فهذا على خير -إن شاء الله.

● هذا ما يتعلق بشرح هذه الجملة: (وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا)، يعني: نؤمن بعذاب القبر.

● قال: (وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ لِلْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ -صلى الله عليه وسلم-)

هذا أيضًا مما نؤمن به، أنه يأتي ملكان فيسألان العبد عن ربّه، وعن دينه، وعن نبيه، وقد سمعتم حديث البراء بن عازب، وقد جاء أيضًا في الصحيح مثله في السؤال هذا.

وتسمى "فتنة القبر" يعني: اختبار، وهذا المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]، فجاء في السنة تفسير قوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أنه عندما يوضع في قبره، يأتيه ملكان فيقعدانه، ويقولان له: مَنْ ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

• قال: (عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ) ، هذا في الصحيحين، لكن تسمية الملكين بـ "منكر ونكير" لم ترد في الصحيحين.

• الذي في صحيح البخاري حديث أنس بن مالك: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ».

انتبه! هذا ليس سماعًا مطلقًا، ولكن الله يُسْمِعُهُ قَرْعَ النِّعَالِ؛ ليبين له انقطاعه عن الأهل وانقطاعه عن الدنيا، وإلا فمعلوم أنّ الإنسان إذا دُفِنَ في اللحد يُوضع فوقه اللَّيْنُ، ويغلق اللَّيْنُ بالطين، ثم يوضع فوق الطين واللَّيْنُ التراب الكثير مسافة متر ونصف -أو نحو ذلك- ثم يوضع فوق ذلك الحصباء -الحجارة الصغيرة- حتى تمسك التراب ولا يتفرق، فَقَدْ فَقَدَ الشُّعُورَ هنا وذهب إلى الدار الآخرة، فلو جلسنا نتكلم فلن يسمعنا، لكنّ الله -عزَّ وجلَّ- من آياته البيّنات الباهرات يُسمعه قرع نعال أهله إذا فارقه. وكذلك يُسمعه السَّلام إذا سلّم المسلم عليه، وهذا ورد في السنّة.

وكذلك قتلى بدر من الكفار، ناداهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم في القليب، فقالوا: يا رسول الله، كيف تنادي أقوامًا إنما هم جيف قد أنتنت؟!

• فقال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ». فالله -عزَّ وجلَّ- أسمعهم آية من آياته.

• نرجع للحديث، قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ»، ما قال: "منكر ونكير".

• قال: «أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا».

• لكن الذي جاء فيه ذكر "منكر ونكير" حديث في سنن الترمذي، وبعض العلماء يقول: إنه حسن، والحسن من درجات الحديث الصحيح الثابت، ففي الحديث: «إِذَا قُبِرَ الْمُيْتُ أَوْ قَالَ أَحَدُكُمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ وَالْآخَرُ النَّكِيرُ»^{١٨٧}، والأمر في هذا سهل، ما دام أنه ورد في الترمذي فلا حرج في تسميتهما بمنكر ونكير؛ لأن الحديث الحسن -كما تقدم- يعتبر من الحديث الصحيح.

^{١٨٧} الترمذي (1071) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

فهذا سؤال منكر ونكير، فنحن نؤمن بعذاب القبر ونعيمه، ونؤمن بفتنة القبر -وهي السؤال والاختبار- وهي آخر فتنة تعرض للمؤمن، ولهذا أنت تقول: اللهم ثبتنا على القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ويُشرع للمسلمين إذا قبروا الميت أن ينتظروا قليلاً بعد الدفن، فيقولون: "اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، اللهم ثبته على القول الثابت"، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا فرغ من دفن الميت قال: **«اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»**^{١٨٨}، ولكن أنت لا تقول "إنه الآن يُسأل"، لأنك ما تدري، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- يُوحى إليه، فأنت لا تدري أهو يُسأل الآن أم بعد قليل، الله أعلم، فتقول مثلما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ»**، فتقول: اللهم اغفر له، اللهم ثبته".

والقيام على القبر سنة، قال تعالى: **﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾** [التوبة: 84]، فهذا للمنافقين، أمّا المؤمنون فنصلي عليهم إذا ماتوا، ونقوم على قبورهم.

؟ أيش نسوي إذا قمنا على قبورهم؟

ندعوا لهم، ونسأل الله أن يثبتهم. وبهذا نعرف أنّ التلقين بدعة، فتلقين الميت بدعة وليس سنة، فبعض الناس يأتي عند القبر بعد الدفن ويقول: يا فلان -ويناديه باسمه- سيأتيك ملكان ويقولان لك: كذا، فقل لهم: كذا!!! هو الآن لا يسمعك، وكونه يسمع قرع اليعال فهذا آية من آيات الله حتى يُبين له انقطاعه عن الدنيا، أمّا أنه يسمع كل شيء فلا **﴿فإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾** [الروم: 52] **﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾** [فاطر: 22]، فهؤلاء رأوا أهوالاً عظيمة فلا يسمعونك! ولو كان التلقين سنة لفعلها النبي -صلى الله عليه وسلم- وفعلها الصحابة، ولكن لم يرد هذا، وما نُقل في هذا المقام فهو ضعيف غير ثابت.

• قال: **(عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ).**

• إيماننا بعذاب القبر ونبعيم القبر وفتنة القبر تعتمد فيه على ما جاءت به الأخبار، يعني: الأحاديث والنصوص الشرعية، وليس على الآراء أو الرؤى والمنامات، وليس على الأهواء، وليس تخرصاً، وليس ظناً، وليس قياساً عقلياً؛ لا، هذه أمور غيبية، قال: **(عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ).**

• انتبه لهذا النص في المتن، واقرأه مرة بعد مرة، **(وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا).**

• وسؤال منكرو ونكير للميت في قبره عن: ربه، ودينه، ونبيه، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين).

^{١٨٨} رواه أبو داود، وصححه الحاكم. وإسناده جيد حسن

هذه طريقة أهل السنة والجماعة، فهم لا يؤمنون بهذه الأشياء بناءً على استدلالات عقلية، ولا بتوهمات، ولا أقوال، ولا كقولهم: حدثني فلان عن جدته عن خالته...!

ولهذا فإنَّ بعض الضُّلال من المتصوفة يقولون: إنَّ فلاناً جُئناه في قبره فمدَّ إلينا يده وسلَّم علينا! هذا كذب، حتى لو تحدث به الكثير من هؤلاء، فإن هذه الخرافات لا تُقبل من أقاويل الناس، فلان، علان...، وأخبار الولي الفلاني...!

لا، عندنا ميزان قسط، وهو ما جاء عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعن الصحابة -رضي الله عنهم.

• قال: **(وَالْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّيرانِ).**

نسأل الله العافية والسلامة.

ثبت في السنن أنَّ القبرَ إمَّا أن يكون روضة من رياض الجنة، وأنه يُفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، وكذلك يُفسح له في قبره مدُّ البصر، فيصير المكان فسيحاً بالنسبة له، مع أنه مكان ضيق؛ لأنَّ هذه الأمور متعلقة بالأرواح -كما تقدم- لأنها دار برزخ.

دار البرزخ ليست داراً مستمرة، إنما هي محلُّ انتقال، ولهذا قال تعالى: **﴿الْهَآكُمُ النَّكَارُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ**

الْمَقَابِرِ﴾ [التكاثر:1]، يعني: موتكم وبقاؤكم فيها مثل: الزيارة، وبعدها تنتقلون للدار الآخرة إذا قامت القيامة الكبرى.

فالروضة من رياض الجنة قبر المؤمن، يُفسح له سبعون ذراعاً، ويُفتح له باب إلى الجنة.

وفي المقابل: الكافر والمنافق والفاجر يكون حفرة من حفر النيران، ويُفتح له بابٌ إلى النَّارِ يأتيه من سمومها وحميمها -نسأل الله العافية والسلامة.

؟ ما هو أصل الإيمان؟

أصل الإيمان: هو قبول ما جاء عن الله، والتصديق بما أخبر الله -عزَّ وجلَّ- به.

• فإذا أنت اعترضت على الله خرجت من الإسلام والإيمان **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾** [الأحزاب:36]، إذا قضى الله شيئاً أو أخبرك بشيءٍ تقول: آمنا وصدقنا، وسمعنا وأطعنا.

• قال تعالى: **﴿الْم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ**

الصَّلَاةَ﴾ [البقرة:1-2]، فما غيَّبه الله عنَّا وأخفاه يجب أن نؤمن به، أمَّا أن ندخل بعقولنا؛ فالقول ليس له مدخل في الدار الآخرة، كيف تتكلم في شيء أخفاه الله عنك؟!

إنما أنت تتكلم بعقلك فيما تحسنه بالتجربة أو الاستقراء في أمور الدنيا فقط، أمَّا أمور الآخرة فلا مدخل للعقل فيها، فلهذا يجب علينا أن نحذر من منهج العقلانيين الذين يردون كلام الله أو يحرفونه، أو يردون كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو يحرفونه، وما معهم إلا التَّخَرُّصَاتُ وإِدْعَاءُ أَنَّهُمْ أَهْلُ عَقُولٍ.

• والعقل الصحيح يدعوك لأن تسلم للخالق -جل جلاله- وهذا كتابه الحق المبين، وهذا رسوله محمد الأمين -صلى الله عليه وسلم- **﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾** [النازعات:40]، وهؤلاء أصحابه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية العشرة؛ فهم الذين نقلوا هذه الأخبار، وهذه كتب الحديث الثابتة الصحيحة.

أَمَّا هَذَا الْعَقْلَانِي مَنْ مَعَهُ؟ وَمَنْ فَرَقَهُ؟ وَمَنْ شِيُوخُهُ؟

شيوخه الزنادقة وأهل البدع والضلالات، فهؤلاء أحقر وأزل من أن يعارضوا القرآن ويعارضوا سنة النبي - صلى الله عليه وسلم- وأفهامهم مغلوطة ومحرّفة، وهم تناقضون فيما بينهم، فالحمد لله أن عافنا الله من هذه البدع.

ولهذا فإنّ هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة، اثبت عليها يا مسلم، فتؤمن بملك الموت، وتؤمن بعذاب القبر، وتؤمن بسؤال منكر ونكير، وتؤمن بأن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران.

✱ وأوصي نفسي وإخواني المسلمين بمزيد التعلم، ومزيد النظر في كلام الله حفظاً وتدبراً وتفهماً وعملاً وامتنالاً بالقرآن العظيم، وكذلك سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

✱ وأوصي نفسي وإخواني المسلمين في كل الأرض بأن يتعلموا سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذا صحيح البخاري، وهذا صحيح مسلم، وهذه السنن يقرؤونها ويدرسونها على فهم العلماء المأمونين الراسخين في العلم المعروفين بالعقيدة الصحيحة، يستفيدون منهم ومن شروحهم.

✱ وكذلك أوصي إخواني المسلمين في كل الأرض بأن يلزموا عقيدة أهل السنة والجماعة، عقيدة السلف الصالح، فهذه الطحاوية عقيدة مباركة، وكذلك العقيدة الواسطية، وكذلك كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد للشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- وكذلك الأصول الثلاثة، والقواعد الأربع، وكشف الشبهات، وكذلك العقيدة التدمرية، والعقيدة الحموية، وكذلك كتب السنة المتقدمة مثل: كتاب "السنة" لعبد الله بن أحمد بن حنبل، و"أصول السنة" للإمام أحمد، وشرح "أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" لللالكائي، وكذلك ما ذكره البخاري في كتاب التوحيد في صحيحه، وفي كتاب الفتن، وفي أول كتاب الإيمان، وكذلك ما ذكره مسلم في مقدمته في أول الصحيح، وكذلك ما ذكره أئمة السنة؛ فمن هنا تعرف العقيدة، وهؤلاء أئمتنا وقاداتنا وساداتنا، أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن تبعهم من العلماء الذين ساروا على هذا المنهج الصحيح، منهج السلف الصالح. فيجب علينا أن نلزم هذا المنهج، وأن نستقيم على هذا المنهج ولا نحيد عنه.

• قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ

حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»^{١٨٩}، قوله «خَذَلَهُمْ» و«خَالَفَهُمْ»، انتبه لهاتين الجملتين!

هناك أناس معك على السُّنة ودرسوا، ثم خذلوا أهل السنة، ونقضوا العهد الذي أخذه الله عليهم، وزاغوا يميناً وشمالاً إمّا لطمع في دنيا، أو لطمع في منصب، أو طمع في جاهٍ، أو لرضى مسؤول، أو لغير ذلك من الأغراض الدنيوية؛ فتنازلوا عن العقيدة، وفسد دينهم، وأفسدوا دين غيرهم.

لكن أهل السنة والجماعة ثابتون، لا يضرهم هؤلاء الذين خذلوهم.

• الطائفة الثانية «خَالَفَهُمْ»، هم المخالفون، وهم أهل البدع والكفر، وأهل الإلحاد، لا يضرهم أهل الحق شيئاً، فلا تغرك كثرتهم.

^{١٨٩}مسلم (1037)

على سبيل المثال: ابن الفارض، هذا من غلاة الصوفية الضلال الاتحادية. هذا شاعر متقن له قصائد خبيثة في المعنى، حتى إن بعض قصائده تسمى: "نظم السلوك" يقول ابن تيمية: "ما أجدر أن تسمى نظم الشكوك". وفيها الاتحاد ووحدة الوجود، وأن الخالق والمخلوق شيء واحد. يقول ابن تيمية: "هذه القصيدة نفقت وراجت في أهل العصر، واستحسنها أهل العصر، وبالغوا في مدحها". وابن تيمية واحد ومعه مجموعة من أهل العلم قلّة، والأغلب يمدحون هؤلاء الملاحدة الصوفية.

أين ابن الفارض وأين هؤلاء الملاحدة؟

ذهبوا هباءً منثورًا، مع أنهم في زمنهم طار بهم افعلام في ذلك الوقت! اليوم نفس الشيء، لا يهولنك ما عليه الكفار من جلبتهم بخيلهم ورجلهم وإعلامهم، اثبت على الحق، واثبت على طريق السنة، اثبت على طريقة أهل السنة والجماعة، ما عليك، اصبر وصابر، حتى لو خالفك أهل الأرض كله؛ اثبت على القرآن والسنة يا مسلم.

• يقول النبي -صلى الله عليه وسلم في الدجال: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَيَعِيشُ يَمِينًا وَيَعِيشُ شِمَالًا، عِبَادَ اللَّهِ انْبُتُّوا...» هذه وصية النبي -صلى الله عليه وسلم.

فأنت يا مسلمون اثبتوا على الحق، واثبتوا على الصراط المستقيم، نسأل الله أن يثبتنا وإياكم. فيه شهوات، وفيه شهوات، وفيه فتن، وفيه مَضَلَات الفتن وهي خطيرة جدًّا، ولا مخرج لنا إلَّا أن نلجأ إلى ربنا سبحانه ونعتصم به، ونلجأ إلى العلم الشرعي ندرسه ونتذاكر فيما بيننا، إن وجدت أهل العلم الثِّقَات المأمونين فأت إليهم في المسجد أو في البيت، أو في المدرسة، أو في الجامعة؛ بشرط أن يكونوا مأمونين في عقيدتهم ومنهجهم، فإن لم تجدهم فابحث عن تسجيلاتهم التي تُنشر هنا وهناك لعلماء الأمة الراسخين في العلم من أهل السنة والجماعة.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

